

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية

صاحب الجلالة أمير المومنين في ذكرى المسيرة الخضراء:

المغرب في الصحراء وسيبقى في الصحراء

إن المغرب الجديد والمغرب القديم كل لا يتجزأ

المصنفات المغربية في السيرة النبوية

عبد الملك بن حبيب
وكتابه "طب العرب"

العدد 260 شهر ربيع النبوي 1407 / نونبر 1986



مسيرة فرحانية تحمل الراية المغربية

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

تهنئة

احتفل الشعب المغربي بأعياد المسيرة الخضراء والمولد النبوي الشريف وعيد الاستقلال.

وتنتهز "دعوة الحق" حلول هذه الأعياد مترادفة، لترفع إلى مقام أمير المومنين، سبط النبوة، حامي حمى الملة والدين، آيات التهاني والتبريك، داعية له، أعز الله أمره، بالنصر والتأييد، وأن يحقق الله على يديه لشعبه المزيد من الانتصارات، ولأمته الإسلامية العزة والوحدة والسؤدد، وأن يحفظه ذخراً وملاذاً لشعبه وأمته، وأن يقر عين جلالته بولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد الأمير المولى الرشيد وأخواتهما الأميرات الجليلات، وسائر أفراد أسرته الكريمة، إنه سميع مجيب.

دعوة الحق

صاحب الجلالة أمير المومنين في ذكرى المسيرة الخضراء :

المغرب في الصحراء وسيبقى في الصحراء

إن المغرب الجديد والمغرب القديم كل لا يتجزأ

احتفلت الأمة المغربية بالذكرى الحادية عشرة للمسيرة الخضراء المظفرة، والتي صادفت احتفالاتها بعيد المولد النبوي الشريف، وعيد الاستقلال المجيد، ولهذه المناسبة وجه أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره، إلى الشعب هذه الكلمة السامية :

الحمد لله

والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

شعبي العزيز

□ نحتفل اليوم بذكرى المسيرة الخضراء، ففي مثل يومنا هذا، من شهرنا هذا، سنة ألف وتسعمائة وخمس وسبعين، أعطينا أمرنا بأن تنطلق المسيرة، تلك المسيرة الميمونة الخضراء، التي مكنتنا من استرجاع أقاليمنا العزيزة في الصحراء.

إن ذكرى كهذه شعبي العزيز، ذكرى مليئة بالتاريخ والأمجاد، والدروس والحكم، فكيفما كانت قيمتها في نفسي، وكيفما كانت قوة نفسي، لا أستطيع أن أفي تماما بما تخلده فينا جميعا من إحساسات؛

إحساس برضا النفس، وارتياح الضمير، لأننا في عملنا آنذاك، تشبثنا قبل كل شيء بالقانون والتاريخ والتقاليد المعروفة والمشروعية الدولية، والمشروعية التي تركها لنا آباؤنا وأجدادنا جميعا، حينما كانوا يحكون لنا عن الصحراء، وعن أسفارهم في الصحراء، ورحلاتهم إليها، فمنذ ذلك اليوم، شعرنا أن مغربا جديدا قد خلق وأنشئ. ذلك المغرب الذي بعد سبات دام زهاء أربعين سنة، وما أقصرها في عمر بلد حقق هدفين مثاليين :

أولا : استكمال الاستقلال لأن الحماية لم تجعل منا أبدا في أي حين من الأحيان أرضا محتلة.. استكملنا استقلالنا، ولم تمر على ذلك اليوم سوى عشرين سنة حتى استكملنا وحدتنا الجنوبية.

☆ ☆ ☆

لم يكن للمغرب أن يعيش ويستمر لولا ماضيه
ولم يكن للمغرب أن يتقدم لولا حاضره.

□ إلا أن هذا المغرب الجديد، وهذا الجيل الجديد، علينا أن نعلم أنه رغم جدته لازال مرتبطا بماضيه، ويجب أن يبقى مرتبطا بماضيه.

لذا، أتوجه إلى الآباء والأمهات والأساتذة والمربين ومؤطري الحياة السياسية لأقول لهم إن المغرب الجديد، والمغرب القديم، كل لا يتجزأ، فلم يكن للمغرب أن يعيش ويستمر لولا ماضيه، ولم يكن للمغرب أن يتقدم لولا حاضره، فإيانا ثم إيانا أن نلعب بمقومات بلدنا وأن نشكك في مقومات وطننا، وأن نحاول أن نلقن سيرا جديدة، ومناهج جديدة في التعامل السياسي اليومي، لأننا آنذاك سنصبح عاقين لماضينا، وغير مرتاحين لمستقبلنا.

هذه الذكرى توجب علينا أن نعتز بما مضى، ونعتز كذلك بما سنلاقي في المستقبل، علما منا أن المغرب لا يمكنه أن يخطيء، ولا يمكنه أن يتنكر للأسباب التي جعلت منه بلدا شامخا في التاريخ.

هذه شعبي العزيز هي نصيحتي لك هذا اليوم، نعم، علينا أن نتجدد ونبتكر ونخلق، ولكن هل لا يتم هذا كله إلا إذا نحن بنينا على أنقاض حياتنا وماضينا وتاريخنا ما نريد أن نشيده.

أخاف إن نحن ركبنا هذه الطريق أن لا نضمن ماضينا، وأن لا نحقق مستقبلنا.

قلت لك شعبي العزيز في بداية كلمتي أنني لن أطيل، وهذه كلمتي لك - شعبي العزيز - حتى تبقى فخورا بماضيك مؤمنا بمستقبلك.

☆ ☆ ☆

□ أما النقطة الثانية فهي موجهة إلى الرأي العام الخارجي.

كما قلت لك شعبي العزيز في البداية نحن فخورون بالمسيرة لأنها قبل كل شيء انطلقت من المشروعية... مشروعية التاريخ ومشروعية محكمة لاهاي.

ورغم ما أراد أن ينشره أو يدعيه بعض المدعين، فإن العالم بأسره، ما عدا أصحاب النية السيئة، يعلمون أن وجودنا في الصحراء وجود شرعي لا جدال فيه، إلا أن المغرب كان في إمكانه بعدما حكمت محكمة لاهاي، وبعدما أقرت هيأة الأمم المتحدة اتفاقية مدريد، أن يغض النظر عن كل اعتبار، وأن لا يصغي إلى نصائح أو إلى مطالب بعض الدول، وحتى نفحم الخصوم، ونظهر حسن إرادتنا، تمشينا مع ما طلبه منا بعض الأصدقاء السامون من ملوك ورؤساء من مختلف أنحاء المعمور، ولبينا رغبة منظمة الوحدة الإفريقية التي كنا آنذاك عضوا نشيطا ومهما فيها، وقررنا بمحض اختيارنا أن نستجيب إلى رغبة الجميع بقبول استفتاء في الصحراء.

كما أننا أكدنا كتابيا وشفويا أننا سنلتزم بنتائج الاستفتاء كيفما كانت.

ولكن يالاسف نرى أن الغطرسة وعدم التعقل وانعدام المسؤولية، كل هذا لم يتراجع أمام حسن نيتنا وحسن إرادتنا، بل مازال خصومنا يريدون أن يشككوا الرأي العام العالمي في حقوقنا، وفيما حققناه من استرجاع سلمي دون إراقة أي دم، فأنا أقول لهم وللجميع :

الاستفتاء أنا قابله، والمغرب يقبله، كيفما كانت نتائجه، أما إذا أصبحنا نتماطل ونتلاعب بمسألة تنظيم ذلك الاستفتاء،

فليعلم الجميع أن المغرب في الصحراء، وسيبقى فيها، وليعلم أننا من طنجة إلى الكويرة رجل واحد، وقلب نابض واحد، ومواطن واحد، فأنا في انتظار ما سيقوله الحكماء في العالم، وما ستقضي به الحكمة العالمية.

فإذا أردتم الاستفتاء فالمغرب مستعد ماديا ومعنويا، ماديا ليسهل عملية الاستفتاء، ومعنويا ليقبل نتائج الاستفتاء، أما إذا أردتم التماطل وضياع الوقت فالمغرب في الصحراء، وأتحدى أن يخرجه أي أحد منها، وأزيد وأقول للذين يظنون أنهم سيستنزفون المغرب : إنكم غالطون، فكل سنة كنت أسأل، وسألت هذه السنة بالخصوص الوزارات المختصة : هل يكبدنا استمرار وجود الجيش المغربي في الصحراء ولا أقول حرب الصحراء، لأنه ليست هناك حرب في الصحراء، وأنا أتأسف لأن نبقى نعيش حالة اللا سلم واللا حرب، خسائر مالية أم لا ؟

فكان الجواب دائما وهذه السنة بالخصوص : لولا تسديد الديون التي اقتنى بها المغرب أسلحته لما أحست الميزانية المغربية بوجود الصحراء تماما ونهائيا.

إذن، لا استنزاف ماليا، ولا استنزاف اقتصاديا، ولا ملل روحيا، بل تشبث وإيمان ووقوف وثبات، فإن أردتم الاستفتاء فمرحبا بكم، وإن فضلتم التلاعب بالسلم في هذه المنطقة، وأن تعيشوا في الأكاذيب والخرافات على حساب الرأي العام العالمي، فذاك، فالمغرب في مقعد وثير في صحرائه الآمنة، لا يزعزعه عنها إلا الله سبحانه وتعالى.

شعبي العزيز :

ولنختم هذه الكلمة، ورددوا معي دائما هذه الآية القرآنية :

﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، إن الله قوي عزيز﴾.

صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

مسيرة الفتح

للأستاذ عبد الله كنون

في صحيح البخاري عن البراء بن عازب (رضي الله عنه)، قال :

تعدون أنتم الفتح، فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعد الفتح «بيعة الرضوان» يوم الحديبية.

والمسيرة الخضراء أشبه شيء بغزوة الحديبية، فإنها التي فتحت مكة كما قال هذا الصحابي الجليل، واحتج لذلك بقوله تعالى :

﴿لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾.

يعني بيعة الرضوان التي وقعت تحت شجرة في الحديبية، ولقد سمى القرآن الكريم يوم الحديبية «فتحا» - إذ قال :

﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾.

وقد نزلت هذه السورة في غزوة الحديبية.

ونحن في كلامنا على المسيرة الخضراء، بمناسبة ذكراها الحادية عشرة، إذ نسميها مسيرة الفتح، تتلمّح فيها مشابه من غزوة الحديبية، هي التي جعلت الصحابة يعدونها الفتح الحقيقي لمكة، كما جاء ذلك على لسان البراء !.

ومن هذه المشابه أن المسيرة الخضراء كما يدل عليه اسمها، لم تكن حربا معلنة على المستعمر الذي كان يحتل صحراءنا المغربية، وإنما كانت حركة سلمية، لإعلام دولي بأن هذه الأرض أرضنا، ويجب أن يعرف العالم، وفي ضمنه المغتصب الذي يحل بها، أن حقنا فيها يهدر وجوده غير الشرعي، ولذلك يحق أن ندخلها، بغير حرب ولا قتال، كما كان النبي ﷺ يعتبر مكة، وفيها البيت الحرام ملكا للعرب والمسلمين، فله أن يدخلها هو وصحابته لأداء العمرة كلما أراد، وليس لقريش القاطنة بها أن تمنعهم، بل إنه ومن معه من المسلمين أحق بها، لأنهم على ملة إبراهيم باني الكعبة، في حين أن قريشا كفار يُشركون مع الله غيره.

ولما تطور الموقف وصدوه ﷺ عن الدخول إلى مكة، قبل التفاوض معهم على ما هو معلوم من الرجوع وقضاء العمرة في العام المقبل، في شروط أخرى، رأى بعض الصحابة فيها إجحافا بحق المسلمين، وظنّ المكيّون أنهم انتصروا عليهم، ولكن الرسول ﷺ ببعد نظره قبلها كلها، وكان هذا هو ما فعله العاهل الكريم منظم المسيرة في إعداده لها، وعمله لإثبات حق المغرب في الصحراء، من

قبل انطلاق المسيرة ببضعة أعوام، علي ما نعرف جميعا، حين كان البعض يرى أن ذلك عمل غير مجد، والخصم قابض على الزمام في صحرائنا، يعتقد أنه لا يزعزعه شيء عن وجوده فيها، فيكشف أخيرا أنه كان على شفا جرف هار، وتعلو كلمة الحق، كما علت كلمة الله في مكة، وكانت الحديبية حقا هي الفتح الحقيقي لبيت الله الحرام وتطهيره من رجس الأوثان وعودته لحظيرة الإسلام.

إلى هذا الوجه الثاني من المشابه التي بين المسيرة والحديبية هناك وجه ثالث، وهو ما أرجف به الناس من احتباس عثمان (رضي الله عنه) بمكة وقتل الكفار له، مع أنه أتاها بصفة سفير، والسفير لا يقتل، وكان ذلك هو سبب بيعة الرضوان التي يقول الله عز وجل فيها : **﴿لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾**.

وكانت مبايعته للناس على الموت كما في الصحيح.

وفي المسيرة تعرض المواطنون لاستفزازات كثيرة؛ من تحليق الطائرات الحربية الإسبانية فوقهم، وتفجير المتفرقعات، وإرسال الأضواء الكاشفة عليهم بالليل، مع ما شاع من تحريض المسؤولين الجزائريين للإسبان على قتال المغاربة المسالمين السائرين في هذه التظاهرة الوطنية بدون سلاح ولا نية قتال، فكان ذلك مما يزيد في حماس المتطوعين ويجعلهم يضجون بالتكبير والتهليل وإظهار العزم والإصرار على مواصلة تقدمهم، وعدم مبالاتهم بأي خطر يتعرضون له، وهم 350,00، ما بين رجال ونساء، فهذا مما تمثل به متطوعوا المسيرة بالصحابة الذين بايعوا الرسول على الموت إذا صح قتل عثمان.

وعليه فإن المسيرة، يمكن أن تسمى «غزوة» كما يسمى كثير من علماء السيرة والمغازى الحديبية غزوة !..

ومما لا ينسى من أمر المسيرة مهزلة البرقية التي أرسلها رئيس مجلس الأمن إذ ذاك، وهو يعقوب مالك مندوب الاتحاد السوفياتي» إلى جلالة الملك أمير المؤمنين طالبا منه باسم المجلس إيقاف المسيرة، فكان جواب جلالة الحسن الثاني له حاسما، لم يعهده جلاوزة الأمن الدولي من شعوب الشرق وما يسمونه بالعالم الثالث، وهو : (لا) لا أسحبها ولا أوقفها.

فسقط في أيديهم، وقالوا للمندوب الإسباني : لا نسلك لك غير هذا، فاذهب وسوّ القضية مع المعنيّ بالأمر في المغرب.

وإذ قضت المسيرة مهمتها خطب أمير المؤمنين جلالة الملك مهيبا بالمتطوعين إلى الرجوع للقاعدة التي انطلقوا منها، وقامت الديبلوماسية حينئذ بواجبها، وسلّم الإسبان بحق المغرب في صحرائه، وعقدت اتفاقية استرجاع الصحراء، وسجلت في أرشيف الأمم المتحدة كوثيقة رسمية، فرجعوا بانتظام وانضباط، وكان هذا آخر وجه من وجوه الشبه بين المسيرة وغزوة الحديبية، إذ رجع الصحابة رضوان الله عليهم، إلى المدينة بعد صلح الحديبية، مستجيبين لنداء الرسول ﷺ، وقد علموا أن عمله هو الصواب والتدبير الذي لا يستراب.



أسباب ودواعي
المسيرة الخضراء المظفرة

للأستاذ أحمد مجيد بن جلون
مستشار قانوني بالديوان الملكي

إن مغرب الحسن الثاني العظيم بلد التحديات، ولكنه كذلك بلد التشبث بالمبادئ والقيم، وبلد الوفاء لأصالته، وبلد الاعتزاز بكرامته، والذود عن معتقداته وكيانه ووحدته، ترابية كانت أم بشرية أو إنسانية.

لقد ذاق المغرب مرارة الاستعمار، ونشوة المقاومة والنضال، حتى تنازل المحتل عن غطرسته، وأقرّ بعدم سلامة موقفه، واعترف باستقلال لم يبق في إمكانه الامتناع من تسليمه، فأعاد المغرب كرامته، واسترجع سيادته ومكانته.

إلا أنه لم يتمكن من بسط سلطته على جميع نواحي المملكة، وبقي الاستعمار، وخصوصا الإسباني، مستوليا على عدة أقاليم من ترابه، متذرعا بأسباب وهمية، لا تمت إلى المنطق والعدل بأية صلة، ولا علاقة لها بما يحتمه التاريخ والقانون.

وتمسك المغرب بموقفه العادل، فاسترجع ناحية طرفاية سنة 1958، كما استرجع سيدي إفني سنة 1969.

ولم يكن هذا بالأمر الهين، خصوصا وأن المغرب آثر الطرق السليمة، وطرح المشكل على المنظمات الدولية. وهكذا أصدرت الأمم المتحدة عدة توصيات تدين الاستعمار والاحتلال الأجنبي، وقد صدرت أول توصية يوم 16 دجنبر سنة 1956 (التوصية رقم (XX) 2072) جاء فيها على الخصوص :

«تطلب (الجمعية العامة) بإلحاح من الحكومة الإسبانية، بصفتها السلطة المسيرة، أن تتخذ حالا الإجراءات الضرورية لجعل حد للإستعمار في سيدي إفني والصحراء الإسبانية، وأن تشرع لهذه الغاية في مفاوضات حول المشاكل المتعلقة بالسيادة التي تهم هذين القطرين».

ويتجلى بوضوح من هذه التوصية أن الأمم المتحدة تعتبر أنه يوجد تشابه بل مماثلة بين حالة القطرين.

وتوالت التوصيات، وتنازلت إسبانيا للمغرب عن سيدي إفني، بعد أن سبق لها أن تنازلت عن طرفاية، لكنها امتنعت، في عناد غير منطقي وغير مجد ، عن التخلي عن الصحراء.

ولما شعر إسبانيا بأنه لا يمكنها أن تتمادى في موقفها المتصلب، عمدت إلى استعمال حيلة ظنت أنها ستساعدها على البقاء بالصحراء :

ففي يوم 3 يوليوز 1974 استقبل وزير خارجية إسبانيا سفير المغرب بمدريد، وأخبره بأن اسبانيا عازمة

على أن تمنح «الجمعية الصحراوية» مشاركة أوسع في تسيير شؤون الصحراء، دون أن يكون لذلك أي تأثير على سلطة ممثلها في الإقليم الذي يبقى بيديه حق اتخاذ القرار النهائي، وأن اسبانيا تقبل مبدأ تنظيم استفتاء بالإقليم، لكن شريطة أن لا يقع هذا الاستفتاء إلا بعد تنصيب المؤسسات التي يفرضها منح الجماعة الصحراوية الاختصاصات الجديدة التي تريد إسبانيا الاعتراف لها بها.

لكن لم تمض إلا أربع وعشرون ساعة على هذا الاقتراح حتى وجه جلالة الملك الحسن الثاني يوم 4 يوليوز للجنرال فرانكو رسالة نترجم فحواها كما يلي :

«إن المذاكرة التي راجت بالأمس بين السيد «كورتينا»، وزيركم في الخارجية، وبين سفيرنا بمدريد تنبئ بأن اسبانيا مقدمة على اتباع سياسة جديدة بالصحراء الخاضعة لنفوذها.

ولا نخفي عليكم أنه إذا كانت هذه هي الحقيقة، فإنه سينتج عن ذلك ترد كبير لعلاقاتنا، وهو أمر حاولنا دائما تجنبه، لإيماننا بأن ما يفرضه حسن الجوار ومصالحنا العليا المشتركة، كل هذا يفرض علينا أن نتجنب كل ما من شأنه أن يثير الخلافات بيننا ويتسبب في أي نزاع.

إن كل مبادرة فردية تقوم بها إسبانيا في الإقليم الصحراوي ستفرض علينا الدفاع عن حقوقنا المشروعة. وإننا لنحتفظ، نحن وحكومتنا، بحقنا في اتخاذ ما نراه ضروريا. وإننا لعلى يقين من أن فخامتكم ستعرف مرة أخرى، باتفاق مع جلالتنا، كيف تحافظ على الصداقة العتيقة التي تربط بين بلدينا والتي تكون، بالنسبة لإسبانيا وللمغرب معا، ذخيرة تستحق أن تكون ضمانة لمستقبلنا المشترك.

وتقبلوا فخامة الرئيس عبارات أسمى تقديرنا».

وأكد جلالة الملك نصره الله نفس الموقف في الخطاب الذي ألقاه يوم 10 يوليوز، بمناسبة عيد الشباب.

لكن سفير إسبانيا وجه في نفس اليوم رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة، أكد فيها أن المغرب يهدد إسبانيا، وأن بلاده إنما تريد بمبادرتها أن تهيء وسائل الاستفتاء في الصحراء وأن الحكومة المغربية تتحمل مسؤولية موقفها التوسعي.

وأمام هذا الموقف المتعنت الغريب، عقد جلالة الملك ندوة صحفية، يوم 17 شتنبر 1974، شرح فيها الموقف الثابت للمغرب، بكل وضوح.

ولم يمض على هذا الحدث إلا أقل من شهر حتى انعقدت بالرباط القمة العربية. ولما طرح مشكل الصحراء، أكد الرئيس بومدين، دون تردد :

«إن المشكل يهم منذ الآن المغرب وموريطانيا. أصرح بأنني متفق، وأنه لا يوجد بالنسبة لي أي مشكل... وإذا ما وقع اتفاق بين جلالة ملك المغرب وفخامة رئيس موريطانيا حول الجزء من الصحراء الذي سيرجع إلى كل منهما، فإنني سأكون من بين المحبذين لهذا الاتفاق».

وأضاف :

«نحن مع المغرب وموريطانيا لتحرير كل قطعة ترابية، وليست الصحراء فحسب، ولكن كذلك سبتة ومليلية والجزر التي لا زالت تخضع للاستعمار الإسباني».

في هذا الجو افتتحت دورة الأمم المتحدة، فأما موقف المغرب من قضية الصحراء فقد كان واضحا، وأما موقف اسبانيا، فقد صرح سفيرها به أمام الجمعية العامة يوم 2 أكتوبر، حيث يمكن تلخيصه في نقطتين :

1) لا يوجد أي نزاع بين إسبانيا وبين أي دولة، ما دام الأمر يتعلق باتخاذ الإجراءات الضرورية لجعل حد للاستعمار بالصحراء، وهو أمر يهم المجتمع الدولي بكامله.

2) ستسهر إسبانيا على أن يخضع الاستفتاء لما تأمر به توصيات الأمم المتحدة.

وتناول الكلمة السيد إدريس السلاوي، ممثل المغرب، فأجاب بدقة عما فاه به السفير الإسباني، مثيرا الانتباه إلى خطورة ما أقدمت عليه إسبانيا من مبادرات غيرت الأوضاع، وألحقت بالمؤسسات ضررا من الممكن أن يصبح معه اللجوء إلى الاستفتاء غير ذي مفعول، وملاحظا أنه يوجد تشابه تام بين الوضع القانوني للصحراء وبين الوضع القانوني لجبل طارق.

وحول هذه النقطة بالذات، لاحظ المندوب المغربي ما يلي :

«أكد ممثل اسبانيا أن تصفية الاستعمار بجبل طارق تعني إيجاد الحل لمشكل سيادة إسبانيا على هذه القطعة من ترابها، ولمشكل استكمال وحدتها الترابية : هذا باللفظ ما صرح به. وإذا كان الأمر على هذا الحال، فكيف يمكن القول بأن الصحراء، إذا لم تكن أرضا مواتا عند احتلالها، لا تعني تصفية الاستعمار فيها حل مشكل سيادة من نزعت منهم قهرا عليها، وحل مشكل وحدتهم الترابية ؟ فهل سيادة المغرب وموريطانيا ووحدتهما الترابية أقل أهمية أو أدنى طبيعة من سيادة إسبانيا ووحدتها الترابية ؟ إنه موقف غير مقبول منطقيا، ولكنه الوحيد الذي يمنع أن نطبق على الصحراء ما أكده سفير إسبانيا بالنسبة لجبل طارق».

وهذا بالضبط هو ما دفع المغرب إلى طلب إحالة القضية على محكمة العدل الدولية، وذلك قصد التأكد من أن الصحراء لم تكن أرضا مواتا أيام استيلاء إسبانيا عليها وأنها كانت خاضعة للسيادة المغربية.

لكن المغرب لم يكن في نزاع مع إسبانيا وحدها، بل كانت هناك أيضا الجزائر التي تدافع آنذاك عن حقوق البوليزاريو المزعوم، والتي لم يكن يروقها أن تصرح محكمة العدل الدولية بانتماء الصحراء للمغرب. ومن أجل هذا أكد السيد إدريس السلاوي أمام الجمعية العامة ما يطمئنها وذلك بقوله :

«ومما تجب ملاحظته أنه يمكن اللجوء إلى محكمة العدل الدولية دون أن يكون من الضروري أن تصرح الجمعية العامة مسبقا وبصفة نهائية، بالموقف الذي ستتخذه، وبالحل النهائي الذي ستعطيه للمشكل، إذا كان جواب المحكمة لصالح المغرب وموريطانيا أو كان ضدهما، بل يكفي أن تصرح الجمعية العامة بأنه من الممكن أن يؤثر جواب المحكمة على القرار النهائي للجمعية العامة».

وبعبارة أخرى فإن المغرب طلب اللجوء إلى خبرة، مع حفظ حقوق جميع الأطراف، كما يقول رجال القانون.

وطبعا، فإن ممثل الجزائر لم يكن راضيا عن هذا الاقتراح، ولكنه لم يكن بإمكانه معارضته، ولولا لشيء إلا اعتبارا بالتصريح الذي فاه به الرئيس بومدين في شهر أكتوبر المنصرم آنذاك، وبمناسبة قمة الرباط.

وفي يوم 13 دجنبر 1974 صادقت الجمعية العامة على التوصية رقم : 3292 التي اعترفت بصلاحية الموقف المغربي، وأحالت المشكل على محكمة العدل الدولية.

ويمكن أن نلخص فحوى هذه التوصية في النقط التالية :

- تطلب الجمعية العامة من محكمة العدل الدولية أن تجيب على سؤالين :

هل الصحراء كانت أرضا مواتا عندما احتلتها إسبانيا ؟.

وإذا كان الجواب بلا، ما هي العلاقات القانونية التي كانت تربطها بالمغرب وبموريطانيا آنذاك ؟.

- تطلب الجمعية العامة من المغرب وموريطانيا أن يزودا المحكمة الدولية بما لديهما من معلومات ووثائق كفيلة بأن تساعد على إيجاد الحل للمشكل المعروض عليها.

- تطلب بإلحاح من اسبانيا أن ترجيء الاستفتاء الذي كانت عازمة الإقدام عليه.

☆

☆ ☆

لقد كان النزاع قائما أمام محكمة العدل الدولية بين المغرب وموريطانيا من جهة، وبين اسبانيا من جهة ثانية.

وحيث كان يوجد من بين أعضاء المحكمة قاض إسباني، كان من حق المغرب وموريطانيا أن يطالبا بأن يسمح لهما بتعيين كل واحد منهما قاضيا يضاف إلى هيأة المحكمة. وتقدم طبعا المغرب وموريطانيا بطلب يرمي إلى هذه الغاية، فقررت المحكمة أن تجتمع في شهر ماي 1975. واجتمعت بالفعل، فوجدت أمامها ممثلين عن المغرب وموريطانيا وإسبانيا... والجزائر !...

ولما أعطيت الكلمة للمندوب الجزائري، تكلم من حيث الشكل عن مشروعية تدخله، ومن حيث الأصل عن رأي الجزائر حول ملف النزاع المطروح.

ففيما يتعلق بمشروعية تدخله، اضطر ممثل الجزائر إلى الاستناد على فلسفة يرجع أصلها إلى المبادئ النازية. فقد أكد أنه مما لا شك فيه أن القضية تهم شمال إفريقيا، وأن الجزائر جزء من هذه الناحية، وأن هناك حقيقة «جيو سياسية» تعطي لبلاده، بل تفرض عليها أن تتدخل في الموضوع، حفاظا على حقوقها، أي صيانة لما تقتضيه أهدافها التوسعية.

أما فيما يتعلق بصلب الموضوع، فقد أكد السيد البجاوي، وهو ممثل الجزائر، أن المحكمة غير مختصة بالنظر في المشكل المعروض عليها، وذلك للأسباب الآتية :

إن فكرة الدولة فكرة مستوردة من أوربا، وأن إفريقيا لم يكن لها سابق علم بها، بحيث لم يكن إبان احتلال إسبانيا للصحراء أي وجود لأية دولة بالقارة السمراء.

وختم تدخله بأن طلب من المحكمة أن تحكم بعدم اختصاصها، على ضوء ما أكده.

وطبعا، فإن ممثل المغرب، عندما تناول الكلمة، لاحظ بأن كلا مسؤول عن كلامه، وأنه، إذا لم يكن للجزائر وجود لا أيام احتلال إسبانيا للصحراء ولا قبلها، فإن الدولة المغربية كانت موجودة منذ أكثر من اثنى عشر قرنا، كما يشهد على ذلك تاريخها العريق والاتفاقيات التي سبق لها أن أبرمتها مع جل الدول الأوربية، ومن بينها إسبانيا نفسها.

ومن غريب الصدف، أنه، عندما كان يرافع السيد البجاوي أمام المحكمة، كان وزيره في الخارجية قد سبق له ببضعة أيام أن فاه لصحفيين بالرباط، وبعد أن تشرف بمقابلة جلالة الملك، بتصريح متفائل، معطيا للمغرب كل التطمينات، حول الموقف الذي ستتخذه الجزائر استقبالا من قضية الصحراء.

أما فيما يهم المحاكمة نفسها، فلم ترفع الجزائر صوتها بعد تدخلها الأول. لكن إسبانيا لم تتردد في استعمال كل الوسائل، المقبول منها وغير المقبول، لمعارضة المغرب وموريطانيا. وكانت تتصرف وهي الدولة المتقدمة ولا تعير تصريحات الآخرين أية قيمة، وتحاول التأثير بهذه الكيفية على المحكمة، بل لم تكن تخجل من ادعاءاتها الفارغة، وحتى أمام بعض المغالطات والأراجيف، وكأنها متأكدة من أن المحكمة لن تعمل إلا بما تؤكده هي.

وتمادت دون حياء في هذا الموقف، حتى اضطر أحد أعضاء الوفد المغربي إلى أن يدعوها إلى العدول عن هذا الأسلوب، وإلى اتخاذ موقف نزيه يلائم الاحترام الواجب للمحكمة. وكحجة على جدوى ملاحظته، قال المحامي المغربي : «عندما يؤكد المغرب أن جلالة الملك الحسن الأول زار الصحراء مرتين، تؤكد إسبانيا بأن زيارته كانت على سبيل السياحة. وعندما تؤكد إسبانيا أنها أبرمت عقد بيع للصحراء مع طفل، لا تتردد في القول بأن هذا العقد يكوّن اتفاقية دولية تلزم جميع الصحراويين. فأين المنطق وأين احترام المحكمة ؟ إنها لمواقف تتعدى التحدي».

وبعد مرافعات الأطراف أرجيء الحكم في القضية.

وفي يوم 16 أكتوبر 1975 أصدرت المحكمة توصيتها.

☆

☆ ☆

من الممكن أن نلخص توصية المحكمة في النقط الآتية :

- **إن الصحراء لم تكن أرضا مواتا إبان احتلالها.**

ـ كانت توجد بين ملك المغرب وبين القبائل التي تعيش في الصحراء علاقة بيعة، كما كانت توجد علاقة بين المجموعة الموريطانية وبين الصحراء.

أما فيما يهم الاختصاص، فقد صرحت المحكمة في بداية رأيها بأنها لم تجد سببا قاطعا للحكم بعدم اختصاصها. وكأنها تعتذر عن ذلك !..

إلا أن بعض أعضاء المحكمة لم يكونوا متفقين مع زملائهم، ولذلك فضلوا إبداء رأي خاص، كما يسمح لهم بذلك النظام الأساسي للمحكمة. وهؤلاء القضاة هم : السيد كرو، والسيد عمون، والسيد فورستير.

أما السيد كرو، وهو فرنسي الجنسية، فإنه عبر عن آرائه السياسية الاستعمارية بدلا من أن يدلي بنظرية قانونية.

وأما نائب رئيس المحكمة، السيد فؤاد عمون، فقد صرح بما يلي :

«لقد اعتبرت المحكمة بحق أنها كانت توجد روابط قانونية، إبان الاستعمار الإسباني، بين المغرب والصحراء الغربية. ولكنها لم تستند على أسباب مقنعة عندما تنقص من قيمة هذه الروابط، واعتبرت أن هذه الروابط إنما تكون روابط بيعة من طرف سكان الصحراء إلى ملك المغرب : بيعة سياسية لملك المغرب، تؤكد الفقرات 95 و107 و129.

وسأتكلم بإسهاب عن عدم صلاحية هذا الموقف، إلا أنني قبل ذلك، أريد أن أحلل فكرة البيعة لملك المغرب وأن أفسر أبعادها ومعطياتها».

وبعد هذا، تناول القاضي عمون بالدرس والتحليل الوثائق التي أدلى بها المغرب والتي تقنع بقوة وغنى روابط البيعة، تلك الروابط التي هي أغنى واصح مما يسمى بروابط السيادة.

وفي آخر تحليله، أكد الرئيس عمون بأنه مومن ومقتنع بأنه كان يوجد بين المغرب والصحراء روابط تحدت القرون وتعطي الدليل القاطع على الوحدة القانونية الموجودة بين شمال المغرب وبين صحرائه، وهما الجزآن اللذان يتكون منهما المغرب في حدوده الطبيعية وفي وحدته الترابية.

وأما القاضي فورستير، فقد أكد ما صرح به الرئيس عمون، ولكن باللجوء إلى تعليل آخر. فقد أكد ما يلي :

«اتفق مع رأي المحكمة فيما صرحت به من كون الصحراء لم تكن أرضا مواتا عند احتلالها من طرف الإسبان، وفيما أكدته من أنه كانت توجد آنذاك علاقة بيعة بين قبائل صحراوية وبين ملك المغرب.

ولكن موافقتي تقف عند هذا الحد. وأعبر عن تحفظي وعدم موافقتي على ما أكده الرأي بعد ذلك عندما صرحت المحكمة بأن المعلومات والوثائق التي بلغت إلى علمها لا تثبت وجود سيادة المغرب... على الصحراء الغربية.

لست متفقا، لأن هذا الاستنتاج ينقص كثيرا من الأهمية الاستثنائية التي تكتسيها الطبيعة الجهوية والاجتماعية والظرفية للمشكل. إن الأمر يتعلق بالصحراء الغربية، إبان فرض الاستعمار الإسباني، أي حوالي سنة 1884. إن الأمر يتعلق بافريقيا العتيقة التي لا يمكن أن يطلب منها، بكيفية تعسفية، أن تكون مؤساتها نسخة طبق الأصل من المؤسسات الأوربية، وإلا وجب أن نعتبر أن إفريقيا كلها أو جلها كانت أرضا مواتا. إن الأمر يتعلق كذلك بالمغرب.. الذي يتوفر على هياكل ذات خصوصيات وعلى أساليب تقليدية. من هذه الزاوية يتعين القيام بمقارنة بين «الروابط القانونية» التي اعترفت المحكمة بوجودها وبين المعنى التقليدي لكلمتي «الدولة» و«السيادة».

أما من جهتي، فإني أعتبر أن «الروابط القانونية»، وعلى الخصوص روابط البيعة، كما حددها رأي المحكمة، تؤدي إلى اليقين بوجود سلطة للدولة، وبوجود إدارة سياسية لا فرق بينها وبين رابطة سيادة تمارس في صحراء صعبة الوصول، وعلى قبائل بعضها رحالة، وبعضها مستمرو الإقامة في المدن».

إن الأستاذ عمون، وهو عربي الأصل، والأستاذ فرستير، وهو إفريقي، لعلى معرفة أكثر من غيرهما بمعطيات تقاليدنا وأعرافنا، وكذلك بحقيقة قارتنا !.

☆

☆ ☆

في فقرتها الأخيرة، جاءت التوصية رقم (XXIX) 3292 التي طلبت رأي محكمة العدل الدولية بما نصه :

«وتطلب (الجمعية العامة) من اللجنة الخاصة المكلفة بدراسة الأوضاع فيما يهم التصريح المتعلق بمنح الاستقلال للدول والشعوب المستعمرة، أن تراقب عن كثب ما يجري في الإقليم الصحراوي، وذلك بإرسال لجنة تزور الإقليم، وأن توجه تقريرها إلى الجمعية العامة لدراسته أثناء دورتها الثلاثين».

وعينت بالفعل لجنة لهذا الغرض، برئاسة السيد «سيمون آكي» ممثل ساحل العاج بالأمم المتحدة، وزارت اللجنة الصحراء، واطلعت على حقيقة الأوضاع، وقدمت تقريرا للجمعية العامة، وجاء في الفقرة 37 (صفحة 39) من التقرير ما يلي :

«ومن أجل هذا يظهر من واجب الأمم المتحدة أن تشجع جميع الأطراف على القيام بمفاوضات وأن توفر لهم، لهذه الغاية، الوسائل الضرورية التي تساعدهم على تحقيق نهاية سلمية للاستعمار بهذا الإقليم، كما يجب عليها أن تمنحهم، كل مساعدة ضرورية، إن هم طلبوا ذلك».

ولا أريد أن أختم هذه الفقرة، دون التذكير بنقطة لها أهميتها : أثناء المقابلة التي خص بها الرئيس بومدين أعضاء لجنة تقصي الحقائق، سأله رئيسها السيد سيمون آكي : هل للجزائر مزاعم ترابية حول الصحراء ؟ وكم كان اندهاش الرئيس آكي وهو ينصت إلى جواب الرئيس الجزائري :

«ليس لي أي مطلب. ولو كان عندي لما انتظرت، إذن الأمم المتحدة لأنتزع ما هو في ملكي».

☆

☆ ☆

وأخيرا أدلت محكمة العدل الدولية برأيها يوم 16 أكتوبر 1975، **وأكدت وجود علاقة بيعة بين القبائل الصحراوية وبين جلالة ملك المغرب، وفي نفس اليوم، ألقى جلالة الملك الحسن الثاني ذلك الخطاب التاريخي الذي لاحظ فيه حفظه الله، أن المحكمة قد أنصفت المغرب، كما أعلن، دام نصره، مبدأ المسيرة الخضراء، تلك الملحمة الخالدة التي حشدت الإرادات، ووحدت صفوف أمة بكاملها، في انطلاقة عارمة، استمدت روحها من تقاليدنا وأخلاقنا، وتشبثنا بعرش نكن له الحب والاخلاص والوفاء، والتعلق الكامل ونبادله الشغف، ولم نفتأ نعتز بطموحه الوثاب، وتفانيه في خدمة شعبه، ويقظته المثالية، وإبائه القاطع، وتجرده الدائم، وتضحياته المستمرة المثلى.**

لقد عشنا تلك الأيام الخالدة التي اندفع في ملايين المغاربة إلى تسجيل أسمائهم في لوائح المتطوعين...

وجاء يوم 5 من نوفمبر، فأعلن جلالته عن انطلاق المسيرة الخضراء ابتداء من يوم الغد. وانطلق 350.000 مواطن نحو الصحراء مسلحين بكتاب الله العزيز، واخترقوا حدودا، مصطنعة سياسيا، وغير موجودة قانونيا، ليلتقوا بإخوان فصلهم عنهم الاستعمار منذ أزيد من 50 سنة.

وقد استغرب البعض أن تنطلق هذه المسيرة، قبل أن تبدي الجمعية العامة رأيها، حول ما أكدته محكمة العدل الدولية. هذا بالضبط ما زعمته إسبانيا أمام مجلس الأمن الذي طلبت اجتماعه بمجرد الإعلان عن تنظيم المسيرة الخضراء، لكنها نسيت أو تناست أن الجمعية العامة طلبت منها في توصيتها رقم : 3292 أن لا تقدم على أي تغيير سياسي أو اجتماعي داخل الصحراء. وطبعا فإنها لم تعر هذه التوصية أي اهتمام. بل وسعت اختصاص الجمعية الصحراوية، كما تآمرت مع الجزائر فأنشأت حزبا وهميا سمته «البوليزاريو»، وأعطته جميع السلط في الإقليم، وألقت القبض على معارضيه، وركزت بالإقليم 80.000 جندي إسباني بينما لا يتعدى مجموع سكانه 74.000 مواطن !؟...

وأمام مجلس الأمن زعمت إسبانيا أن المسيرة الخضراء تخالف مقتضيات المادة 39 من النظام الأساسي للأمم المتحدة لكونها تكون تهديدا للسلم. وأصدر مجلس الأمن ثلاث توصيات، ما بين الإعلان عن المسيرة الخضراء وبين انطلاقها، وهي التوصيات رقم 377 ورقم 379 ورقم 380. ولم يستجب لمطالب إسبانيا. بل اكتفى بدعوة الأطراف إلى المفاوضة، تطبيقا للمادة 33 من قانون المنتظم الدولي.

هذه باختصار أسباب ودواعي المسيرة الخضراء المظفرة الخالدة، كما تتجلى من الأحداث. إلا أن هناك دواعي أخرى ترجع لخاصيات الشعب المغربي ولعبقريته.

إن المغرب بلد الأصالة، وشعبه متشبث بأخلاق ديننا الحنيف. وإذا عرف الاستعمار فلم يكن من الممكن أن يتصف احتلاله بالدوام والاستمرار. وإذا عرف الحيف والظلم، فإنه قاومه دون انقطاع، وجهر بعدم امتثاله له، حتى في إبان إكراهه على القبول والامتثال. وإذا فضل اللجوء إلى المؤسسات الدولية، فما ذاك إلا لأنه مومن بحقه، ومقتنع بصلاحية النقاش، ومتأكد من أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، مصداقا لقوله تعالى : ﴿**....فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾.

لكن عندما يظهر الحق جليا، ويتمادى الخصم في عناده لا يتردد المغرب في قبول كل تضحية لاسترداد حقوقه، عملا بقول النبي الأكرم : «المومن القوي خير من المومن الضعيف».

إنها أخلاقنا، إنها أسباب مسيرتنا، تلك الملحمة التي أبدعها ونسقها وقادها عاهلنا المفدى جلالة ملكنا العظيم. إنها مثال لتلاحم العرش والشعب. ولن يصيبنا أي مكروه ما دمنا نخلص لتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها.

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني

« في علمك شعبي العزيز، القانون الإسلامي الدولي هو أول قانون نظم حياة الأفراد مع الجماعة، وحياة الجماعة مع الأفراد، وحياة الحاكمين بالمحكومين، والعكس بالعكس، والبيعة في القانون الإسلامي - وإن اكتست دائما عدة أصناف وأشكال - لم تكن دائما بيعة تربط فقط الشخص بالملك أو الشخص بأمير المومنين، بل لما كان لأولئك الأشخاص من تمثيل وقوة تمثيل كانت تربط أولئك الأشخاص وما يمثلونه من قبائل وعشائر وأقطار وأمصار بينهم وبين أمير المومنين، أو من ولاه الله أمر شؤون المسلمين.



للأستاذ المهدي البرجالي

المناخ الدولي

كان الوضع الدولي ساعتها (أواسط السبعينات) مشحونا كالعهد به خلال العقود السالفة ـ بذيول ومضاعفات التوتر الحاد، الذي ظل ـ يشكل الطابع العام للعلاقات الدولية بأنماط عديدة، متخذا ـ في الكثير من الأحيان ـ صورة مواجهات مسلحة بين طرف وآخر، أو بين أطراف عدة، تفصلها عن بعضها تناقضات مختلفة.

ولقد صارت هذه التناقضات في مجرى السبعينات ـ على الرغم من عهد الوفاق الذي تلا مرحلة الحرب الباردة السابقة ـ أكثر حدة وعمقا، سواء على صعيد العلاقة بين الكتلتين الكبيرتين، أو بين جهات أخرى خارجهما، في ارتباط وثيق لذلك، بما آلت إليه الحال في بقية السبعينات ومسار الثمانينات، من نشوب مرحلة جديدة عن الحرب الباردة على النطاق الدولي، وتفاقم حدة العنف والمجابهات الحادة في العالم وما يتصل بالأمر، ويتداخل معه من معضلات ما فتئت تثقل المناخ الدولي، على مدى واسع، وتضاعف من حدة التناقضات المتراكمة في محيطه.

وفي خلال الظرف، أي في أواسط السبعينات، كانت المعركة من أجل تصفية الاستعمار في إفريقيا وغيرها، قد بلغت شوطا متقدما؛ إلا أنه كان شوطا ساخنا ـ تتواجه فيه ـ بالكيفية التقليدية التي تعرف في مثل هذه الحال ـ الأسلحة مع الأسلحة، وإن كان الفارق شاسعا بين ما لدى القوى الاستعمارية من السلاح، وما يتوفر للقوى الوطنية منه.

وفي جميع الأحوال، كانت المواجهة الساخنة، قاعدة العمل على إنهاء الموضوع الموجب للصراعات القائمة، وهي صراعات تختلف بواعثها وملابساتها الخلفية والظاهرة، بين إيديولوجية وسياسية واقتصادية ونفسية، مجتمعة كافتها في مضمون نزاع معين، أو متفرقة في مساق نزاعات أخرى غيره.

وإذا كانت النزاعات المسلحة، التي سجلها الوضع العالمي خلال السبعينات وما حواليها متشعبة بقدر تشعب الأحداث المترتبة عنها، فإنه يمكن الرجوع بكثير من هذه النزاعات إلى أصول ثلاثة رئيسية :

ـ انعكاسات الصراع بين الشرق والغرب، وهي انعكاسات بعيدة الأفق في تغلغلها في المحيط العالمي، نتيجة لسعة إطار نفوذ الكتلتين العظميين في العالم.

ـ ومترتبات معركة تصفية الاستعمار، واستصفاء رواسبه.

ـ المشاكل المرتبطة بالتوازنات الدولية الجديدة ومتفرعاتها في أعقاب انهيار الاستعماري؛ مضافا إلى ذلك : التوترات التي نجمت في غضون العقود الأخيرة ـ عن سياسات بعض الأقطار التي وجدت نفسها محفوزة بنزعات أمبريالية صغيرة، قوامها السعي للتوسع والهيمنة الإقليمية، إما لحسابها الخاص، أو «بالوكالة» لغيرها.

ولم يكن أسلوب العمليات التناورية (اصطناع حكومات وهمية مثلا) وهو الأسلوب الذي ما برح الاستعمار يلجأ إليه لتأجيل نهايته ـ إلا ليعقد هذه الأوضاع العالمية أكثر، ويستفز مزيدا من ردود الفعل المضادة التي من الطبيعي، أن تكون من الحدة بقدر عدوانية المناورات المستثيرة لها.

☆☆☆

المناخ الدولي هذا الذي استعرضنا بعض سماته الأساسية، كان مناخ أواسط السبعينات، وما سبقها أو أعقبها، مع اختلاف في ضراوة الصدامات الواقعة، واختلاف كذلك في إلملابسات الخاصة التي أفرزتها بوجه أو بغيره، إلا أنه مع هذا الاختلاف، فإن المحصلة النهائية لما يعبر عنه في عموم، وما ينطوي عليه، يتمثل فيما قر في عقلية المجتمع الدولي، من أن عنف المواجهة، حتمي لامرد له، لإمكانية إدارة الأزمات المرتبطة به، أو التواصل لحل ما يوجد من خلافات أو مشاكل، وألاّ بديل عن ذلك، إلا أن يكون هذا البديل مدعاة لتمطيط أمد ونطاق توترات ناشبة، تمطيط مثل هذه التوترات لأسباب استراتيجية أو تكتيكية محددة.

هذه الوجهة في التصور والاستنتاج ـ بغض النظر عن كونها سببا أو نتيجة ـ قد كرست ـ على مدى عالمي واسع ـ وضعا فكريا متقوقعا ـ فيما يخص موضوع الصراعات ـ في مفهوم الصراع الساخن كنهج وأسلوب ووسيلة أثيرة لخلخلة العقد المتشابكة في نسيج الحياة الدولية؛ وبحكم ما حصل خلال العقود الماضية ـ من تركيز كثيف على هذا التصور في استيعاب الحقائق، والاستنتاج منها، فإن نظريات مغايرة من قبيل تلك القائلة بالضغط السلمي من أجل انتزاع الحقوق، أو تسوية العلاقات، وتوظيف النوازع الإيجابية في الإنسان لإنجاح مثل هذا الضغط، ومحاولة التوصل ـ من خلال المواجهات ذات الوجه والمضمون الإنساني، هكذا إلى تصفية المنازعات، مثل هذه النظريات قد أصبحت عند هؤلاء أو أولئك، لا ترى إلا من منظور طوباوي ونحوه :

والواقع أن الفكر والممارسات الاستعمارية القائمة على فلسفة القوة والقسر، وهي فلسفة ذات جذور أوروبية، قد كانا من أساسيات هذا التوجه الذي طبع النظرة العامة إلى الصراع، وطريقة إدارته.

عالم يشع وينير

وبرزت المسيرة الخضراء الحسنية في الربع الأخير من سنة 1975، لتبلور أمام الرأي العام العالمي، صيغة للعمل والتحرك والاستهداف النضالي، تختلف ـ كلية ـ في إطارها ومحتواها وديناميكيتها وتوجهاتها ووسائلها عن كل هذا الذي استقر في التصورات السائدة ـ عالميا ـ عن طبيعة أدوات الصراع، ونوعية المسار الصدامي الحاد الذي تتخذه ـ عادة ـ عمليات تصفية التناقضات بين الأطراف المتناقضة في شتى الأرجاء.

وبنتيجة هذا التفرد في صورة ودلالات المسيرة الخضراء، فإن صفتها كحركة تغيير رائدة، قد كانت إحدى الصفات الأساسية المميزة فيها.

والريادة إبداع حيث يعني الإبداع، استشفاف ما قصر الغير عن استشفافه من السبل والآفاق. والنفاذ من خلالها إلى ما لم يمكن لهذا الغير النفوذ إليه، في استمداد جاد ومتبصر، عن مصداقية التجارب الذاتية للوثيقة، والخبرات الوطيدة، وفي تجاوز مستنير، لما لاضرورة موضوعية لتقليده، والنسج على منواله من مسالك الآخرين ونماذجهم.

حصيلة الريادة من هذا المعنى ـ بحكم ثرائها الفكري والعملي، تشكل عالما رحبا غنيا بمضامينه ورؤاه

وإيحاءاته : عالم، يشع وينير، يبصّر ويهدي، يعلم ويلهم، ويحمل فيما يستجلى منه - للكثير جدا من الإضافات المبتكرة والمفيدة والناجعة - إلى رصيد الفكر القومي والعالمي.

الصورة الرائدة : صورة الزحف البشري المسالم، بديلا عن الزحف المقاتل، صورة الاندفاعة الجماعية المحفوزة بحوافز الإيمان، بحوافز الروح، عوض أن تكون محفوزة بحوافز غيرها.

صورة الأذرع الممتدة بالعناق لمن تلتقيه، محل أن تمتد نحوه بالعنف أو ما في حكم العنف، صورة الجموع تتردد في جنباتها أصداء التكبير والتهليل، وليس صيحات الحرب والقتال، صورة الأيدي رافعة المصاحف، وليس الأسنة والحراب.

هذه بعض ملامح الأسلوب الرائد - عالميا - في النضال التحرري، الذي انطلقت به المسيرة الخضراء، الأسلوب الذي لم يدرك الكثيرون عمق مضمونه، إلا بعد أن رأوا - وبالملموس - حجم قطافه، وما انتهى إليه من باهر النتائج، ورأوا ما استطاع الاضطلاع به من تحديات لمألوف طرق المواجهة عند الآخرين، وما اقتدر عليه من ضمان الفاعلية المطلقة لهذه التحديات، واستيعاب شتى مقتضياتها. ولقد اتخذ التحدي الذي وجهته المسيرة صورته الرائدة، إذ تحرك هذا الزحف التاريخي، متخذا سبيله - في ظرفية وضع عالمي قد تقهقرت فيه - إلى حد بعيد - فكرة البحث - بالحسنى - عند حلول المشاكل الناشبة، وذلك إلى الحد الذي جعل المجابهات الساخنة بهذا الشأن - الاختيار المسلم - عامة - به.

والتحدي من هذا القبيل، أقوى صور التحدي، وأشدها صعوبة وأدعاها لجسيم التحملات وباهظ التبعات؛ ومناط الأمر في هذا، ضرورة النجاح في اختراق مختلف العقبات المرتبطة بممارسة التحدي، واستخلاص الثمرات المنتظرة من ورائه، على كل ما يحف بالأمر من مصاعب، وما يكتنفه من أشواك، ومن ذلك :

1) المناقضة بين المفاهيم المتحكمة في اختيار أسلوب المواجهة بعالمنا المعاصر، وبين المفاهيم التي انضبطت بها المسيرة الخضراء، والمتطابقة مع أخلاقيات الأريحية والسماحة والتفتح الإنساني والمسالمة، الأخلاقيات التي طبعت نهج المسيرة، وأضفت عليها ملامحها المميزة.

2) طبيعة التعقيدات المصطنعة التي افتعلها الاستعمار قبل نونبر 1975، لتأجيل جلائه عن المنطقة.

3) التحركات التناورية المعلنة تارة والمغلقة تارة أخرى، التي قامت بها - في خلال الفترة، جهات إقليمية معينة تحدوها تطلعات هيمنية في المنطقة.

وفي مقابل مظاهر الصعوبة هذه، التي طفرت على سطح الأحداث قبيل انطلاقة المسيرة الخضراء، كان أمام المغرب أفقه الفسيح الأرحب، أرضيته المكينة المتينة، المتضائلة أمامها شتى المصاعب والمعوقات، ومن موجبات الارتكاز المغربي من هذا القبيل ساعتئذ :

1) نصاعة الحق المغربي وبدهيته (أقرت محكمة العدل الدولية الأسانيد التاريخية والقانونية لهذا الحق).

2) صدق اللحظة التاريخية وتألقها - وطنيا وعالميا - على وقع خطوات السائرين في صفوف المسيرة، وجيشان الوجدان المغربي بينها شمالا وجنوبا، استعجالا لساعة اللقاء على أنقاض الحدود الوهمية، وشدة شوق لتمام الالتقاء.

3) عزلة الاستعمار في المحيط العالمي، وقد بلغت هذه العزلة خلال السبعينات وما بعدها مداها الأوسع، وتواتر التصاعد في تعاطف مختلف الأوساط الدولية مع مسار تصفية الاستعمار وإنهاء رواسبه المتمثلة في تجزئة الكيانات الوطنية وتبعيض وحدتها.

الاستقطاب والمشهد الجامع

كل تاريخ المغرب، كان حاضرا هناك على أرض العبور.

كل تراث المغرب وحضارته، وتقاليده الفكرية وقيمه النضالية، وسجاياه وأخلاقياته. المغرب.. بكل مقوماته هذه، كان على موعد مع التاريخ هناك، ليسترجع - في منعطف

تاريخي حاسم - امتداداته الفيحاء في الجنوب، وليستعيد باستعادته لها، الصورة الحقة لهويته الجغرافية والبشرية وتكامل كيانه.

المسيرة الخضراء كانت النهج الأمثل لجعل هذا الاستقطاب الذي جمع المغرب على صعيد واحد - في مستوى القوة والحيوية واللمعان الذي انطبع فعليا به، حيث لابست الزمان والمكان معان ومدلولات لم يكن للتاريخ عهد بها من قبل، وارتبطت بعامة المشهد، سمات وملامح ذات أبعاد جد متميزة، في مضمون مغرب جديد كان فجره قد أخذ في البزوغ. كانت المسيرة، السبيل المؤهل لاحتواء ضخامة التحرك الجامع الذي حصل. وأهمية المقاصد المتوخاة فيه، وإطارا قيما لاستقطاب ديناميكية التحول التاريخي ساعتها، وقد تسارعت وتيرته لتعيد صياغة الأوضاع على منحاها السليم بالمنطقة.

كانت المسيرة تجسيدا حيا لقدرات عميقة الجذور، خصبة المحتوى، غزيرة الموارد والروافد، هذه القدرات التي يفسر بها موقع المغرب في ساحة التاريخ قديمه وحديثه، ويدرك على ضوئها، مدلول هذا الثراء، الذي يميز سجله الطويل عبر أطوار الدهر.

شكلت المسيرة تعبئة شمولية وكاملة وفعالة للإنسان المغربي، لأعماق مكامن ما في هذا الإنسان من قدرة على التحرك المنضبط، والفعل المتناسق، وطواعية التجاوب مع الغايات التي يجند لتحقيقها، وحرارة المشاعر التي تحدوه للتضافر على حسن استثمار هذا التجاوب.

ومن هذا المنطلق، كان أحد منبثقات الفعالية في المسيرة الخضراء، المنبثق المتمثل في أن السلاح المعتمد فيها، كان شيئا آخر مختلفا عما ألفته عادة - الأطراف المتواجهة في زمن أو غيره - من نوعيات السلاح وأنماطه؛ كان سلاح المسيرة هو الإنسان نفسه، الإنسان الذي قد تفل حدة الأسلحة المادية في ساحة العراك، ولا تفل بالذات، قوة الإرادة النضالية لديه، وشدة تصميمه على الذود عما يومن به؛ ومن ثم يتجلى كيف أن نتائج مواجهة معينة، لا تتقرر بكيفية حتمية دوما لصالح الطرف الأكثر تزودا بالأسلحة المادية، بل قد تتدخل في تكييف هذه النتائج، عوامل ذات صلة صميمية بهذه القدرة البشرية - ولو بمنأى عن أي سلاح، مثلما في المسيرة الخضراء - على تحدي السلاح المادي، والتفوق عليه معنويا، وبالتالي، عمليا على صورة من الصور. وفي التاريخ العالمي، صور مختلفة من هذا القبيل، يرى من خلالها، إلى أحد يمكن للطاقة المعنوية عند بعض الشعوب، أن تواجه بنجاح، وتغالب المقدرة المادية الكاسحة لدى الخصم الذي تكون في حالة صراع معه، صراع ربما كان صراعا مسلحا ينعدم فيه التكافؤ بين الطرفين، لكن المأثرة المتألقة التي سجلتها المسيرة الخضراء، أن صمود الصامدين فيها لم يكن من نمط هذا الذي يجعل من يصمدون، يتحملون الخسائر في الأرواح دون أن يأبهوا لها، بل إنه لم يكن ثمة في نطاق المسيرة خسائر على الاطلاق، فقد تجاوزت المؤثرات المعنوية التي أبرزتها، كل ما ينطوي عليه السلاح المادي من قوة الردع والترهيب، فتجمدت عن ذلك فاعلية هذا السلاح بفعل تجمد إرادة من كانوا يحملونه تحت تأثرهم بإشعاع الأطروحة السلمية في النضال التي عرضتها المسيرة عليهم، وانتفى بالتبعية، أثر وجوده، لقد أحدث صمود السائرين المسالمين المنتظمين في صفوف المسيرة، صمودا من نوع آخر، لدى الطرف الذي كان مسلحا، صمود أمام إغراء استعمال السلاح، وبالنتيجة، فقد ألغت المسيرة - بإلغائها أي دور للأسلحة - كل احتمالات العنف، ولو من طرف واحد، وفي ضمن ذلك، كل احتمالات الخسائر، التي لم يصب بها أحد في أي حال من الأحوال.

داعي الانبهار

الانبهار الذي أثارته المسيرة الخضراء في المحيط العالمي، لم يكن فقط، انبهارا بجذرية الفعل النضالي الذي اضطلعت به، وما نشأ عنه من آثار فورية وشمولية في حسمها ومترتباتها، مما أوجد - سلميا - وبسرعة قياسية - عن الحلول للمعضلات والعقد القائمة في المنطقة، ما لم تستطع

تيسيره أكثر الحروب ضراوة وشراسة، وأشدها عواقب من حيث التضحيات والتحملات التي تفرض نفسها في مثل هذه الحال، بل أن الداعي لهذا الانبهار، كان مكمنه أيضا في مناقبية الإنسان، وقد صقلت المسيرة فكره ووجدانه، وعمقت إيجابيات سجاياه وخصاله، لتصوغ شخصيته وبواعث عقليته وسلوكه، على النحو الذي عرفته به لحظات الزحف الكبير الذي انخرط فيه، وسجلته تلك الأيام الملاحمية التي شهدت تداعي الجموع الكثيفة من شتى أرجاء المغرب إلى أرض العبور.

وإذا كانت المسيرة قد وسعها على هذا الغرار، أن تتيح مستوى متقدما في تعزيز وإثراء الإيجابيات الفكرية والوجدانية للإنسان المغربي، وتبعث بقدر من الفاعلية كهذا - ينابيع شتى في قابلياته النضالية واستعداداته، فمرجع ذلك فيما يرجع له، خصوبة الأبعاد والمنطلقات التي ارتكز عليها هذا التحرك التاريخي المرموق، وعمق الجذور التي استمد منها صيغته ومنهجه وإطاره.

لقد انطلقت المسيرة الخضراء الحسنية، على قاعدة متينة من عراقة أخلاقيات المغرب، ومن صميم تقاليده التاريخية والحضارية، وتراثه النضالي، ووعت - على نحو مبدع، قيِّم في إبداعيته - فاعلية موقع المغرب وإشعاعه ومكانته في الأسرة الدولية، وباعتبار هذا التعدد الخلاق في مكونات روح ومضمون ومنهج المسيرة، فإن هناك مجالا على صعيد التحليل - لتمييز عدد من الأبعاد التي تندرج في بلورة صيغتها، منمة عن ثراء مواردها من الفاعلية والنجاعة، مما أبرزته التطورات التي تمت - ميدانيا - في إطارها على الساحة الوطنية والدولية؛ ومن هذه الأبعاد :

1) البعد الفكري والوجداني

على امتداد المسافات التي قطعتها جموع السائرين من شتى أطراف المغرب إلى أرض العبور، وإلى ما وراء الحدود المفتعلة التي تم إنهاء أسطورتها - كان شعور الشوق إلى معانقة الأرض الأسيرة حينئذ، والالتقاء بالأهل والعشيرة فيها - شعورا عرما وجارفا بالقدر الذي جعل منه طاقة دفع هائلة، وغير قابلة لأن يقع اعتراضها أو ردها، وبالقدر أيضا، الذي لم يكن معه للمحتل بد من أن يجتاحه إحساس قوي بقصوره - رغم كل الإمكانيات المادية المتوافرة له - عن الوقوف في وجه التيار التاريخي المتجسد في كثافة المسيرة، ومطاولته.

كان هذا الشوق، أحد الروافد التي أمدت المسيرة بطاقة الضغط الهائل الذي ما فتئ يتصاعد كلما كان تحركها يتوالى نحو الجنوب؛ وهو ضغط فكري ونفسي وأخلاقي، مارسته المسيرة في سياق مجابهتها السلمية لقوى الاحتلال، وبدا تفوقها في ذلك كاسحا.

لقد كان من معززات هذا التفوق، شعور المواطن - سواء كان مندمجا في محيط المسيرة، أو رافدا لها في شتى أنحاء الوطن - أنه إنما هو سائر في أرض بلده المحررة فعلا، إلى أرض بلده أيضا، التي كانت إلى ذلك الحين لا تزال لم تحرر بعد، وأنه لذلك، يوجد سواء من حيث انطلق، أو إلى حيث يقصد - في صميم عقر داره، وبين قومه، إن في شمال أو في جنوب؛ وبطبيعة الحال، فلم يكن لهذا الشعور، إلا أن يكون معاكسا لشعور قوى الاحتلال، مما كان من شأنه أن يضيف إلى الضغوط الكثيفة المنصبة عليها مزيدا من الضغوط.

إن الفارق - كما هو بدهي - فارق مطلق بين صاحب القضية، ذي الحق المشروع فيها، وبين الدخيل الواغل؛ فارق مطلق بين هذا وذاك، سواء من حيث الثقة بالنفس، أو طبيعة الدوافع الحافزة أو نحو ذلك؛ وليس لمن فقد هذه الركائز، عوض يستعيض به عما فقده؛ وفي هذا مكمن مهم من مكامن قوة المسيرة، التي كان يثري مناخها الفكري والوجداني والأخلاقي، رصيد قيِّم من المشاعر المفعمة بالإيمان الصادق بالقضية وبملهمات التفاني فيها، والبذل من أجلها في أوسع مدى تبلغه أريحية البذل والعطاء.

البعد التراثي

والشوق الجماعي إلى الأرض والأهل، له دلالاته الاجتماعية والسياسية والوطنية - تاريخيا - وتراثيا - مثلما

له من دلالات إنسانية (عاطفية وغيرها) مما يرى من خلال اللحظة المعاشة، التي يعبر فيها هذا الشوق عن فورته وجيشانه على نحو ما حفلت به أجواء المسيرة الخضراء. الشوق ديناميكية سيكولوجية متجذرة ـ بصفتها علة ونتيجة معا ـ في أصول التفاعلات داخل المجتمع الواحد، وما يضطرم في مكوناته بعضها مع بعض، من حيوية ذاتية، تتعزز بها قدرته على صيانة وإنهاء تمازجه وتماسكه، ومتانة تشبعه بمبلورات شخصيته الجغرافية والديموغرافية، والأمر بهذا الشأن، كالحال بالنسبة للخلية الاجتماعية الصغرى، أي الأسرة في نطاقها المحدود؛ فكما أن ما يحدو نزوع أفراد الخلية الاجتماعية إلى بعضهم، لتحقيق التفاعل والتكامل فيما بينهم ـ يؤثر ـ بالضرورة في تأكيد ذاتية هذه الخلية، وصمودها أمام ما قد تتعرض له من تجزئة موقتة، ذات طبيعة ظرفية عابرة، فكذلك الشأن تماما بالقياس للبلدان التي قد تصادف في ظرف تاريخي معين حالة ما من حالات هذه المفارقة بين صلابة تماسكها الذاتي الفطري، وبين ضراوة المداخلات الخارجية، التي تحاول تبعيض مقومات هذا التماسك لأغراض ترتبط ـ عادة ـ بالسياسة الاستعمارية.

إن مثل هذه المفارقة، لا يمكن ـ منطقيا ـ أن تفضي إلا إلى تفوق نوازع التلاحم الذاتي للكيان المعني، على مختلف المؤثرات الخارجية المناوئة لها، وتوصلها ـ بالنتيجة ـ خلال أمد يطول أو يقصر ـ إلى ربح نتيجة الصراع الناشب ضمن دائرة المفارقة المشار إليها؛ ومن ثم، يحصل ـ في العادة ـ أن تمنى بالإخفاق، تحت تأثير هذه الحتمية ـ السياسات التجزيئية، التي ينهجها الاستعمار ضد وحدة كيانات أصيل تكوينها وبنيتها الجغرافية والاجتماعية والسياسية، وبالتبعية، غير قابلة ـ بأية صورة ـ لأن تجزأ. ومن ثم كذلك، تجد أن منظور الشعوب التواقة لاستعادة وحدة أوطانها، هو منظور ينطبع في مبناه ومغزاه، بطابع هذه الحتمية بالذات، التي يتمازج بموجبها مفهوم الحرية والأمن والسيادة والكرامة، مع مفهوم الوحدة، وحدة الكيان مجتمعا وأرضا.

إن وحدة الوطن ـ من هذا المنطلق ـ قيمة عليا، متجذرة في أغوار ضمير الإنسان ووجدانه وعقله، وبالتبعية، فالأمر في هذه الوحدة، لا يخضع ـ بالمطلق ـ لأي اعتبار اقتصادي، كثراء أو فقر المنطقة المنشود استرجاعها، أو إستراتيجي، كأهمية موقعها مثلا، أو نحو ذلك، وإنما القضية في كل حال من هذا المعنى، هي أن يعيش الوطن بالصورة الطبيعية التي وجد عليها، وتبلورت من خلالها شخصيته وهويته، فإذا ما حصل ـ تحت ظرف من الظروف ـ أن انتزع من الوطن جزء من أجزائه، فإن انعكاس ذلك بالسلب على كمال هويته، يبقى عميقا إلى أن يتمكن من استرجاع ما انتزع منه؛ وهذه ـ سواء من حيث الفكر أو السلوك ـ شنشنة ذات عمق صميمي في مضمون التراث النضالي المغربي الذي حفلت المسيرة الخضراء بفيض غزير من إشعاعاته.

البعد الأخلاقي ـ الحضاري

لقد كانت المسيرة ـ من زاوية الاختيار السلمي الذي قامت على أساسه، ظاهرة فذة بما احتوته من مزيج فريد يجمع بين اهتمامات النضال واهتمامات السلام في آن واحد؛ فالإصرار على تحرير الأرض والإنسان المغربي في الصحراء، تحريرا فوريا ناجزا ونهائيا، كان نقطة ارتكاز ملحة في المسيرة، لكن ـ إلى هذا الإلحاح على التحرير ـ، كان الإلحاح كذلك على أن تكون الوسيلة لتحقيقه، وسيلة الضغط المعنوي التي مجالها الوجدان والعقل، وليس الضغط المادي، المحدث بإشراع الأسنة، وامتشاق السيوف. وهي رؤية رفيعة جدا فيما تعبر عنه من فكر حضاري بالمعايير الإنسانية لمفهوم الحضارة، وفي قاعدة هذه المعايير، المعيار الأخلاقي.

إن القيمة الأخلاقية للحضارة أساسية فيها، وبدونها يكون الهيكل الحضاري، هيكلا غير متوازن لاختلال المعادلة المعنوية المادية، التي يتعين أن تكون قوام وجوده.

وفي نطاق المسيرة الخضراء، كان العنصر المادي في الحضارة، ذا حضور بارز، يتمثل ذلك في المستوى العالي للتنظيم والتأطير على شتى المستويات التي تتطلبها الحاجيات البشرية، إلا أن الجوهري في الفعالية النضالية للمسيرة، كان مبناه على وجه أخص، هذا العنصر الأخلاقي الذي طبع الملامح المعنوية لوجهها الحضاري المتميز؛ وهذه الملامح هي ذات قيمة رئيسية في مجمل ما ارتكز عليه وزن المسيرة في محيط الفكر النضالي العالمي.

إن مستمدات هذا الارتكاز الأخلاقي لحضارية المسيرة، لتستند إلى عمق فكري وفلسفي، قيّم فيما يعبر عنه، وما ينبني عليه؛ ومن ذلك، مستوى الشعور بالمسؤولية الأخلاقية في خوض النضال. وما يرتبه الحال من حرص الطرف الذي له هذا الشعور على تفادي إيقاع الضرر بأحد، في ساحة المواجهة، حتى ولو تعلق الأمر بمن يعتبرون في خلال الظرف، الجهة التي تقع المواجهة معها، والمسؤولية الأخلاقية في مبناها الرفيع هذا، لا تدخل في حسابات سياسية أو تكتيكية وما في مضمونها، ذلك أن مثل هذه الحسابات لا يقام فيها وزن للجوانب الإنسانية في الصراع، بل يعتبر فقط، ما يخص المآل الذي ينتهي إليه الصراع، بصرف النظر عن حجم أو نوع المعاناة التي يسببها؛ ومما يعمق ـ في العادة تأثير هذا التوجه في التقدير، ما هو مألوف من عدم الثقة، الذي تفرضه الظروف السيكولوجية للمجابهة، بين طرفين متجابهين، واعتبار كل منهما، أن هدف إيقاع الهزيمة بالخصم، يلزم عنه الحرص على إيقاع أقصى قدر من الإضرار به، وتأتي المسيرة الخضراء، لتقلب المعادلات بهذا الخصوص رأسا على عقب؛ فلقد حل التركيز في القيم التي اعتمدتها فلسفة المسيرة ـ على وضع الثقة في الإلهام الإنساني، محل التركيز المعتاد على مجرد السعي لإنزال الهزيمة بأحد، فكان من ذلك، الميزة التي منحت المسيرة وجهها الحضاري الفريد، والتي جعلت منها فتحا جديدا على الطريق، أمام غلبة الإرادة الخيرة في الإنسان، إرادة التفتح والتفاهم ـ على نوازع الصراع السلبي العقيم لديه.

البعد التاريخي

ولمداخلات التاريخ وسوابقه في هذا الوزن الحضاري للمسيرة الخضراء، مجال له اعتباره.

إن مفهوم السلام الذي تكرست صيغة المسيرة من خلاله كمنطلق لها، وقاعدة لممارستها النضالية ـ مفهوم أصيل تاريخيا في التقاليد المغربية، مثلما هو عميق الجذور في قيمنا الحضارية، ومن حسن الموافقات، أن الطرف الذي كان موجها إليه الضغط المعنوي للمسيرة، كان من جهة أخرى ـ هو بالذات ـ طرفا أساسيا في شراكة تاريخية مع المغرب، عززتها على مر العصور، عوامل الجوار الجغرافي، والتداخل الاجتماعي، والتفاعل الفكري والحضاري، بكيفية تستحق أن توصف بكونها حميمية.

لقد تواترت ـ في خلفية أحداث التاريخ بين ضفتي مضيق جبل طارق ـ على مدى حقب طويلة مسيرات تبادل سلمي على صعيد الفكر والثقافة، أعطت خلالها هذه الضفة للأخرى شيئا غير يسير، وقبست منها، مما كان من نتاجه هذا التراث الجميل ذو الصيت العالمي، المعروف بالمدنية المغربية الأندلسية، المحملة ـ كما يعرف عنها ـ بعناصر وملابسات إيبرية مختلفة، وكما يلحظ عند المقارنة، شكل العمق الإنساني للمسيرة ـ دون النظر إلى مهمتها النضالية المتعلقة بتصفية الاستعمار ـ امتدادا للأوجه الإيجابية للتشارك الذي جمع طويلا بين المغرب وشبه الجزيرة، فقد كان مناط هذا التشارك الماضي، على امتداد القرون، الاستلهام المتبادل بين الطرفين، وشهد عصرنا الحاضر، من خلال المسيرة الخضراء ـ صورة بليغة التعبير عما يتسع له مجال هذا التفاعل بين المفاهيم والمواقف البناءة عبر ضفتي المضيق، يتمثل ذلك فيما استطاعت المسيرة إقراره من نتائج كان منها : الحيلولة دون نشوء عداء لا داعي له بين الجانبين، وفتح الأبواب ـ بالعكس ـ على مصاريعها لتوثيق التعاون بينهما، كما كان من هذه النتائج كذلك : سدّ أية منافذ مفترضة لتدخلات خارجية، وتجنيب قضية السلام في المنطقة، مغبة الوقوع في بؤرة توترات إقليمية لا ينبغي أن تكون واردة أصلا.

ومن منظور هذا الأفق للرحب بين الماضي والحاضر، في منطقة المضيق، تتأتى للطرف الآخر، في الضفة الأوروبية لبحر المجاز ـ أن يلم بدلالات موضوعية لجذور وبواعث المفهوم السلمي المغربي للتعاون على بناء الحضارة، تماما كالتعاون أيضا على معالجة المشاكل العارضة في المنطقة وحلها ضمن إطار مبدأ التساكن والتعايش، المحكوم بهما مجرى العلاقات بين الضفتين.

ولهذا القدر من المصداقية التي يتمتع بها المغرب في نظرة الآخرين إليه، وفي تقييمهم لأصالة نزعته السلمية التعاونية ـ أبعاد أوروبية قارية، فضلا عن الأبعاد الإقليمية الإيبرية. فعلى المدى الأوروبي الأوسع، يلحظ إلى أي حد توالت صلات المغرب بأوروبا عبر الدهور، وكيف استقرت هذه الصلات في محيطها الخصب بالمبادرات المنتجة، القائمة على تنمية المبادلات التجارية، وتكثيف أواصر العلاقات العامة على مختلف الأصعدة؛ وهو كما يعلم ـ محيط محكوم بسيادة روح السلام والتعاون، ومكيف باعتباراتهما؛ ولقد كان الاختيار النضالي السلمي المشهود من خلال المسيرة ـ قمينا بأن يلتقي في الذاكرة الأوروبية، مع هذه الصورة التقليدية المعهودة عن المغرب في المنظور الأوروبي، صورة بلد ما فتئت بواعث التفتح والمشاركة، تطبع مجمل روابطه مع بلدان القارة، وتشكل قوة الدفع الرئيسية لمسرى هذه الروابط.

وخارج أوروبا، وفي شتى أطراف العالم، كانت كل الدواعي متوفرة ـ ساعة انطلاق المسيرة، لتجاوب المجتمع الدولي مع هذا التحرك النضالي الذي أبدعه الفكر الحسني، وقاده على طريق الفوز، والتفتح على الآفاق العامرة، التي افتتحها هذا التحرك على طريق العمل من أجل استكمال وحدة الأوطان في مختلف القارات، وتأمين استعادتها لوحدتها الترابية. ففي البيئة العالمية الراهنة، المثقلة بازدياد تعقد مشاكل العلاقات بين الدول، واستفحال الظاهرة المتجلية في كون الأساليب المستخدمة في معالجة هذه المشاكل، إنما تضاعف من حدتها وتشعبها، يبرز نهج المسيرة الخضراء الحسنية كأكثر المناهج جدارة بتقدير المجتمع الدولي له، وترحيبه به، علما بما ينطوي عليه هذا النهج من خصائص فذة في صياغته وتطبيقه، وما يتوافر له من قدرة على البت والحسم بمرونة ولطف. يضاف إلى هذا الداعي الذي تفرزه المقارنة، دواع أخرى في توفير حسن التقدير الدولي، وهي دواع منظورة من الزاوية السياسية والحقوقية وغيرها، مما يتأثر بموقع مميز في سلم الاهتمامات العالمية، واتصالا بهذا، كان واردا ـ بموجب منطق الأشياء ـ أن يفرض ارتباط موضوع المسيرة بقضية تصفية الاستعمار نفسه على مختلف جهات التأثير في صياغة الرأي الدولي، انشغالا منها بما يعنيه زحف المسيرة من معطيات تتعلق بمجرى التحرر العربي الإسلامي والإفريقي.

وقد أفضت المسيرة إلى تعميق مدلول هذا التحرر بإنهائها الوجود الاستعماري على سواحل المغرب الجنوبية التي تقع في أقاصي الامتداد الجغرافي للعالم العربي ـ الإسلامي والعالم الإفريقي إلى الغرب، كما أن هذا التطور الذي حدث باستكمال الوحدة الترابية للمغرب، كان يعني كذلك شمول حالة الاستقلال لعامة الغرب الافريقي الذي كان الاحتلال الاستعماري للصحراء المغربية، يشكل وضعا شاذا في نطاقه.

لقد تبوأ هذا البلد موقع الطليعة بين البلدان التي أحرزت على استقلالها بالمنطقة خلال النصف الثاني من هذا القرن؛ وباسترجاعه للصحراء، كان المغرب ـ وهو الذي ساهم أيضا في تعزيز حركات تحرير المستعمرات البرتغالية السابقة ـ قد حقق إنجازين تاريخيين مهمين، أحدهما ذو بعد وطني، وقد استوفاه بجهوده الذاتية، والآخر واقع في نطاق التضامن الإفريقي، وكان إسهام المغرب فيه ذا أهمية بالغة.

لقد كان كل هذا واضحا أمام المجتمع الدولي غداة انطلاق المسيرة الخضراء، وإذ بلغت هدفها الذي جعل الحدود الوهمية بين شطري الوطن الواحد ـ في خبر كان؛ وكان واضحا أيضا من خلال سجل المغرب أثناء الخمسينات والستينات، أن الطابع السلمي لمسيرته، يدخل في نطاق أعم، نطاق المساعي الديبلوماسية والتفاوضية التي ما برح

يتمسك بها في مسار نضاله من أجل استعادة وحدة كيانه، فالقناة الديبلوماسية، وتوسيط المنظمات الدولية المختصة، والزحف السلمي عبر المسيرة، تدخل جميعها في باب إيثار سبيل الحسنى لحل مشكل قائم، وهذا مما يتلاقى فعلا مع الأماني الدولية في أن يسود داعي السلام على أي داع آخر في مضار العمل على تسوية النزاعات، وهو ما عبرت عنه الأمم المتحدة بترحيبها باتفاقية مدريد لسنة 1975 وأخذها لها بعين الاعتبار.

قوة الحسم الهادئ الرصين

منطقة شمال الغرب الإفريقي التي شهدت التألقات النضالية للمسيرة الخضراء ـ قد عرفت من جهة مناقضة ـ ظاهرة سلبية تقهقرية، تنم عن تخلف في التفكير السياسي والقانوني عند المتلبسين بها، وهي هذه النزعة الهيمنية التي تبنتها منذ عدة سنوات دولة بدا لها أن تبدأ ـ في سياستها بالمنطقة ـ من حيث انتهى الاستعمار، وتمعن في مناوأة كل تعاون أو تناسق مغاربي، ما لم يكن محكوما باعتباراتها الخاصة، المرتبطة بنزعتها التسلطية: هذا الخط الذي شغفت الدولة المشار لها بهدر إمكانياتها، وتبديد طاقاتها في اتباعه، هو حصيلة ترسبات لا عقلانية من قبيل ما تراكم في تصورات بعض الأنظمة في العالم الثالث خلال العقود الأخيرة، إثر حصول بلدانها على الاستقلال؛ فقد علقت بعقلية هذه الأنظمة، توهمات غريبة، استوحت منها أنه يسعها أن تصطنع لنفسها امبراطوريات إقليمية صغرى، ينتفخ بها الحجم المادي والسياسي للدولة المعنية، ولو كان انتفاخا بلا مضمون، وأن السبيل لذلك، لا يتعدى نطاق اعتماد طرق معينة في التمويه والافتعال، وحبك السيناريوهات بصيغ وأساليب مختلفة؛ ولسرعة وتيرة التحولات العالمية خلال الربع قرن الأخير، التي ليس قابلا للصمود في مواجهتها إلا الحقائق الثابتة الوطيدة في الحياة الدولية، فإن انكشاف لا واقعية ولا منطقية هذه التوجهات الحالمة لهواة المشاريع الإمبريالية الإقليمية، لم يكن ليتطلب إلا حقبة جد محدودة ليبلغ مداه، وليبرز من خلال ذلك، مدى التهافت الذي ينطوي عليه مثل هذا التفكير ومبلغ التخلف والقصور الذي يعبر عنه.

إن هذا التخلف في الفكر السياسي على الصعيد الإقليمي ليشكل أحد الحلقات فيما يعانيه العالم الثالث أو الجنوب، من تقهقر في مضمار التناسق والتكافل، بصدد تعزيز مواقفه، وتوفير أقصى ما يمكنه من استعداد في ساحة العمل المشترك، على إعادة بناء التوازنات الكبرى ذات الطابع الاقتصادي وغيره في المجتمع الدولي الراهن.

عالم الجنوب، ليس أقل حاجة من غيره إلى هذه العناية الضرورية بتنسيق ما لديه من استعداد وفاعلية لاكتساب القدرة على مواجهة الاستحقاقات التي تنتظره، بيد أن التخلف الذي يأخذ بتلابيبه من هذه الناحية، والذي يغذيه في جملة ما يغذيه، افتعال التناقضات بطرق شتى منها، النزوعات التوسعية الإقليمية عند البعض ـ ليس من شأنه أن يساعد على تمتين حظوظ هذا القطاع العالمي الشاسع، في مضمار الرهانات المستقبلية، التي تجري بين أعضاء المجموعة الدولية في آفاق نهاية القرن الحالي وبداية المقبل.

ولقد تمكنت المسيرة الخضراء ـ فيما يخص منطقة المغرب العربي ـ من تحجيم الآثار السلبية الناجمة عن تطلعات المأخوذين بالنوازع الهيمنية في المنطقة، وذلك بنجاحها في إحباط مقاصد السياسة التي احتذوا حذوها على المستوى الإقليمي منذ إحدى عشرة سنة.

وهذه إحدى المأثرات ذات الطابع الدولي، التي أنجزتها المسيرة بقوة الحسم الهادئ الرصين الذي تميزت به.

وإنها لمأثرة ضخمة بفاعليتها ومضامينها ومؤثراتها وانعكاساتها المباشرة أو غير المباشرة على المستوى العالمي، وعلى حقائق التاريخ في مداه القريب والبعيد.

الجُودُ بالنّفسِ أقصَى غاية الجُود

للأستاذ مولاي الطيب المريني دنيا

وتوالت المسيرات تحمل الخير والنماء، والازدهار والرخاء، **انطلاقا من المسيرة الأم، التي حاربت الحرب بالسلم**، وجعلت من الإنسان أعظم قوة لا تقهر، سلاحها الإيمان، وشعارها الله أكبر، ومقصدها تحرير الإنسان المغربي من عبودية الاستعمار؛ الإنسان الذي عاش عبر تاريخه الطويل (ومنذ الفتح الأكبر) وهو يقف كالطود الشامخ لكل قوة بالمرصاد، يعطي الدرس تلو الدرس في وجوب تقديس الأرض حتى لا تمتد لها أيدي الغاصبين، أو ترنو إليها أعين الطامعين.

وفي لحظة غيابٍ لم يكن فيها ذلك الإنسان المغربي المسؤول، بقدر ما كانت الظروف القاهرة، والأحداث الآسرة، كان ما كان، وما كان لم يكن إلا إذكاء لنار لم تخبُ أبدا، وشعلة قابلة للالتهاب في كل حين، وتجربة كان لابد من استخلاص نتائجها، والعمل على التفاعل معها بكل ما تتطلبه من حزم وصرامة.

ويشاء ربك المنفرد بالقوة، الناصر لمن نصره بالفعل، القائل وهو أجل من قائل، ﴿**إن مع العسر يسرا**﴾، أن يتقدم **جلالة الملك الحسن الثاني** الصفوف، بعدما وحد القلوب على استرجاع الحق المضاع، وألف بين الجموع، وما أسرعها، لتنفيذ الأمر المطاع، حاملا الشعلة التي تحولت إلى نار، بعد استخلاص النتائج، ووضوح الرؤية، والتقاء الأفكار، وبروز الحق التاريخي وضاح الجبين، واستعداد الأمة للتضحية مهما كان خطرها.

لم تكن الشعلة الشعلة القابلة للانطفاء المستحيلة إلى العدم، لأن ذراتها كانت منبعثة في العمق من إيمان بأرض يجب أن تسترد، وشعب صمم أن لا يعيش وفوقها دخيل، كما لم تكن إلا تلك البداية لنهاية.

بداية أعد لها بعبقرية، وخطط لها بإلهام.

ونهاية أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها النهاية الحتمية لكل ظلم وقهر واستبداد، بإرادة صورها الشاعر البطل المتنبي حيث قال :

ردي حياض الردى يا نفس واتركي
حياض خوف الردى للشاة والنعم

إن لم أذرك على الأرماح سائلة
فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

لم تسترد الأرض وحدها بتلك المسيرة ذات البعد النضالي والتاريخي والسياسي وكل الأبعاد الأخرى التي وعاها شعبنا، فآمن بها، وعمل من أجلها، فحقق النصر، وسيحققه في الاستفتاء في الصحراء يوم يعطي كلمته تلبية للنداء، وإثباتا للوجود.

وإنما استردت الكرامة المغربية بفعل التلاحم بين الملك والشعب، تلاحما بقدر ما أفزع الأعداء، بقدر ما كان بردا وسلاما على قلوب أنصار السلام، ومحبي الحرية وعاشقي العدل والسلام.

إن التاريخ الحديث للمغرب الجديد، سيجد نفسه، وبالحاح، **ملزما بتخصيص جانب كبير من اهتمامه لهذه المسيرة الملحمة المتفردة، درسا وتحليلا، واستنباطا وتعليلا، واستنتاجا وتفصيلا،** كظاهرة جديرة بالتوقف عندها في العصر الحديث، وقفة تأمل وتدبر وإمعان، غير مكتف من المؤرخ النزيه بأن يسجل وصفا لما حدث، وبيانا لما جرى، وبسطا للوقائع والملابسات، كما عرفتها مختلف الساحات، وخصوصا الساحة المغربية، من إعداد يفوق الوصف، وتنظيم يعجز عنه الخيال، وتلقائية في البذل والعطاء بالنفس والنفيس **(والجود بالنفس أقصى غاية الجود)** لم ينفرد بها الرجل دون المرأة، أو العكس، وإنما يلزمه أن يكون أداة تعامل وتفاعل بالمعنى المنهجي للتاريخ الحديث مع حدث المسيرة الخضراء من جانبها المعنوي والتاريخي الذي أضفى عليها من روعته وجلاله ما فاق حد التصور، بحثا عن قوة تلك المقومات التي أهلت الشعب المغربي لخوض غمار تلك الملحمة، ورصدا لكل معطياتها التي كان من أبسطها الفتح، واستنتاجا يدفع به في النهاية إلى أن ينصب الموازين العادلة لإنصاف أمة آمنت بنفسها، فدافعت عن كرامتها متحدية الموت، ولعرش كان من الوطنية والزعامة بحيث انصهر في بوتقة تلك الأمة تحقيقا لوحدتها ففكر وخطط، وصمم وأنجز، وقاد فأحسن القيادة، فاستحق بذلك من أمته ومن التاريخ الشكر والامتنان للجميل.

إن أمة تهيأ لها ما تهيأ للأمة المغربية من مجد، وتوفر لها من تضحية، وتحقق لها ما تحقق من كرامة وعز، أضافت إلى إرث الماضي ثروة الحاضر، ووصلت الطريف بالتليد، فضمت المجد من أطرافه، ودخلت التاريخ من بابه، لهي أمة جديرة بالاحترام والإكبار، والسؤدد والفخار، رغم عاديات الزمان، ومحن الليالي والحدثان.

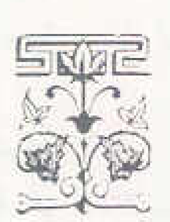
وما دام العرش المغربي قلب الأمة وضميرها، وروحها وإكسيرها، وفخرها وفخارها، وعصمتها وصمامها، فإن أي معركة تفرض على الشعب المغربي، مع ما تفرضه من ألوان التحديات، لابد وأن يخوضها بثغر باسم، وعزم حازم، وإرادة لا تطاول، وطاقة يفل الحديد ولا تفل.

فليدم الله على الشعب المغربي نعمة التواصل الموصول بأوثق الوشائج، وأمتن الأواصر، مع العرش المكافح القائد، الصامد الرائد.

وليرزقهما من حسن التوفيق، وجمال التطبيق ما يستطيعان به إدراك المرغوب، ونيل المطلوب، والتغلب على كل ما يعترض مسيرتهما، مسيرة الخير والنماء والوحدة.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

والسلام





ليسمح لي قرائي الأعزاء أن أصارحهم بأن أفكار هذه المقالة وعناصرها كتبت ونحن في طريقنا إلى مناجم بوكراع، والحافلة الطافحة برجال العلم والفكر تخترق الصحراء في توثب وتحفز، وقد تأججت عواطفي، وانطلق حماسي، وانثالت أفكاري، وتفجرت أحاسيسي كما يتفجر النبع مدرارا سيالا، فلم استطع صبرا حتى أعود إلى فندقي أو إلى داري، خاصة وأن فورة اللحظة وعطاءها وحماسها تزول ولا تبقى في قوتها وإشعاعها، فاستعرت من أحد الزملاء قلمه، ومن سائق الحافلة أوراقه، وسجلت أحاسيسي غضة طرية، وعواطفي فوارة قوية، كما أوحت بها أيام الصحراء خلال ندوة العيون عن البيعة والخلافة في الإسلام (19 ـ 22 ذو الحجة 1405 / 5 ـ 8 ـ 1985).

لقد كانت أيام الندوة خصبة مليئة شيقة ممتازة، لكثرة ما فيها من العمل والنقاش والحوار المفيد الممتع، ولما امتازت به من زيارات ورحلات ولقاءات، فقد كان اليومان الأولان السابقان لافتتاح الندوة حافلين بالزيارات، مليئين بالاستقبالات، عامرين بالاطلاع على أهم معالم الأقاليم الصحراوية، حيث زرنا محطة توليد الطاقة، وهي محطة ضخمة متقدمة تكنولوجيا، يسيرها ويديرها مهندسون مغاربة أكفاء، أطلعونا على مرافقها وأجهزتها، وكيفية تسيير آلاتها بلغة عربية فصيحة، تثلج الصدور وتطمئن البال وتبعث على الاعتزاز والتأسي بهؤلاء الفتية المتعلمين بلغة أجنبية، والذين لم يمنعهم ذلك من استعمال لغة بلادهم وقومهم في ميدانهم العلمي الصرف، مما يكذب نظرية المتعالمين، ويقف في وجه المتنطعين.

كما زرنا في نفس اليوم الأول ميناء العيون العظيم الممتاز، واطلعنا على مرافقه الضخمة، وتجهيزه الكبير الذي تحدى فيه شبابنا وأبناؤنا عامل الزمان، وحققوا في فترة وجيزة ما يستحيل عادة تحقيقه في هذا المجال، وكذلك اطلعنا على شبكة الطرق الممتدة عبر الأقاليم الصحراوية، والتي تمكنت في مدة نسبية من ربط بلدان الجنوب وأقاليمها بعضها بعضا، بشبكة نموذجية من الطرق زادت من الارتباط والتقارب والتمازج، سواء بين المدن أو بين الناس في يسر وسهولة.

ثم قصدنا في اليوم الثاني مناجم بوكراع الغنية بالفوسفاط، والتي تبعد عن العيون مائة كلمتر، في طرق معبدة سهلة ميسورة، وقد قطعناها بين النكتة والحكمة والفكاهة، حتى إذا وصلناها لاحظنا الفرق الهائل بين الإنجازات القديمة قبل التحرير، وبين الإنجازات والمعدات العصرية الهائلة وفي مقدمتها آلتان أمريكيتان ضخمتان للحفر والنقل، يسيرهما شابان كانا يعملان خارج الوطن آثرا مصلحة بلادهما، وفضلا العمل في هذا الميدان تحقيقا للمعجزة، وإثباتا للتحدي، وقد تعرفنا على كيفية استعمال هذه الآلة العملاقة التي يتعدى ثمنها خمسة وثلاثين مليارا، تعرفنا على كيفية تسييرها وإدارتها، وكيفية انتقالها واستعمالها مما أثار إعجابنا جميعا.

ثم كانت زيارة لبطاح منطلق المسيرة الخضراء، والمكان الذي دخل التاريخ، وأصبح معلمة من معالمنا،

وجزءا من كياننا وحياتنا، وقد وقفنا على التصبين التاريخيين اللذين أقيما بمناسبة الزيارتين التاريخيتين، زيارة الحسن الأول منذ قرن تقريبا، وزيارة الحسن الثاني منذ شهور، وقد أدينا صلاة المغرب جماعة على هذه الأرض الطاهرة، كما صلت جموع المغاربة يوم اقتحامها قبل عشر سنوات، وكما صلى جلالة الملك صلاة الشكر عليها حمدا لربه وتعظيما.

أما ندوة البيعة والخلافة فقد استمرت أربعة أيام كاملات، كانت مليئة بالعروض والمناقشات والحوار، والسؤال والفائدة والعطاء المتواصل، وقد زادها غناء وفائدة مشاركة إخواننا الصحراويين بمداخلاتهم المفيدة، وإفاداتهم الغنية، بأسلوب عربي مبين ذكرنا بعهود العربية المجيدة، وعصور نهضتها الفريدة.

والحق أقول بأن ندوة البيعة هذه تميزت عن الندوات السابقة التي أقامتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بفاس ومراكش، تميزت أولا بتسييرها الممتاز ورأستها الحازمة، التي حققت للندوة جوا ممتازا، ومشاركة فعالة، وإقبالا كاملا من لدن المشاركين في جميع الجلسات رغم طولها، كما تميزت ثانيا بفضل ما قدم فيها من بحوث أكاديمية، وعروض ممتازة، ومداخلات قيمة، جعلت أيام الندوة طافحة بالفائدة والمتعة والغناء، مما أثلج الصدور، وأشاع الرضا في النفوس، وأسجل هنا وأنوه بهذا الحس المرهف الذي ميز الله به أهل الصحراء، وهذا الذكاء الحاد الذي أعطاهم الله، وهذه العاطفة الجياشة التي أعلنوها وأظهروها في كل الأوقات والمناسبات، وذلك بالإعراب عن رضاهم، وسعادتهم وافتخارهم كلما وردت فكرة في عرض، أو بدت ملاحظة على لسان خطيب، تمس الوحدة الوطنية، والتحام سكان الصحراء الدائم ببقية سكان المغرب، وارتباطهم وتعلقهم بالعرش المغربي، إلا وانطلقت حناجرهم بالهتاف والنشيد، وأكفهم بالتصفيق والتأييد، مما أثار إعجابنا، حتى كنا نرقب الملاحظات، ونترقب الالتفاتات والاستشهادات التاريخية، لنتملى بهذه الباقة الخالدة من الإعجاب والرضا، والتي كان يمثلها طوال أيام الندوة، هذا التصفيق الحاد المتميز بالصدق والإخلاص، والذي لم أشهد له مثيلا، وهذا الهتاف الحار العذب، اللذان يؤلفان جميعا نشيدا خالدا، هو تعبير عن تأكيدهم لمغربية الصحراء، وشدة تعلقهم وارتباطهم بعرشهم وبلادهم، حتى كنا نبكي من الفرح بهذه المظاهر، وهذا النشيد الذي لم تستطع وسائل إعلامنا حتى الآن أن تنقل روعته وعظمته وقوته، للذين لم يكتب لهم أن يشاهدوا ويروا ويلمسوا، ما شاهدنا وما رأينا وما لمسنا، من هذا الولاء العظيم، والحب الكريم، والتحدي الكبير، متمنيا للجميع فرصة الوقوف عليه، والتملي بمشاهدته.

وأشهد هنا وأسجل للذكرى والتاريخ أن إخواننا سكان الأقاليم الصحراوية، قد تفننوا في إكرامنا، والحفاوة بنا، والاهتبال والفرح بزيارتنا، والاعتزاز بمقدمنا، وقد تجلى ذلك في التجمعات الشعبية التي استقبلنا بها منذ نزولنا من الطائرة، وخلال حفلات التدشين التي قمنا بها، والزيارات المتعددة للمعالم والمنجزات، وفي الإقبال العظيم على حضور الندوة والاستماع إلى أحاديثنا وعروضنا، وفي هذه الحفلات المتميزة التي أقيمت لنا، وفي هذه السهرات الممتعة التي امتلأت شعرا وحكمة ونشيدا، والتي كانت تقام كل ليلة وفي كل حفلة وفي كل دار دخلناها، والتي نتمنى أن تكون الإذاعة سجلتها، حتى لا يحرم الجمهور من الاستماع إليها، وإلى هذا العطاء العظيم الذي قدمه علماؤنا وأساتذة جامعاتنا. والذي أسهم كثيرا في تجلية مفهوم البيعة الإسلامي، ونفض الغبار عن نظام الخلافة الذي يعتبر النظام الأمثل لحكم المسلمين، وتحقيق العدل والاستقرار لشعوبهم.

كما تمثل هذا الفرح والحفاوة في هذه الابتسامة الخالدة التي تطبع وجوه أهل الصحراء وتحببهم إلى الناس جميعا، هذه الابتسامة الحلوة الرائعة التي كانت تطالعنا وتستقبلنا وتودعنا كلما حللنا بينهم، وجلسنا معهم، مما عز علينا معه فراقهم، غير أن الزمان لا يرحم، وأعمالنا والتزاماتنا حتمت علينا العودة ونحن نردد مع الشاعر :

ولو أعطينا الخيار لما افترقنا
ولكن لا خيار مع الزمان

خبر الآحاد وحجية العمل به

للدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة



المطلب الثالث إفادة خبر الواحد

قبل الانتقال من الحديث عن تعريف خبر الواحد إلى الكلام عن حجيته يتأكد علينا أن نلاحظ أن التعبد به رهين صدقه فيما لم يتمحض لا للصدق ولا للكذب. وهو مشروط بدرجة ما يفيده من علم أو ظن. ولعل في التقسيم السابق لأخبار الآحاد ما يؤذن بأن من العلماء من جعلها قسما واحدا في مقابلة المتواتر فيشمل خبر الواحد عن الواحد عن مثله إلى منتهاه، وكذلك الخبر الذي يكون في أصله على صفة الآحاد ثم يستفيض في القرن الثاني والثالث وقبل انتشار صناعة التدوين ليصبح من الحديث المشهور، ومنهم من جعل خبر الواحد في مقابلة المتواتر، والخبر المشهور واسطة بينهما فلا ينزل إلى درجة خبر الواحد ولا يرقى إلى درجة المتواتر، وبهذا الوصف تضيق دائرة أخبار الآحاد عند الفريق الثاني بقدر اتساعها لدى الفريق الأول، ويختلط مفاد الخبر بين الفريقين لأنه يكون بحسب شموله أو بحسب قصوره محتملا لديهم إما إفادة الظن، وإما إفادة العلم اليقيني، وإما إفادة العلم الظاهر. ومن أجل هذا تعددت الآراء في إفادة خبر الواحد.

فذهب الجمهور إلى أنه لا يفيد بنفسه العلم سواء كان لا يفيده أصلا، أو يفيده بالقرائن الخارجية عنه. وإنما ملاكه إفادة الظن : وقيد بلفظ بنفسه أي لذاته واضح الدلالة ومقصود كما نبه عليه الشوكاني. وربما أطلق لفظ العلم على حد قوله تعالى : ﴿**فإن علمتموهن مؤمنات**﴾[117]، أي ظننتموهن.

وذهب قوم إلى أنه يفيد العلم اليقيني من غير قرينة أما بإطراد أي في خبر كل واحد، وهو مذهب أهل الظاهر، حكاه ابن حزم عن داود وعن الحسين بن علي الكرابيسي والحارث المحاسبي، كما نقله عن ابن خويز منداد يحكيه عن مالك، وهو أحد قولي أحمد.

وأما بلا اطراد لاختلاف الأخبار قوة وضعفا، فلا يفيد العلم اليقيني في كل خبر وإنما في بعض الأخبار. وهذا مذهب بعض أصحاب الحديث كما ورد في التبصرة. ومثال ما يفيد العلم اليقيني لديهم أصح الأخبار وأشهرها وهو ما عرف بسلسلة الذهب، وهو حديث مالك عن نافع عن ابن عمر ونحوه.

---

117) الممتحنة : 10.

وذهب آخرون إلى أنه يفيد العلم الظاهر وهو غير الظن. وقد أخذ بهذا الرأي أبو بكر القفال. وصرح به السرخسي عند استدلاله على وجوب العمل بخبر الواحد.

والمذهب المنصور الذي يؤيده الآمدي هو الذي عناه بقوله : «والمختار حصول العلم بخبره إذا احتفت به القرائن، ويمتنع ذلك عادة دون القرائن»[118].

وهذا الاختلاف في الواقع متأت عند بعض المذاهب من نظرهم إلى الأخبار مقترنة بما يعضدها من أحوال وقرائن. ولذلك عقب الشوكاني على ذكرها بقوله : «واعلم أن الخلاف الذي ذكرناه في أول هذا البحث من إفادة خبر الآحاد الظن أو العلم مقيد بما إذا كان خبر الواحد لم ينضم إليه ما يقويه، وأما إذا انضم إليه ما يقويه أو كان مشهورا أو مستفيضا فلا يجرى فيه الخلاف المذكور»[119].

وتتضح هذه المقالة من الحوار الدائر بين أصحاب تلك المذاهب في بعض ما استدلوا به وأجيبوا به عنه.

فالجمهور القائل بأن خبر الواحد العدل لا يفيد إلا الظن يتمسك :

أولا : بما هو معلوم بالضرورة من أي واحد منا لا يصدق كل خبر يسمعه.

ثانيا : بأن الأخبار الصادرة عن العدول قد يثبت بعضها ما ينفيه الآخر فتتناقض، ولا يحصل بسبب ذلك علم.

ثالثا : بأن القول بإفادة الواحد العلم يلزم منه العلم بنبوّة من يدعي أنه رسول من غير أن يطالب بمعجزة تبرهن على صدقه.

رابعا : بأن القول بإفادة خبر الواحد العلم يجعله مساويا للقرآن وللخبر المتواتر فيجوز نسخهما به.

خامسا : بأن التسليم بإفادته العلم يفضي إلى وجوب تخطئته المخالف للخبر بالاجتهاد، وإلى جواز تفسيقه وتبديعه إن كان ذلك فيما يبدع بمخالفته ويفسّق.

سادسا : بأن القول بإفادته العلم يفضي إلى قبول الشاهد الواحد وإلى الاستغناء عن تزكيته.

سابعا : بأن جواز الكذب والخطأ عن المخبر لكونه غير معصوم يمنع الخبر من إفادة العلم بالمخبر به[120].

والجواب عن هذه الاستدلالات من طرف القائلين بإفادة الخبر العلم يؤذن في مجموعه بما ذكرناه أعلاه مما نبه عليه الشوكاني.

فهم يقيدون المخبر بشروط لا يتم العلم ولا الوثوق بمفاد الخبر الصادر عنه إلا بحصولها وتوفرها فيه. دعا إلى ذلك رب العزة في قوله محذرا ومنبها : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة**﴾[121].

وفصل تلك الشروط الإمام الشافعي في الرسالة حين قال في باب خبر الواحد : «ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أمورا منها : أن يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفا بالصدق في حديثه، عاقلا لما يحدث، عالما بما يحيل معاني الحديث من اللفظ، وأن يكون ممّن يؤدى الحديث بحروفه كما سمع، لا يحدث به على المعنى لأنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام، وإذا أداه بحروفه فلم يبق وجه يخاف فيه إحالته الحديث، حافظا إن حدّث به من حفظه، حافظا لكتابه أن حدّث به من كتابه، إذا شرك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم، بريئا من أن يكون مدلسا : يحدّث عمّن لقي ما لم يسمع منه، ويحدّث عن النبيّ ما يحدّث الثقات خلافه عن النبي... ويكون هكذا من فوقه ممّن حدثه حتى ينتهي بالحديث موصولا إلى النبي أو إلى من انتهى دونه، لأن كل واحد منهم مثبت لمن حدّثه، ومثبت على من حدّث عنه. فلا يستغنى في كل واحد منهم عما وصفت»[122].

---

118) الآمدي : 2، 48 ـ 49.

119) الشوكاني. ارشاد الفحول : 49.

120) انظر الغزالي. المستصفى : 1، 145، الآمدي : 2، 49 ـ 51.

121) الحجرات : 6.

122) الشافعي. الرسالة : 370 ـ 372، 1000، 1002.

ولا يحتجّ بتناقض الخبرين إذا صدرا عن ثقتين وأفاد كلّ منهما علما لا يقبل معه ما أفاده الخبر الثاني لافتراقهما، لأنه لا يجوز في الشرع أن يوجد خبران متعارضان من جميع الوجوه، وليس مع أحدهما ترجيح يقدم به. ذكره أبو بكر الخلال[123]، ولأن الاختلاف والتقابل بين الخبرين بالحظر والإباحة أو بالإيجاب والإسقاط يوجب علينا كما قال ابن حزم : «أن ننظر إلى النص الموافق لما كنا عليه لو لم يرد واحد منهما فنتركه ونأخذ بالآخر. لا يجوز غير هذا أصلا»[124].

والجواب عن مدعي النبوة واحتياجه إلى المعجزة لقبول ما جاء به أن المعجزة حجة له من الله تشهد بصدقه، وليس المخبر عن الله كالمخبر عن رسوله لأن المخبر عن الرسول يكتفى فيه بتوفر شروط العدالة والحفظ والضبط ليكون خبره مقبولا ومطمأنا إليه.

أما نسخ القرآن والأخبار المتواترة بأخبار الآحاد فذلك موضع خلاف بين العلماء وقد أجازه ابن حزم قال : «وقالت طائفة : جائز كل ذلك. والقرآن ينسخ بالقرآن وبالسنة، والسنة تنسخ بالقرآن وبالسنة. وبهذا نقول وهو الصحيح. وسواء عندنا السنة المنقولة بالتواتر والسنة المنقولة بأخبار الآحاد. كل ذلك ينسخ بعضه بعضا»[125]. وذكر ابن عقيل عن أحمد رواية بجواز النسخ بأخبار الآحاد احتجاجا بقصة أهل قباء. وبه قال بعض أهل الظاهر : ومن حجة النسخ بخبر الواحد حديث أنس في الخمر إذ أراقها وكسر الدينان[126].

وتخطئة المجتهد بخبر الواحد واردة قائمة لم يمنع منها دين ولا أدب بل يوجبها الورع والتقى. فعن عطاء بن يسار أن معاوية بن أبي سفيان باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها. فقال له أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا. فقال معاوية : ما أرى بهذا بأسا. فقال أبو الدرداء : من يعذرني من معاوية. أخبره عن رسول الله ﷺ ويخبرني عن رأيه. لا أساكنك بأرض[127]. وعن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب كان يقول : الدية للعاقلة ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئا حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله ﷺ كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابي من ديته . فرجع إليه عمر[128].

والشاهد في المظالم وبين الناس لا يكون شأنه كشأن المحدّث إذ الحكم بالشاهد الواحد غير لازم، ويحكم بالبينة التي هي مظنة الصدق. وقد قال الشافعي : «أقبل في الحديث الواحد والمرأة. ولا أقبل واحدا منهما في الشهادة»[129].

وجانب جواز الوهم والكذب على الراوي مرجوح بل مدفوع بما اشترطناه فيه وفيمن فوقه من الرواة من العدالة ونحوها. وجانب الصدق هو الراجح لأن رواية العلم ديانة، وأن هذا العلم وحي، وهو من الذكر الذي تعهد الله بحفظه : قد وكل سبحانه إلى الأئمة من أهل الحديث القيام به والذبّ عنه. قال ابن القيم : «قال الامام أبو المظفر : فأما العلماء بالآثار فإنهم ينتقدونها انتقاد الجهابذة الدراهم والدنانير، فيميزون زيوفها ويأخذون خيارها. ولئن دخل في أغمار الرواة من دس بالغلط في الأحاديث فلا يروج ذلك على جهابذة أصحاب الأحاديث وورثة العلماء حتى أنهم عدوا أغاليط من غلط في الإسناد والمتون بل تراهم يعدون على كل واحد منهم كم في حديث غلط وفي كل حرف حرف وماذا صحّف»[130].

والقائلون بأن خبر الواحد يفيد العلم اليقيني باطراد أو بلا اطراد سووا في كثير من الأحيان بين وجوب العمل ووجوب العلم، وقالوا بالتلازم بينهما، وربما نظروا إلى درجة الحديث، فذهب الجصاص إلى القول بأن المشهور الذي هو قسم من الآحاد يفيد العلم اليقيني بطريق النظر والاستدلال.

123) آل تيمية : المسودة : 306.
124) ابن حزم. الأحكام : 2 ـ 30.
125) ابن حزم. الاحكام : 4، 107.
126) آل تيمية. المسودة : 206 ـ 207.
127) الزرقاني. شرح الموطأ : 4، 220.
128) الشافعي. الرسالة : 426، 1172.
129) الشافعي. الرسالة : 373، 1010.
130) ابن القيم. الصواعق : 410.

وذهب عيسى بن ابان إلى أنه لوقوعه واسطة بين الآحاد والمتواتر يفيد علم طمأنينة، صرح بذلك السرخسي في أصوله، وجعل منه :
حديث المسح على الخفين.
وحديث الرجم.
وقالت الحنفية بوجوب الخبر المستفيض العلم، ومثلوا لذلك بحديث : لا وصية لوارث
وحديث ابن مسعود : المتبايعان إذا اختلفا أن القول قول البائع أو يترادان.
وحديث عبد الرحمان بن عوف في أخذ الجزية من المجوس.
وحديث فرض الجدة السدس.
ذكر ذلك أبو بكر الرازي في أصول الفقه[131].
وأدلة هذا الفريق من الأصوليين متعددة منها :
أولا : إن خبر الواحد لو لم يفد العلم لما جاز اتباعه والعمل به للنهي عن اتباع الظن واقتفاء ما ليس بعلم. وقد انعقد الإجماع على اتباعه فدل ذلك على إفادته العلم قطعا.
ثانيا : إن آيات كثيرة تشهد لذلك. فقوله عز وجل : ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾[132]، يوجب على الناس قبول إنذار الطائفة لهم بعد التفقه. والطائفة تطلق على الواحد فصاعدا من غير حصر في عدد معين.
وقوله تعالى : ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى**﴾[133]، وقوله تعالى : ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس**﴾[134]، يوجبان البيان على الافراد ويحرمان الكتمان. وفي مقابلة الجمع بالجمع تفريق، والخطاب للجماعة بما هو أصل في الدين يتناول كل واحد من الآحاد.

ومما يستدلون به من الآيات أيضا : ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾[135]، لاقتضاء الآية طلب المجتهد الإخبار وجوبا.
وقوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله**﴾[136]. ويصدق ذلك بإخبار الواحد بما سمعه من الرسول ﷺ، فإيجاب التبليغ عليه مترتب على وجوب قبول شهادته وإلا لم يكن لإيجاب الشهادة فائدة.
وقوله تعالى : ﴿**أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾[137]، وقوله تعالى : ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ**﴾[138]، يقتضيان بدون شك تبليغ رسول الله كل شيء من القرآن وغيره وما تواتر عنه من الأخبار وما لم يتواتر، والبلاغ لا يكون كذلك إلا بما يوجب علما ويقتضي عملا.
وكذلك قوله عز وجل : ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس**﴾[139]، يشمل تبليغه الرسالة بنفسه وبواسطة رسله وكتبه. ولو لم يكن في هذا حجة لما اعتمد رسول الله ﷺ الافراد من الدعاة والسفراء يرسلهم إلى الملوك وغيرهم.
ومن الشواهد والأدلة القرآنية أيضا قوله تعالى : ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾[140]، وقوله : ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾[141].
ثالثا : حث الرسول ﷺ على الاستماع للحديث منه وحفظه وتأديته على وجهه حتى تقوم الحجة بذلك على من بلغ إليه. ويشهد لهذا ما رواه عبد الرحمان بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها، فرب حامل فقه غير فقيه وربما حامل فقه إلى من هو أفقه منه ! ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله، والنصيحة

131) الرازي، أصول الفقه
132) التوبة : 122.
133) البقرة : 159.
134) آل عمران : 187.
135) النحل : 43.
136) النساء : 135.

137) المائدة : 67.
138) النور : 45.
139) سبأ : 28.
140) النجم : 3.
141) النحل : 44.

للمسلمين، ولزوم جماعتهم. فإن دعوتهم تحيط من وراءهم»[142].

رابعا : أخذ الصحابة والتابعين فيما يعرض لهم من أمر ويحدث لهم من شأن بما يخبر به بعضهم بعضا من مقالة رسول الله ﷺ فيه.

خامسا : ورود الوعيد على مخالفة أمر الرسول لما في ذلك من الإعراض عنه ﷺ والصد عن هديه. قال تعالى : **﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾**[143]، قال ابن القيم : «وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره ﷺ إلى يوم القيامة. ولو كان ما بلغه لم يفده علما لما كان متعرضا بمخالفة ما لا يفيد علما للفتنة والعذاب الأليم. فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذر»[144].

سادسا : قبول الرسل أخبار الآحاد مع القطع بمضمونها. من ذلك قبول موسى عليه السلام خبر من جاءه من أقصى المدينة يقول له :

«**إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك**»[145]، وقبوله أيضا خبر بنت شعيب عليه السلام حين قالت له :

«**إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**»[146]، وكذلك قبول خبر الرسول الموفد من طرف الملك إلى يوسف عليه السلام وإجابته له بقوله :

«**ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة**»[147]، وقبول الرسول ﷺ خبر الآحاد الذين كانوا يخبرونه بنقض عهد المعاهدين له وغزاهم.

سابعا : انتشار أخبار الآحاد وقبولها بين رجال السلف الصالح وأئمة المسلمين واعتدادهم بها وقبولهم لها وترديدهم لمضمونها بقولهم قال النبي كذا، وفعل كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وقول أهل العلم صح عن رسول الله ﷺ وثبت عنه. فإذا شكوا في الحديث أو توقفوا فيه قالوا : يروى ويذكر. فيفرقون بين ما أفادهم علما وبين ما أورثهم شكا منه بما خبروه من فنون الرواية وحذقوه من علوم الدراية.

بهذا الحزم دافع أهل الظاهر ومن تبع مذهبهم عن رأيهم، ولم تلوهم عنه البراهين المنطقية ولا غيرها. ويكفي أن تقابل بين استدلالات الجمهور وحجج مخالفيهم لتكون لك رأيا في قضية إفادة خبر الواحد العلم. ولكنك وإن فعلت فسوف تبقى دائما تحت سلطان مقالة ابن حزم وهو يناقش الجمهور وينقض رأيهم : «أخبرونا هل يمكن عندكم أن تكون شريعة فرض أو تحريم أتى بها رسول الله ﷺ ومات عنها وهي باقية لازمة للمسلمين غير منسوخة، فجهلت حتى لا يعلمها علم يقين أحد من أهل الإسلام في العالم أبدا ؟ وهل يمكن عندكم أن يكون حكم موضوع بالكذب أو بخطإ الوهم قد جاز ومضى واختلط بأحكام الشريعة اختلاطا لا يجوز أن يميزه أحد من أهل الإسلام في العالم أبدا، أم لا يمكن عندكم شيء من هذين الوجهين ؟»[148].

ويأتي بعد الفريقين المتقابلين من يدعي أن خبر الواحد يفيد العلم، ولكنه العلم الظاهر. فيقف بذلك موقفا وسطا بين الاتجاهين السابقين. وقد عرفنا أصحاب هذا القول. ودليلهم قول الله تعالى : **﴿وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾**[149]. حيث أفادت الآية وجود علم ظاهر لكنه غير مقطوع به، وقوله تعالى : **﴿أن تصيبوا قوما بجهالة﴾**[150]، الذي يقتضي بعد العلم وجوب التأكد والتبين. قال السرخسي يجلي حقيقة هذا المذهب : أن من اعتمد خبر العدل في العمل به يكون

---

142) سنن الترمذي.
143) النور : 63.
144) ابن القيم. الصواعق : 2، 400.
145) القصص : 20.
146) القصص : 25.
147) يوسف : 50.
148) ابن حزم. الأحكام : 1، 122.
149) يوسف : 81.
150) الحجرات : 6.

بعلم لا بجهالة، إلا أن ذلك علم باعتبار الظاهر لأن عدالته ترجح جانب الصدق في خبره[151].

ورأى هذه الفئة مدفوع بأنه ليس للعلم ظاهر وباطن. وقد رده الخطيب البغدادي بما نقله عن القاضي أبي بكر بن الطيب من قوله : فأما من قال من الفقهاء أن خبر الواحد يوجب العلم الظاهر دون الباطن، فإنه قول من لا يحصل علم هذا الباب لأن العلم من حقه أن لا يكون علما على الحقيقة بظاهر أو باطن، إلا بأن يكون معلومه على ما هو به ظاهرا وباطنا، فسقط هذا القول»[152].

وأما المذهب الذي أيده الآمدي وهو قول القائل بأن خبر الواحد يفيد العلم إذا احتف بالقرائن، فقد أخذ به جماعة من الأصوليين المحققين مثل ابن الحاجب وإمام الحرمين والبيضاوي وأبي يحيى زكرياء الأنصاري. ومثلوا له بعده أمثلة نذكر منها ما أورده الآمدي من قوله : إنه إذا كان في جوار إنسان امرأة حامل، وقد انتهت مدة حملها، فسمع الطلق من وراء الجدار، وضجة النسوان حول تلك الحامل. ثم سمع صراخ الطفل، وخرج نسوة يقلن أنها قد ولدت، فإنه لا يستريب في ذلك ويحصل له العلم به قطعا. وانكار ذلك مما يخرج المناظرة إلى المكابرة[153].

فالأخبار اذن إذا حفت بالقرائن أفادت العلم وكانت تلك القرائن والعلامات دلائل على صدقها. ومن هذه القرائن : تلقي الأمة الخبر بالقبول وعملها بموجبه. فإن ذلك يفيد العلم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما ملخصه : «الخبر إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقا له وعملا بموجبه أفاد العلم عند جماهير العلماء من السلف والخلف. وهو الذي ذكره جمهور المصنفين في أصول الفقه كشمس الأئمة السرخسي وغيره من الحنفية، والقاضي عبد الوهاب وأمثاله من المالكية، والشيخ أبي حامد الاسفراييني والقاضي أبي الطيب الطبري والشيخ أبي إسحاق الشيرازي وسليم الرازي وأمثالهم من الشافعية، وأبي عبد الله ابن حامد والقاضي أبي يعلى وأبي الخطاب وغيرهم من الحنابلة. وهو قول أكثر أهل العلم من الأشاعرة وغيرهم كأبي إسحاق الأسفراييني وأبي بكر ابن فورك وأبي منصور التميمي وابن السمعاني وأبي هاشم الجبائي وأبي عبد الله البصري. قال وهو مذهب أهل الحديث قاطبة، وهو معنى ما ذكره ابن الصلاح في مدخله إلى علوم الحديث. فذكر ذلك استنباطا وافق فيه هؤلاء الأئمة، وخالفه في ذلك من ظن أن الجمهور على خلاف قوله لكونه لم يقف إلا على تصانيف من خالف في ذلك كالقاضي أبي بكر الباقلاني والغزالي وابن عقيل وغيرهم لأن هؤلاء يقولون أنه لا يفيد العلم مطلقا، وعمدتهم أن خبر الواحد لا يفيد العلم بمجرده والأمة إذا عملت بموجبه فلوجوب العمل بالظن عليهم، وأنه لا يمكن جزم الأمة بصدقة في الباطن لأن هذا جزم بلا علم»[154].

وممن شرح هذا الرأي ودل عليه وجعله عنوان المدرسة الحديثية أبو المظفر منصور ابن محمد السمعاني حين يقول في كتاب الانتصار له : «إذا صح الخبر عن رسول الله ﷺ ورواه الثقات والأئمة وأسنده خلفهم عن سلفهم إلى النبي ﷺ،وتلقته الأمة بالقبول فإنه يوجب العلم فيما سبيله العلم. هذا قول عامة أهل الحديث والمتقنين من القائمين على السنة»[155].

ثم يمضي في مقابلة ومواجهة خصوم مذهبه ببيان سنده في ذلك وتعزيز رأيه بقوله :

«واعلم أن الخبر وإن كان يحتمل الصدق والكذب والظن وللتجوز فيه مدخل. ولكن هذا الذي قلناه لا يناله أحد إلا بعد أن يكون معظم أوقاته مشتغلا بالحديث، والبحث عن سيرة النقلة والرواة، ليقف على رسوخهم في هذا العلم، وكبير معرفتهم به، وصدق ورعهم في أقوالهم وأفعالهم، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، وما بذلوه من شدة العناية في تمهيد هذا الأمر، والبحث عن أحوال الرواة، والوقوف على صحيح الأخبار وسقيمها، وكانوا بحيث لو

151) السرخسي، اصول : 1، 326 ـ 327.

152) الخطيب، الكفاية : 65.

153) الآمدي : 2، 54.

154) ابن حجر، النكت على كتاب ابن الصلاح : 1، 374 ـ 376.

155) ابن القيم، الصواعق : 406.

قتلوا لم يسامحوا أحدا في كلمة واحدة يتقولها على رسول الله ﷺ، ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك. وقد نقلوا هذا الدين كما نقل إليهم، وأدوا كما أدي إليهم، وكانوا في صدق العناية والاهتمام بهذا الشأن ما يجل عن الوصف ويقصر دونه الذكر. وإذا وقف المرء على هذا في شأنهم، وعرف حالهم، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم، ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه»[156].

وقد جعل أهل الحديث من أصحاب هذا المذهب أحاديث الصحيحين من هذا القبيل سوى ما انتقده الحفاظ عليهما. وبناء على ما قررناه لا تكون إفادة خبر الواحد العلم إذا احتف بالقرائن عين إفادة الخبر المتواتر أي من جهة العادة والإطراد، ولكن خبر الواحد في هذه الحالة يفيد العلم النظري القائم على البرهنة والاستدلال بما انضم إليه من القرائن التي قد يرجع بعضها إلى المخبر عنه، وبعضها إلى المخبِر، وبعضها إلى المخبَر.

فأما ما يرجع إلى المخبر عنه فتأكد للمؤمنين أن الله حافظ لدينه، متكفل بحماية بينات وحجج رسوله. وقد فضح سبحانه من كذب على نبيه في حياته وبعد مماته وبين حاله للناس. قال ابن عيينة : ما ستر الله أحدا يكذب في الحديث.

وأما ما يرجع إلى المخبِر والمخبَر من القرائن فمنها ما أشار إليه ابن حجر في قوله : «والخبر المحتف بالقرائن أنواع. منها ما أخرجه الشيخان مما لم يبلغ حد التواتر. فإنه احتف به قرائن منها جلالتهما في هذا الشأن، وتقدمهما في تمييز الصحيح على غيرهما، وتلقى العلماء لكتابيهما بالقبول. وهذا التلقي وحده أقوى في إفادة العلم من مجرد كثرة الطرق القاصرة عن التواتر، إلا أن هذا يختص بما لم ينتقده أحد من الحفاظ مما في كتابيهما، وبما لم يقع التجاذب بين مدلوليه مما وقع في الكتابين حيث لا ترجيح لاستحالة أن يفيد النقيضان العلم بصدقهما من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، وما عدا ذلك فالاجماع حاصل على تسليم صحته»[157].

وأثر الخلاف بين المدارس المتقابلة في هذا الغرض وبخاصة بين مدرسة الجمهور التي تقول أن خبر الآحاد لا يفيد العلم وأنه لا يفيد إلا الظن، وبين مدرسة أهل الظاهر وأهل الحديث التي تؤكد أنه يفيد العلم بإطراد، أو بضيمة القرائن إليه، يظهر في قبول الاحتجاج به في الأحكام عندهما جميعا وقبول الاحتجاج به في العقائد عند الأخيرين خاصة.

المطلب الرابع في حجية الواحد

مما تقدم بيانه في المطلبين الثاني والثالث من تفصيل لأخبار الآحاد وما تنتظمه من أنواع، ومن عرض للآراء والمذاهب بشأن مفادها، ومن النقاش والحوار الذي دار بين تلك المذاهب، ومن الإلماع للشروط التي يجب مراعاتها لاعتماد تلك الأخبار والعمل بها يتضح موقف جمهور علماء المسلمين من حجية هذا الخبر.

وإذا استثنينا أهل البدعة من الرافضة وعددا كبيرا من المعتزلة والشيعة وطائفة من المتزعمين لمنكري العمل بخبر الواحد أمثال القاساني وابن أبي داود والنهرواني وابراهيم بن اسماعيل بن عليّة والأصم فإن سائر المتكلمين والأصوليين والمحدثين والفقهاء قائلون بالعمل به ومحتجون به في جميع شؤونهم وتصرفاتهم الدينية والدنيوية، تدعم موقفهم النصوص القرآنية والآثار، ويعضدهم إجماع الصحابة والتابعين ومن جرى على نهجهم من علماء السلف وأئمتهم. وقد قدمنا أمثلة وشواهد على ذلك تغني عن الإعادة والتكرار كما أن هذا مبسوط في مصنفات علماء الأصول ورسائلهم يمكن لمن يريد التوسع الوقوف عليه بها وطلبه فيها.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن خبر الواحد المقبول في العمل والاحتجاج به هو ما كان **مسندا متصلا أو مرسلا.**

أما الأول فشروطه معلومه وقد ذكرنا في هذا مقالة الشافعي.

(156) ابن القيم، الصواعق : 2، 409 - 410.

(157) ابن حجر، شرح نخبة الفكر : 6، 7.

وأما الثاني وهو المرسل فقد قسمه العلماء إلى مرسل الصحابي وهو مقبول بالإجماع، ومرسل القرن الثاني والثالث وهو حجة عند الحنفية، ولم يقبله الشافعي إلا إذا اتصل من وجه، قال : ولذا قبلت مراسيل سعيد بن المسيب لأني تتبعتها فوجدتها مسانيد.

ومرسل العدل في كل قرن احتج به الكرخي وقال يقبل، واشترط عيسى ابن أبان لقبوله أن يكون مرسله من يحمل العلم منه[158].

أما غير ذلك من الأحاديث فإنه لا يعتد بها إما لضعفها وإما لما لحقها من الطعون.

وإذ تبين أن العمل بخبر العدل الضابط وبما شاكله أو ألحق به من المراسيل مدرك محسوس وواقع ملموس فإنه لابد من الاشارة إلى درجة العمل به ومدى الاستناد إليه والاحتكام له بين الأصوليين. ويظهر هذا في عدة قضايا منها :

1 ـ العمل به في الفتوى والشهادة والأمور الدنيوية.
2 ـ العمل به في الحدود.
3 ـ العمل به عند معارضته لعمل أهل المدينة.
4 ـ العمل به فيما تعم به البلوى.
5 ـ العمل به في حال مخالفة الراوي لمرويّه.

ففي الصورة الأولى أي في الفتوى والشهادة والأمور الدنيوية اختلف العلماء على ثلاث فرق :

الأولى توجب العمل به في الكل. وقد نقل ذلك البيضاوي في قوله : «اتفقوا على الوجوب في الفتوى والشهادة والأمور الدنيوية»[159].

وقال الأسنوي : «اتفق الكل على وجوب العمل بخبر الواحد في الفتوى والشهادة والأمور الدنيوية كأخبار طبيب أو غيره بمضرة شيء مثلا، وأخبار شخص عن المالك أنه منع من التصرف في ثماره بعد أن أباحها، وشبه ذلك من الآراء، والحروب ونحوها»[160].

وقال ابن السبكي : «يجب العمل في الفتوى والشهادة «إجماعا وكذا سائر الأمور الدنيوية».

ومن أتباع هذا المذهب القائلين به الجلال المحلي في شرحه على جمع الجوامع، والبنّاني والعطار في حاشيتيهما عليه[161].

وإلى هذا المذهب أشار صاحب المراقي بقوله :

وفي الشهادة وفي الفتوى العمل
به وجوب اتفاقا قد حصل
كذاك جاء في اتخاذ الأدويه
ونحوها كسفر والأغذيه[162]

الفرقة الثانية تجيز العمل به في المواضيع الثلاثة ولا توجبه. وهو المنقول عن الفخر الرازي في المحصول قال : «إن الخصوم بأسرهم اتفقوا على جواز العمل بالخبر الذي لا تعلم صحته في الفتوى والشهادة والأمور الدنيوية»[163].

والفرقة الثالثة وسط بين السابقتين، أجازت العمل به في الدنيويات وأوجبته في الفتوى والشهادة. وهذا المذهب هو مذهب القرافي[164].

وفي الصورة الثانية وهي قضية العمل بخبر الواحد في الحدود افترق العلماء على رأيين :

الأول : قبول خبر الواحد في كل ما يوجب الحدود ويسقط بالشبهة وهو مذهب الجمهور من الشافعية والحنابلة وأبي يوسف وأبي بكر الرازي والجصاص. قالوا : خبر العدل الضابط الجازم إذا روى في حكم عملي يقبل في الحدود كما يقبل في غير الحدود من العمليات. واحتمال الكذب فيه لا ينفي العمل به بدليل حديث أم سلمة أن النبي ﷺ قال : «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه. فإنما أقطع له قطعة من النار»[165].

---

158) الخبازي. المغني : 189.
159) البيضاوي. نهاية السول : 2، 230.
160) البيضاوي. نهاية السول : 2، 231.
161) المحلى على جمع الجوامع : 2، 131، العطار على المحلى : 2، 158.
162) فتح الودد : 221.
163) البيضاوي. نهاية السول : 2، 231.
164) القرافي. التنقيح : 358.
165) خ. كتاب الاحكام، باب من قضي له بحق أخيه فلا يأخذه. ح 1. ـ

الرأي الثاني : المنع من قبوله ومن العمل به. وهو مذهب الكرخي وأبي عبد الله البصري وفخر الإسلام وشمس الأئمة وصاحب التنقيح[166]. ودليله أن خبر الواحد يفيد الظن، والظن لا يقبل في الحدود لما فيه من الشبهة. وقد قال رسول الله ﷺ «ادرأوا الحدود بالشبهات»[167].

وفي الصورة الثالثة وهي حكم العمل بخبر الواحد إذا تعارض مع عمل أهل المدينة نحتاج أن نذكر بأن الخبر في الجملة ظنيّ، وأن عمل أهل المدينة أو بالأحرى اجماع أهل المدينة قطعيّ، ومتى قابل القطعيّ الظنيّ قدّم الأول وقضي له على الثاني.

وعمل أهل المدينة هو ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم من نظر وحكم وسلوك وتصرف أساسها جميعا ما تلقوه من أحكام من رسول الله ﷺ طوال حياته في حله وترحاله وفي جميع أوقاته. قال عياض : «فكانوا أشد الناس حرصا على اتباعه في كل ما يصدر عنه ﷺ، إذ كان بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعون، ويسنّ لهم فيتبعون حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته»[168].

وقد شهد المهاجرون والأنصار بالمدينة المنورة التشريع العملي، وكانوا أعرف الناس بما كان يفعله النبي ﷺ وما كان يقضي به بين الخلق وما كان يفعله كبار الصحابة الذين انتهى علمهم إلى زيد بن ثابت. وقد أخذ عن زيد أصحابه وجروا على نهجه وطريقته.

قال ابن المديني : «وأصحاب زيد بن ثابت كانوا يأخذون عنه ويفتون بفتواه. منهم من لقيه ومنهم من لم يلقه اثني عشر رجلا : سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب وخارجه بن زيد وسليمان بن يسار وأبان بن عثمان وعبيد الله بن عبد الله والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وأبو بكر بن عبد الرحمان وأبو سلامة بن عبد الرحمان... قال : ولم يكن بالمدينة بعد هؤلاء أعلم بهم من ابن شهاب ويحيى بن سعيد وأبي الزناد وبكر بن عبد الله الأشج، ثم لم يكن أحد أعلم بهؤلاء بمذهبهم من مالك بن أنس»[169].

وقد نسبوا إلى الإمام مالك تقديم عمل أهل المدينة على خبر الواحد العدل باعتبار أن إجماع أهل المدينة من الصحابة والتابعين حجة.

وبين القاضي عياض في المدارك[170]، مراتب عمل أهل المدينة والحالات التي يقدم فيها العمل على خبر الواحد فقال : «اعلموا أن إجماع أهل المدينة على ضربين : ضرب من طريق النقل والحكاية الذي توثره الكافة عن الكافة وعملت به عملا لا يخفى، ونقله الجمهور عن الجمهور عن زمن النبي ﷺ. ومثاله ما نقل شرعا من جهة النبي ﷺ من قول أو فعل كالصاع والمدّ والآذان والإقامة وترك الجهر بالبسملة في الصلاة والوقوف والأحباس، وهو محل اتفاق.

وضرب ثان هو إجماعهم على العمل من طريق الاجتهاد والاستدلال. وفيه خلاف بين المالكية».

وذكر ابن تيمية أن عمل أهل المدينة على أربع مراتب :

الأولى : ما يجري مجرى النقل عن النبي ﷺ. وهذا حجّة باتفاق العلماء يقدم على خبر الواحد.

الثانية : العمل القديم بالمدينة قبل الفتنة. وهو حجّة عند مالك والشافعي وفي ظاهر مذهب أحمد.

الثالثة : إذا تعارض في المسألة دليلان كحديثين وقياسين ولم يدر الأرجح منهما، وأحدهما يعمل به أهل المدينة ففيه نزاع : فمذهب مالك والشافعي أنه يرجح بعمل أهل المدينة، ومذهب أبي حنيفة أنه لا يرجح به، ولأصحاب أحمد وجهان : أنه لا يرجح وهو قول أبي يعلى وابن عقيل، والثاني أنه يرجح وهو قول أبي الخطاب ومن تبعه.

166) التقرير والتحبير : 2، 276؛ الراهوي على المنار : 649.

167) أخرج الحديث أبو حنيفة في سندة. وقال ابن حجر هو من قول عمر وعزاه صاحب الدرر إلى الترمذي، وروى عن علي مرفوعا. العجلوني : 1، 71 ـ 72.

168) عياض. المدارك : 1، 14.

169) ابن المديني. العلل : 48.

170) عياض : 1، 68 ـ 71.

الرابعة : العمل المتأخر. وهو عند عامة الناس وأئمتهم ليس بحجّة شرعية[171].

وفي صورة عموم البلوى وهي ما يحتاج إليه الكل حاجة متأكدة تقتضي السؤال عنه مع كثرة تكرره وقضاء العادة بنقل الخبر متواترا، فإن خبر الواحد مثل حديث بسرة بنت صفوان أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا مس أحدكم ذكره فليتوضأ»[172]، وحديث أبي هريرة في غسل اليدين عند القيام من نوم الليل -[173]، وحديث رفع اليدين عند الركوع والرفع منه[174]، منعه الاحناف ومنهم الكرخي. قاله ابن الهمام[175]، وقبله الجمهور من الأصوليين والمحدثين إذا صح اسناده[176].

وقد أورد الفريقان أدلة كثيرة تؤيد ماذهبا إليه. ومما احتج به الأحناف : إن الغريب أي خبر الواحد فيما تعم به البلوى ويحتاج الخاص والعام إلى معرفته للعمل به فإنه زيف، لأن صاحب الشرع كان مأمورا أن يبين للناس ما يحتاجون إليه، وقد أمرهم بأن ينقلوا عنه ما يحتاج إليه من بعدهم. فإذا كانت الحادثة مما تعمّ به البلوى فالظاهر أن صاحب الشرع لم يترك بيان ذلك للكافة وتعليمهم، وأنهم لم يتركوا نقله على وجه الاستفاضة، فحين لم يستفض النقل عنهم عرفنا أنه سهو أو منسوخ، ألا ترى أن المتأخرين لما نقلوه اشتهر بينهم، فلو كان ثابتا في المتقدمين لاشتهر أيضا وما تفرد الواحد بنقله مع حاجة العامة إلى معرفته»[177].

ومن أدلة الجمهور النص والإجماع والمعقول. ومن هذا أن الراوي عدل ثقة، وهو جازم بالرواية فيما يمكن فيه صدقه، وذلك يغلب على الظن صدقه، فوجب تصديقه كخبره فيما لا تعمّ به البلوى[178].

وفي صورة مخالفة الراوي لمرويّه يتحدد موقف العلماء من الخبر بحسب حاله لأنه أما أن يكون نصا أو ظاهرا أو مجملا.

فإن كان الخبر نصا وخالفه راويه فإن الحنفية تعمل بمذهب الراوي لأنه لا يمكن أن يعدل عن النص إلا لدليل من نسخ أو نحوه ظهر له ووقف عليه. وهذا رأي مردود من الشوكاني بقوله : «ولا وجه لما قيل من أنه قد اطلع على ناسخ لذلك الخبر الذي رواه، لأنا لم نتعبد بمجرد هذا الاحتمال، وأيضا فربما ظن أنه منسوخ ولم يكن منسوخا»[179].

وذهب الجمهور إلى الالتزام بالنص والعمل بالخبر مستدلين على هذا بأن الحجّة في لفظ صاحب الشرع لا في مذهب الراوي[180].

وإن كان الخبر ظاهرا وحمله الراوي على غير ظاهره أما بصرف اللفظ عن حقيقته، وأما بصرفه عن الوجوب إلى الندب، وأما بصرفه عن التحريم إلى الكراهة فإن المعتمد عند أكثر الحنفية هنا أيضا مذهب الراوي لأن مخالفة الظاهر عندهم لا تكون من الصحابي الراوي للخبر إلا لقرائن رجحت لديه أن خلاف الظاهر هو المتعين في الخبر الذي نقله.

وقال الجمهور والكرخي والشافعي أن العمل لا يكون إلا بظاهر الخبر دون لجوء إلى ما أوله به الراوي[181]، وتوسط القاضي عبد الجبار فقال : «إن لم يكن لمذهب الراوي وتأويله وجه إلا أنه قد علم قصد النبي ﷺ إلى ذلك التأويل ضرورة وجب المصير إلى تأويله، وإن لم يعلم ذلك بل جوّز أن يكون صار إلى ذلك التأويل لنص أو قياس وجب النظر في ذلك الوجه. فإن اقتضى ذلك ما ذهب إليه الراوي وجب المصير إليه»[182].

وإن كان الخبر مجملا وحمله الراوي على أحد محمليه فالحنفية لا يقبلون حمله على ما أوله به الراوي لعدم وجود المرجح، ولكون ما تركه من أحد الاحتمالين

---

171) انظر تفصيل هذا في فتاوى ابن تيمية : 20، 303 ـ 310.
172) ط مع تنوير الحوالك : 1، 49، ابن الجارود : 17.
173) ط مع تنوير الحوالك : 1، 74.
174) ط مع تنوير الحوالك : 1، 74.
175) التقرير والتحبير : 2، 295.
176) التقرير والتحبير : 2 ـ 296.
177) السرخسي، أصول : 1، 368.
178) الآمدي : 2، 125.
179) الشوكاني، ارشاد الفحول : 60.
180) القرافي : التنقيح : 371.
181) التقرير والتحبير : 2 ـ 265، الشوكاني، الارشاد : 59؛ القرافي، التنقيح : 371.
182) أبو الحسن البصري، المعتمد : 2، 670.

ليس بيقين خلاف ما يقتضيه النص. ولذا وجب المصير عندهم إلى النص فهو وحده الحجة.

وذهب الجمهور إلى اعتماد مذهب الراوي في هذه الحالة لأن الحديث بإجماله لا حجّة فيه، ولأن الراوي أدرى بحال المتكلم، وفي تفسيره إن لم يعارض ذلك التفسير ظاهر شرعي ترجيح لأحد الاحتمالين، فيصار إلى العمل بمذهبه فيه[183].

هذا وقد ذكر أصحاب التصانيف أمثلة كثيرة للصور الخمس التي عرضناها أمسكنا عنها اختصارا.

الخاتمـــة :

حاولنا في هذه العجالة التي نرجو من الله أن تكون مجزية أن نلم بأطراف الموضوع المحدد بخبر الواحد وحجيته. وقد تركنا جوانب منه بحثها علماء الأصول من كل المذاهب اقتصارا لا غفلة ونسيانا. وكان هدفنا من وراء ما قدمناه أن نبين أهمية علم الأصول وعمقه ودقته، ومدى تأصيل الأقدمين لقضاياه وتفصيلهم لفروعه، مما يكشف عن أسرار تصرفات المجتهدين، ومكنتهم من أصول هذا الدين، وقدرتهم على استنباط الأحكام الفقهية من أدلتها التفصيلية على الوجه الذي يضع الحق في نصابه، وتحقق به مقاصد الشرع، وتبرأ به الذمة في تبليغ أحكام الله للناس وتفصيلها وبيانها بما هدتنا إليه السنة الشريفة، وعمل به الأئمة الصالحون من رجال السلف.

وقد اقتضى منا النظر أن نعرف تعريفا لغويا واصطلاحيا بالحديث والأثر والسنة والخبر متعرضين بعد ذلك إلى أقسام الحديث وأنواع الخبر.

وكان لزاما علينا أن نذكر بشرف السنة ومكانتها في الرعيل الأول، ثم بموقف الجاحدين لها والمتوقفين بشأنها، متتبعين ذلك وكاشفين عن مزاعم الطاعنين فيها في مختلف الأعصر في الزمن المتقدم والحاضر.

وبعد التأكيد على كونها الأصل التشريعي الثاني لهذا الدين، وأنها البيان للقرآن : تفصل مجمله، وتخصص عمومه، وتقيد مطلقه، وإنها الحكمة التي وجه بها رسول الله ﷺ الخلق وهداهم لاكتساب علم اليقين والاستقامة على أمر هذا الدين، بيّنا درجات الأخبار، وفرقنا بين المتواتر والمشهور والمستفيض والآحاد منها، وذكرنا أنها في جملتها تفيد العلم على وجه من الوجوه إلا عند بعض الفرق الضالة من أهل الأهواء والبدع.

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يكون القول محصوراً في خبر الواحد، تعريفاً بحقيقته وبياناً لأقسامه من مسند ومرسل وصحيح وحسن وضعيف، لنعلم تردده واختلاف درجة مفاده عند الأصوليين من الجمهور وأهل الظاهر والسلف والمحدثين، فنتبين تفاوت دلالته وإفادته العلم بين الاحتمال والظن الغالب والطمأنينة والعلم النظري الاستدلالي والعلم اليقيني أو الضروري.

وبالمقارنة بين المذاهب والآراء في ذلك انتهينا إلى ما نبه إليه عامة الباحثين من شروط لابد من توفرها في المخبر، ومن قرائن تصاحب الخبر تكون في المخبر عنه والمخبر والمخبر، فتزيد الدليل من الحديث صدقا وقوة مع الصحة والسلامة من المعارض الشرعي.

ومع انتهائنا إلى القول بالعمل بأخبار الآحاد، في مختلف الصور الموثوق بها والدرجات، على وجه الجواز أو الوجوب، واعتبارنا اياها حجّة قائمة في الشريعة الإسلامية في العقيدة والأحكام جميعا، وقفنا متأملين بعض حالات تدعو الحيطة ومصلحة الناس إلى دراستها وتفصيل القول فيها لنتبين أنظار العلماء السابقين زمانا وإحسانا في إعمال أخبار الآحاد في الفتوى والشهادة والأمور الدنيوية، وفي الحدود، وفيما تعم به البلوى، وعند تعارض تلك الأخبار مع عمل أهل المدينة، أو مع عمل الراوي للخبر.

وإنا لنأمل أن يكون هذا الاسهام المتواضع في خدمة أصول الشريعة الإسلامية وأصول الفقه لوجهه تعالى يزيدنا إيمانا وإيقانا، ويمكن لنا ديننا الذي ارتضى لنا. والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

183) انظر ابن الملك. المنار : 662 ـ 663؛ القرافي : 371.

مخطوطات السيرة النبوية والتراجم وملحقاتها بالخزانة العامة

حرف "ك"

إعداد : الأستاذ محمد المنوني

السيرة النبوية

(77 ك) لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري المتوفي عام 213 هـ/828م.

مبتورة الأول وتبتدئ عند حلف الفضول.

بها 378 ص، مسطرة 33 مقياس 175/255.

خطان مشرقيان مليحان، كتب ثانيهما على يد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، ثم الأنصارى الذي كتب بخطه ـ أخيرا ـ سماعين اثنين للكتاب على أبي البركات عبد القوى بن عبد العزيز بن الحسين السعدي، في عامي 660/619 هـ.

ورد ذكرها في معجم سركيس ص 277. وتوجد ترجمة المؤلف ومراجعها في الأعلام للزركلي ج 4 ص 314.

السيرة النبوية

(103 ك) لأبي محمد عبد الملك بن هشام.

الموجود منها النصف الأول في مجلدة مبتورة الأول وتنتهي عند غزوة بني سليم.

بها 132 ورقة، مسطرة 29، مقياس 190/260.

خط شرقي مدموج حسن ملون خال من اسم الناسخ.

وقع الفراغ من انتساخه نهار الأربعاء 30...؟

الشمائل المحمدية

(199 ك) لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة (السلمي البوغي) الترمذي، المتوفى عام 279 هـ/892م.

أولها بعد السند : حدثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد.

بها 117 ورقة، مسطرة 8، مقياس 180/225.

خط مغربي مليح ملون مجدول خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

أوردها سركيس في معجمه/632، 633.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى

(66 ك) لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المتوفي عام 544 هـ/1149م.

أوله الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى...

نسخة تامة في عشر أجزاء :

الأول : به ورقات 40

الثاني : به ورقات 47

الثالث : به ورقات 48
الرابع : به ورقات 38
الخامس : به ورقات 43
السادس : به ورقات 55
السابع : به ورقات 50
الثامن : به ورقات 49
التاسع : به ورقات 46
العاشر : به ورقات 43
مسطرة 16، مقياس 140/180.
خط مغربي لا بأس به واضح ملون مجدول، مع اختلاف في الخط بين الجزء الأول وباقي الأجزاء.
وقع الفراغ من كتابة الجزء الأخير في شوال عام 1299 هـ.
على يد محمد بن إبراهيم «السباعي» أصلا المراكشي دارا.
ورد ذكره في معجم سركيس ص 1397، وتوجد ترجمة المؤلف وبعض مراجعها في الأعلام.. للزركلي ج 5 ص 283/282.
وانظر عن ترجمة الناسخ «معجم الشيوخ».. للفاسي ج 1 ص 55 ـ 66.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى

(96 ك) للقاضي عياض المتقدم.
نسخة تامة في مجلد.
أولها : الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى...
ص 403، مسطرة 23، خط شرقي واضح مليح ملون.
وقع الفراغ من انتساخها يوم الجمعة 20 شوال عام 877 هـ على يد إبراهيم بن أحمد بن عمر بن يونس النابلسي الشافعي.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى

(144 ك) لأبي الفضل عياض.
في مجلد يحتوى على 463 ص.
مسطرة 21، مقياس 315/310.
خط مغربي متنوع حسن ملون به بتعاليق وخال من اسم الناسخ.
وقع الفراغ من الانتساخ عشية الأربعاء 22 قعدة عام 1126 هـ.
بها سماع على العالمين : أبي العباس أحمد بن عاشر الحافي السلوي، وأبي العباس أحمد بن عبد الله الغربي الرباطي.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى

(121 ك) لأبي الفضل عياض.
نسخة، غير تامة.
به 124 ورقة، مسطرة 21، مقياس 185/250.
خط أندلسي قريب من المبسوط، حسن خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.
عليه ملكية محمد بن أحمد بن مرزوق الدرعي.

نور العيون في تلخيص سيرة الأمين المامون

(120 ك) لأبي الفتح محمد (بن محمد بن محمد) بن أحمد ابن سيد الناس اليعمري (الربعي الإشبيلي الأصل، ثم المصري) المتوفي عام 734 هـ/1334م.
لخص فيه كتابه : «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير».
وأوله : بعد حمد الله فاتح أبواب الندى ومانح أثواب الهدى...
في محفظة من ورقة «1 أ» إلى ورقة 2 ب).
مسطرة 50، مقياس 235/345.
خط مغربي مدموج حسن ملون، خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.
ورد ذكره في كشف الظنون ج 2 ص 143.
وتوجد ترجمة مؤلفه ومراجعها في الأعلام.. للزركلي ج 7 ص 263.

الإشارة إلى سيرة المصطفى ﷺ وتاريخ من بعده من الخلفاء

($\frac{74}{7}$ ك) لعلاء الدين مغلطاي بن قليج (بن عبد الله البكجرى البصري الحنفي) المتوفي عام 762 هـ/1361م.

لخصه من كتابه : «الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم» إلا تاريخ الخلفاء فمن غيره.

وأوله :

بعد حمد الله الواحد القهار...

في محفظة من ص 152 إلى ص 259.

مسطرة 24، مقياس 155/210.

خط مغربي لا بأس به واضح ملون خال من تاريخ التأليف. ومذيل بأوراق متنوعة ومختلفة.

وقع الفراغ من انتساخه يوم السبت 20 شوال عام 1152 هـ/على يد محمد بن المبارك بن أحمد بن إبراهيم الولتي. كتبه برسم أبي العباس أحمد بن محمد من سلالة الشيخ عبد الله بن المبارك الأقاوى.

ورد ذكره في معجم سركيس عمود 1769، وتوجد ترجمة المؤلف ومراجعها في الأعلام ج 8 ص 196 - 197.

الدّرة السنية في نظم السيرة النبوية

($\frac{120}{2}$ ك) لأبي الفضل عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة 806 هـ.

أرجوزة ألفية في السيرة النبوية غير تامة الانتساخ، وأولها.

«يقول راجي من إليه المهرب.

عبد الرحيم بن الحسين المذنب».

في محفظة من ورقة 2 ب إلى ورقة 6 ب.

خط مغربي مدموج حسن ملون، خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

طبعت بالرباط.

ورد ذكرها عند الزركلي في الأعلام ج 4 ص 119.

السراج الوهاج في حقائق المعراج

(110 ك) لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن أحمد الشافعي النعماني (المصري) المتوفى عام 898 هـ/1493م.

مبتور الأخير.

وأوله : الحمد لله الذي أطلع من سماء قطب الحبيب بروق المعارف.

به 280 ص، مسطرة 25، مقياس 185/265.

خط شرقي حسن ملون مهمش بخط المؤلف حسب ص 31 وغيرها.

يروي عن الحافظ ابن حجر العسقلاني في أسانيده لبعض الكتب، انظر ص 29 كما يروي عن غيره.

ترجمته في الضوء اللامع ج 1 ص 78 - 80

أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب

($\frac{80}{9}$ ك) لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هـ.

أوله : الحمد لله الذي أتقن بحكمته...

في مجموع من ص 506 إلى 536.

مسطرة 24، مقياس 180/220.

خط مغربي متوسط ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

ورد ذكره في فهرس مخطوطات برلين ج 2 رقم 2577.

مسالك الحنفاقي والدي المصطفى

($\frac{150}{3}$ ك) لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هـ.

أوله : مسألة : الحكم في أبوي النبي ﷺ...

في مجموع من ص 131، إلى ص 159، مسطرة مختلفة، مقياس 150/200.

خط مغربي يميل للمجوهر، طويل الألفات واللامات، مليح ملون بالحمرة، خال من تاريخ التأليف والنسخ.
(على يد كاتبه أبي زيد عبد الرحمن بن الحافظ أبي العلاء إدريس العراقي).
أورده سركيس في معجمه ع 1084.

نشر العلمين السيفيين في إحياء الأبوين الشريفين

($\frac{150}{4}$ ك) لجلال الدين السيوطي المتقدم.
أوله : ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة...
في مجموع من ص 160 إلى ص 167، مسطرة 24، مقياس 150/200.
خط مغربي يميل للمجوهر طويل الألفات واللامات مليح ملون بالحمرة، خال من تاريخ التأليف والنسخ.
(على يد كاتبه أبي زيد عبد الرحمن بن الحافظ أبي العلاء إدريس العراقي).
أورده سركيس في معجمه ع 1085.

خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى

(27 ك) لنور الدين (علي بن عبد الله (بن أحمد) الحسني (الشافعي) السمهودي، المتوفي عام 911 هـ/1506م.
أوله : الحمد لله الذي شرف طابة، وشوق القلوب لسماع أخبارها المستطابة...
بها 558 ص، مسطرة 21، مقياس 170/220.
خط مغربي لا بأس به سيع به تلوين.
وقع الفراغ من كتابته في 6 جمادى الأولى عام 1131 هـ على يد الحسن بن محمد البكرى السيفي.
أورده سركيس في معجمه 1053.
وتوجد ترجمة المؤلف ومراجعها في الأعلام للزركلي ج 5 ص 122 ـ 123.

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية

(187 ك) للشهاب أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني (المصري).
المتوفي عام 923 هـ/1517 هـ.
أولها : الحمد لله الذي أطلع في سماء الأزل...
بها 197 ورقة، مسطرة مختلفة، مقياس 170/270.
خط شرقي حسن ملون مصحح عدا تسع ورقات مكتوبة بخط مغربي مليح ملون، لبتر وقع أثناء المخطوط.
وقع الفراغ من انتساخها ظهر الأربعاء 26 جمادى الأولى عام 989.
أوردها سركيس في معجمه ع 1512.

المواهب اللدنية بالمنح المحمدية

($\frac{85}{II}$ ك) للشهاب أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني المتقدم.
الموجود : النصف الثاني منها في مجلد يبتدئ بالمقصد الخامس في تخصيصه عليه الصلاة والسلام بخصائص المعراج...
به 394 ص، مسطرة 37، مقياس 180/275.
خط شرقي حسن واضح ملون مقابل.
وقع الفراغ من كتابته بعد ظهر يوم الاثنين 11 صفر الخير عام 910 هـ، على يد إسماعيل بن علي بن محمد بن يحيى الغريتي الصناديدي الشافعي.
ورد ذكرها عند سركيس في معجمه ع 1512، وتوجد ترجمة المؤلف ومراجعها في الأعلام للزركلي ج 1 ص 221.

رفع الخصائص عن طلاب الخصائص

(8 ك) مؤلفه محمد علي (بن محمد) بن علان (بن ابراهيم) البكرى الصديقي القرشي المكي الشافعي المتوفي عام 1057 هـ/1617م.

وهو شرح لمنظومته المسماة بفتح القريب المجيب في نظم خصائص الحبيب ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ التي ضمنها النموذج اللبيب في خصائص الحبيب لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي.

أول النظم :

الحمد لله الذي قد شرفا

على جميع الخلق طه المصطفى

وأول الشرح : الحمد لله الذي شرف نبيه على سائر من خلق.

به 330 ص، مسطرة 23، مقياس 155/205.

خط شرقي حسن ملون مدموج، خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

راجع ترجمة المؤلف في «معجم المؤلفين» تأليف عمر رضا كحالة ج 11 ص 54 ـ 55.

مغاني الوفا بمعاني الاكتفا

($\frac{162}{1}$ ك) لمحمدبن عبدالسلام بن حمدون البناني الفاسي المتوفي عام 1163 هـ/1750م.

الموجود منه قطعة من السفر الأول مبتورة الآخر.

وأوله :

الحمد لله الذي اختار محمدا ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين.

به 90 ص، مسطرة مختلفة، مقياس 215/305.

خط مغربي حسن ملون مصحح خال من تاريخ النسخ والتأليف واسم الناسخ.

ورد ذكره في ترجمة المؤلف من سلوة الأنفاس ج 1 ص 146 ـ 148.

جمع ما انتشر من أخبار خير البشر

($\frac{43}{1}$ ك) لأبي عبد الله محمد بن إدريس (بن أحمد المدعو حمدون) العراقي الحسيني الفاسي المتوفي عام 1142 هـ.

شرح فيه أرجوزة وجيزة في السيرة النبوية لشيخه ابن الطيب القادرى الحسني الفاسي المتوفي عام 1110 هـ/1698م، ويقف الموجود منه عند شرح البيت الأول.

أول الشرح : الحمد لله رب العلمين بجميع محامده...

ومطلع الأرجوزة :

الحمد لله وصلى الله

على النبي وءال قرباه

يقع في محفظة من «ص 2» إلى «ص 18».

مسطرة 20، مقياس 160/215.

خط مغربي حسن ملون خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

ورد ذكره في فهرس الفهارس ج 2 ص 205.

راجع ترجمة المؤلف في سلوة الأنفاس ج 2 ص 28 ـ 29.

البشرى، بنيل السعادة الكبرى على أم القرى

($\frac{38}{5}$ ك) اسم شرح على القصيدة الهمزية للبوصيرى لمؤلف لم يعرف اسمه.

تقف كتابته أوائل شرح بيت : رامقا طرفه...

أوله : الحمد لله الذي أطلع في سماء الأزل...

في مجموع من ص 212 إلى ص 297، مسطرة مختلفة مقياس 190/227.

خط مغربي وسط خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

الشمائل المحمدية

($\frac{43}{11}$ ك) لمؤلف مجهول الاسم، وتقف آخر باب في أسماء بعض ما كان يملك رسول الله ﷺ.

أولها : الحمد لله الذي جعل شمائل النبي ﷺ قد كسته جمالها.

في محفظـــة من ص 418 إلى ص 485، مسطرة مختلفة، مقياس 155/215.
خط مغربي لا بأس به ملون، مهمش بإلحاقات بعضها بخط مغاير، مما يدل على أن هذه نسخة كتبت تحت نظر المؤلف.

التراجم وملحقاتها
التشوف إلى رجال التصـوف
مذيل بمناقب أبي العباس السبتي

(56 ك) لأبي الحجاج يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي المعروف بـابن الـزيــات، المتـوفي عــام 627 هـ/1230م.
أوله : «الحمد لله رب العالمين... أما بعد : فإنه لم يخـل زمـــان...» بــه 443 ص، مسطرة 20، مقياس 200/262.
خـط مغربي يميـل لـلأندلسي المبسـوط، جميل ملون مزخرف خال من اسم الناسخ.
وقع الفراغ من تـأليفـه يوم السبت 20 ربيع الأول عام 618 هـ بالنسبة لكتاب التشوف نفسه دون الذيل.
وتم انتساخ الجميع صبيحة السبت 20 حجة عام 1019 هـ برسم الفقيه أحمد المدعو حميدة بن علي بن أحمد... القشي.
وقع نشره في مطبعة أكدال بالرباط عام 1958م.
وتـوجـد ترجمـة المؤلف ومراجعهـا في الأعلام «للزركلي ج 9 ص 339 ـ 340.

إجــــازة

($\frac{79}{22}$ ك) لمحيي الــدين محمـــد بن علي بن محمـــد ابن عربي الحــاتمي، الطــائى الإشبيلي نـزيـل دمشـق، والمتوفي ـ بها ـ عام 638 هـ/1240م.
أجاز بها الملك المظفر غازى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وأولاده ولمن أدرك حياته.
أولها : «الحمد لله رب العـالمين... أقـول وأنـا محمد بن علي...».
في مجمـوع من ص 153 إلى ص 161، مسطرة مختلفة مقياس 165/225.
خط شرقي حسن واضح.
وقع الفراغ من النسخ في 9 رجب عام 1302 هـ على يد محمد بهاء الدين.
وردت الاجازة في الرحلة العياشيـة ج 1 ص 344 مع بعض اختصار من آخرهـا، ثم نشرت في مجلة الأندلس بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن بـدوي عام 1956م.
وانظر عن ترجمة الملك المظفر ومراجعها : الأعلام للزركلي ج 5 ص 300.

روض الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر

(72 ك) نسب في أوله لأبي عبد الله محمد بن (محمود) بن الحسن بن (هبة الله) بن محاسن (ابن النجّار) البغدادي المتوفي عام 643 هـ/1245م.
الموجود منه النصف الثاني، وهو مبتور الأول.
ويبتدئ هكذا : جثتها ناحية ورأسها ناحيـة وترك الشيخ وبكى...
به 198 ص، مسطرة 15، مقياس 140/200.
خط مغربي حسن واضح خال من تاريخ التـأليف واسم الناسخ.
وقع الفراغ من انتسـاخـه بتاريخ الخميس 5 ربيع الأول النبوي عام 868 هـ.
راجع عن ترجمة المؤلف الأعلام للزركلي 7 ص 307 ـ 308.

الطبقات الكبـــرى

(149 ك) لمحمد بن ابراهيم المناوي الشافعي المتوفى عام 765 هـ/1364م.
أولهـا : الحمد لله الـذي أظهر من سره جميع الموجودات...

بها 930 ص، مسطرة مختلفة، مقياس 220/320.
خط شرقي نسخي لا بأس به ملون مجدول، خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.
للمؤلف ترجمة عند السيوطي في حسن المحاضرة، «المطبعة الشرقية بمصر» - ج 1 ص 179.

المشرع المهيافي ضبط مشكل رجال الموطأ

($\frac{97}{1}$ ك) لأبي عبد الله محمد بن الحسن بن مخلوف (الراشيدي شهر بأبركان) المتوفي عام 868 هـ/1463م.
أوله بعد الحمدلة والصلاة النبوية : «أما بعد فإن الله عز وجل من علينا بمعرفة العلم...».
في محفظة ص 1 إلى ص 38، مسطرة 21، مقياس 220/290.
خط جزائري لا بأس به مدموج يتخلله الإلحاق، وخال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ الذي قد يكون هو المؤلف.
لا ذكر له في ترجمة المؤلف في نيل الابتهاج ص 316.

الزند السواري، في ضبط رجال البخارى

($\frac{97}{2}$ ك) لمحمد أبركان المتقدم.

أوله : الحمد لله الذي هدانا للإسلام...
في محفظة من ص 39 إلى ص 108.
مسطرة 21، مقياس 220/290.
خط جزائري لا بأس به مدموج يتخلله الإلحاق، وخال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ الذي قد يكون هو المؤلف.

فتح المبهم في ضبط ما أشكل من رجال مسلم

($\frac{97}{3}$ ك) لمحمد أبركان المتقدم.

أوله : الحمد لله شكرا على نواله.
في محفظة من ص 109. إلى ص 253.
مسطرة 21، مقياس 220/290.
خط جزائري لا بأس به مدموج يتخلله الإلحاق، وخال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ الذي قد يكون هو المؤلف.

نزهة الجلسا في أشعار النسا

($\frac{9}{1}$ ك) لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي عام 911 هـ.
أوله : هذا جزء لطيف في النساء الشاعرات...
في مجموع من ص 1 إلى ص 27.
مسطرة 23، مقياس 160/205.
خط شرقي حسن ملون واضح خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.
ورد ذكره في «كشف الظنون» ج 2 ص 503.

المستظرف في أخبار الجواري

($\frac{9}{2}$ ك) لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتقدم.
أوله : هذا جزء سميته المستظرف في أخبار الجواري.
في مجموع من ص 27. إلى ص 57، مسطرة 23، مقياس 160/205.
خط شرقي حسن ملون واضح.

(تحفة الإخوان. ومواهب الامتنان في مناقب سيدى رضوان)

(154 ك) لأبي العباس أحمد بن موسى المرابي الأندلسي) المتوفي عام 1034 هـ/1624م.

ترجم فيه لشيخه الإمام الجليل أبي النعيم رضوان ابن عبد الله الجنوي ثم الفاسي. المتوفي عام 991 هـ.

مبتور الطرفين، ويبتدى المقرؤ من الموجود منه هكذا أثناء مقدمة الكتاب :

«اعلم أنه لما قبض رسول الله ﷺ بكت الأرض...

به 468 ص، مسطرة 18، مقياس 160/205.

خط مغربي يميل للمبسوط مليح ملون مصحح، وخال من تاريخ النسخ واسم الناسخ، وفي أوراقها خروم.

ورد ذكرها في ترجمة الشيخ رضوان من سلوة الأنفاس ج 2 ص 257 ـ 262 حيث توجد ترجمة المرابي.

وصلة الزلفى تقربا بآل المصطفى

($\frac{186}{2}$ ك) لأبي العباس أحمد بن علي بن محمد السوسي البوسعيدى (الصنهاجي الهشتوكي) نزيل فاس ودفينها والمتوفي عام 1046 هـ.

ألفه إجابة لسؤال رفعه إليه أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن محمد دعي ابن رحمون العلمي الحسيني.

أول السؤال : كنت كثيرا ما استشكل ما سارت به..

وأول الكتاب : «الحمد لله واستغفر الله...».

في مجموع من ص 159 إلى ص 383.

مسطرة 18، مقياس 170/220.

خط مغربي مجوهر حسن ملون مجدول خال من تاريخ التأليف النسخ واسم الناسخ ومذيل بتقريظ من محمد العربي (الفاسي).

ورد ذكره في ترجمة المؤلف من فهرس الفهارس ج 1 ص 179.

درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان

($\frac{43}{4}$ ك) لأبي عبد الله محمد (بن محمد) بن عبد الرحمن البكرى الدلائي المتوفي عام 1141 هـ/1728م.

أرجوزة جمع فيها كثيرا من مشاهير الأشراف بالمغرب وغيره على وجه الاختصار.

ومطلعها :

حمدا لمن فضل أشراف الورى
واختارهم أماما والناس ورا

في محفظة من ص 224 إلى ص 240، مسطرة 20، مقياس 160/215.

خط مغربي مستحسن ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

ورد ذكرها في ترجمة المؤلف من نشر المثاني ج 2 ص 137.

فهرسة

($\frac{16}{3}$ ك) لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام البناني.

مبتورة الأول بنحو ورقة حيث ضاع اسم المجاز بها.

وتبتدئ هكذا : به ومتداول وكل ما أخذته عن أشياخي.

في مجموع من ص 102 إلى ص 135، مسطرة 22، مقياس 155/205.

خط مغربي مليح مدموج يتخلله الضرب والإلحاق حيث إنه خط المؤلف.

إجازة

($\frac{16}{4}$ ك) وهي صادرة عن أبي عبد الله محمد بن عبد السلام البناني.

وقد أجاز بها أبا عبد الله محمد بن محمد حجاج المالكي المغربي ثم الرشيدى لما اجتمع به في ثغر رشيد بالقطر المصري.

أولهـا : نحمـدك يـا من خص هـذه الأمـة المحمدية...
في مجموع من ص 136 إلى ص 142.
مسطرة مختلفة، مقياس 155/205.
خط مغربي حسن واضح.
حررت هذه الإجازة بتاريخ أواسط جمادى الأولى عام 1143 هـ.

أسانيـــد

($\frac{16}{7}$ ك) (لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن حمدون البناني.
وضعها لما حل لمكة المكرمة عام 1141 هـ، وهي غير تامة وتقف على أسانيد السير.
وأولها : «الحمد لله رافع السند، ودافع شبه الضلال عمن إلى جنابه الكريم استند...».
في مجموع من ص 199 إلى ص 206.
مسطرة مختلفة، مقياس 155/205.
خـط مغربي مليح مـدموج يتخللـه الضرب والإلحاق، حيث إنه خط المؤلف.
لا ذكر لهذه الأسـانيد في دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج 2، ص 317 ـ 318، ولا توجد أيضا في ترجمته في :
«سلوة الأنفاس» ج 1 ص 146 ـ 148.
«فهرس الفهارس» ج 1 ص 160 ـ 162.

الإتحاف بحب الأشراف

(17 ك) تأليف عبد الله بن محمد عامر الشبراوي الشافعي (القاهري) المتوفي عام 1171 هـ/1758م.
أوله : «الحمد لله الذي أوجب حب محمد ﷺ».
به 102 ص، مسطرة 23، مقياس 145/220.
خـط شرقي مليح ملون مجدول خـال من تـاريخ النسخ واسم الناسخ.
وقع الفراغ من تـأليفـه أواخر ذي الحجـة عـام 1154 هـ.

أورده سركيس في معجمـه ع 1098، وتـوجـد ترجمة المؤلف في الأعلام للزركلي 274/4.

الكواكب الدرية بشرح نظم أسماء السادة الصحابة البدرية

(41 ك) ليـوسف بن علي المرحـومي الشـافعي الأشعرى، كان بقيد الحياة عام 1176 هـ/1762 ـ 63.
شرح فيه نظم أسماء أهل بدر لشمس الدين ابن عبد الله المتوفي عام 1210 هـ/1795م.
أول الشرح : الحمد لخالق البرية.
ومطلع النظم :
يقول شمس الدين ذو الأوزار.
ومرتجـي العفـو مـن الغفـــار
في محفظة من ورقة 1 ب إلى ورقة 73 أ.
مسطرة 25، مقياس 160/215.
خط شرقي نسخي حسن ملون.
وقع الفراغ من تـأليفـه في 18 صفر الخير عـام 1176 هـ.
ومن نسخه في 22 شعبان من نفس العام على يد مؤلفه.
راجع ترجمة صاحب النظم المشروح في الأعلام ج 3 ص 256.

خرق العوائد واستجلاب الفوائد

(52 ك) لأبي عبد الله محمد التـاودى بن محمـد ـ فتحـا ـ الـقاط الفاسي.
كان بقيد الحياة أوائل عام 1288 هـ/1871م.
أوله : الحمد لله الولي الحميد...
به 438 ص، مسطرة 21، مقياس 180/220.
خط مغربي جميل ملون.
وقع الفراغ من تـأليف ضحوة يـوم الخميس 20 صفر عام 1288 هـ.
ورد ذكره في دليـل مـؤرخ المغرب الأقصى رقم 804.

تاج الحسن الباهر، في أهل النسب الطاهر

($\frac{38}{6}$ ك) لأبي حامد العربي بن محمد بن قاسم (العلوي المدغرى الحسني) المتوفي عام 1309 هـ/1891م.

أوله : الحمد لله الذي تفرد بجميع أوصاف الكمال...

في مجموع من ص 301 إلى ص 370.

مسطرة مختلفة، مقياس 190/227.

خط مغربي متوسط خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

وقع الفراغ من تأليفه ضحوة يوم الإثنين 10 ربيع الأول عام 1291 هـ.

ورد ذكره في دليل مؤرخ المغرب الأقصى رقم 219.

تفريخ الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر

(18 ك) تأليف أبي السعود عبد القادر بن محيي الدين (الصديقي) الإربلي المتوفي عام 1315 هـ/1897م.

أوله : الحمد لله الذي رفع أهل القربة..

به 146 ص عدا الفهارس، مسطرة 16، مقياس 120/170.

خط مغربي جميل ملون مجدول، خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

أورده سركيس في معجمه ع 420، وتوجد ترجمة المؤلف في «معجم المؤلفين» ج 5، ص 304.

الدر السني في مناقب الشيخ عبد الغني

(55 ك) مؤلفه غير مذكور، وكان بقيد الحياة عام 1352 هـ/ به 292 ص.

مسطرة 16، مقياس 180/235.

خط مغربي مراكشي مبسوط وسط ملون مجدول، خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

وقع الفراغ من تأليفه في 12 محرم عام 1352 هـ.

غاية الأستاذ في أغلاط امداد ذوي الاستعداد

($\frac{68}{1}$ ك) لأبي عبد الله محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني المتوفي عام 1383 هـ/1963م.

نقد فيه الفهرسة المسماة «إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد» لأبي محمد عبد القادر بن أحمد بن أبي جيدة الكوهن الفاسي، المتوفي عام 1253 هـ.

أوله : من خادم نعال المحدثين...

في مجموع من ص 4 إلى ص 29، ويتخلله بتر بين ص 18، 19.

مسطرة 25، مقياس 170/230.

خط مغربي متوسط خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ الذي هو القاضي المرحوم محمد بن أحمد العلوي الإسماعيلي.

وقع الفراغ من تأليفه بعد زوال الخميس 16 جمادى الأولى عام 1324 هـ.

ورد ذكره في فهرس الفهارس أثناء ترجمة المؤلف ج 1 ص 1 ـ 22 مع ص 371.

إجـــازة

($\frac{68}{2}$ ك) لأبي عبد الله محمد عبد الحي الكتاني المتقدم، أجاز بها أبا العباس أحمد بن محمد الشرادي.

أولها : نص إجارة من الشيخ الإمام... بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد طب القلوب...

في مجموع من ص 30 إلى ص 65.

مسطرة 23، مقياس 170/230.

خط مغربي متوسط خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

وقع الفراغ من الإجازة يوم الأربعاء 15 جمادى الأولى عام 1323 هـ.

إجــــــازة

($\frac{68}{3}$ ك) للكتاني المتقدم، أجاز بها محمد فتح الله بن أبي بكر البناني شيخ الطريقة الدرقاوية بالعدوتين وغيرهما، المتوفي عام 1353 هـ/1934م.

مبتورة الآخر.

وأولها : «الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على خير عبده...».

في مجموع من ص 36 إلى ص 46.

مسطرة 18، مقياس 170/230.

خط مغربي متوسط يتخلله إلحاقات وبعض التشطيبات.

فهرســــــة

($\frac{68}{4}$ ك) لأبي عبد الله محمد عبد الحي الكتاني المتقدم.

ألفها باسم محمد الصادق بن محمد الطاهر بن محمود النيفر التونسي المالكي، وهي غير تامة.

وأولها : «الحمد لله الذي قسم لأهل الحديث من الخير أوفر نصيب وزاد...

في مجموع من ص 48 إلى ص 144.

مسطرة 19، مقياس 170/230.

خط مغربي لا بأس به ملون متنوع.

ما علق بالبال أيام الاعتقال

($\frac{68}{5}$ ك) لأبي عبد الله محمد عبد الحي الكتاني

وهو مجموع إملاءات في أسانيد كتب الدين أملاها على ابن شقيقه أبي الطيب محمد المهدى بن الشيخ أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني الحسني.

أوله : «الحمد لله الذي جعل العلماء ورثة الأنبياء...»

في مجموع من ص 145 إلى ص 372.

مسطرة 20، مقياس 170/230.

خط مغربي حسن واضح ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

المباحث الحسان المرفوعة
إلى قاضي تلمسان

($\frac{68}{6}$ ك) لأبي عبد الله محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني.

وهي مباحثات مع قاضي تلمسان شعيب بن علي الجليلي.

أولها : من أعظم ما حصل لي به الغبطة...

في مجموع من ص 373 إلى ص 395، مسطرة 22، مقياس 170/230 خط مغربي متوسط ملون.

النفحات اليمانية الرحمانية
في صفات الذات السليمانية

($\frac{43}{2}$ ك) لأبي حفص عمر الحارثي البكري اليافي.

في مدح السلطان العثماني سليمان

وأوله : الحمد لله الذي وهب لسليمن ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.

في محفظة من ص 19 إلى ص 33، مسطرة 17، مقياس 160/215.

خط شرقي نسخي متوسط به تلوين.

عقد اللآلئ المستضيئة المعدات
لنفي ظلام التلبيس، على المنتسبين
للرسول خصوصا منهم ذرية
إدريس بن إدريس

($\frac{43}{5}$ ك) نسب في أوله لأبي زيد عبد الرحمن السيوطي الشافعي المتقدم.

وهذا بعيد، ونسب في بعض النسخ لعبد الرحمن السيوطي المكناسي وهذا غير معروف.

أوله : الحمد لله الذي خلق الخلق.

في محفظة من ص 24 إلى ص 274.

مسطرة 22، مقياس 160/215.

خط مغربي متوسط به تلوين خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.

انظر عن السيوطي المكناسي معجم الشوخ ج 2 ص 136.

التاريخ العـــام

حقيبة الأسرار وجهينة الأخبار لمعرفة الأخبار والأســـرار

(196 ك) لبدر الدين حسن بن علي بن حسن (العاملي) الكويتي الشبير بالحانيني، المتوفي عام 1035 هـ/1626م.

أوله : حمدا ساميا ناميا لمن نصب أعلام الهداية.

به 242 ورقة، مسطرة 17، مقياس 150/205.

خط شرقي مليح ملون.

وقع الفراغ من تأليفه ظهر يوم الثلاثاء 22 جمادى الأولى عام 1020 هـ ومن انتساخه أواسط جمادى الأولى عام 1021 هـ على يد كاتبه أحمد الخالدى الصفدى.

ورد ذكره في ترجمة مؤلفه من الأعلام 222/2.



إن الله الذي جمع قلوبنا على الألفة والوئام ووحد جهودنا بالاتفاق والانسجام، وقاد خطانا في مختلف الظروف والأحوال من انتصار إلى انتصار، وفتح إلى فتح، وتقدم إلى تقدم، لقادر على أن يهيىء لنا غداً من أسباب الفوز بمكاسب جديدة ما يقوم دليلا على أننا وإياك كدأبنا بالأمس، وكدأبنا اليوم، سائرون إن شاء الله متآزرين متضافرين في طريق لا يتشعب ولا يتعدد، دائبون بعون الله على العمل الذي يكفل للوطن إشراقا بعد إشراق، ووسامة بعد وسامة، وبهاء بعد بهاء، وعزاً بعد عز .

من خطاب عيد العرش سنة 1976

رسائل جامعية :

"المصنفات المغربية في السيرة النبوية"

للدكتور محمد يسف

● نص العرض الذي قدم به الأستاذ محمد يسف أطروحته بدار الحديث الحسنية لنيل درجة دكتواره الدولة في موضوع : «المصنفات المغربية في السيرة النبوية» أمام لجنة تتكون من الأساتذة :

- الدكتورة عائشة عبد الرحمن (مشرفة ورئيسة)
- الشيخ محمد المكي الناصري
- الدكتور محمد فاروق النبهان
- الدكتور إبراهيم حركات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيء لنا من أمرنا رشدا﴾

أصحاب الفضيلة أساتذتي الأجلاء،

أعضاء هيئة المناقشة.

حضرات العلماء والأساتذة

زملائي وأصدقائي الطلبة.

أيها الملأ الكريم.

السلام عليكم ورحمة الله.

لعل من يمن الطالع - والأمة الإسلامية في آفاق الأرض، وفي الطول منها والعرض، تستشرف للاحتفاء بذكرى ميلاد نبي الإنسانية الأكرم، ورسول رب العالمين الأعظم - أن نستقبل هذه الذكرى المجيدة، ونحيي هذا الحدث الجليل، بمناقشة أطروحة في السيرة النبوية، طاعة ووسيلة تقربنا إلى الله زلفى.

☆ ☆ ☆

وبعد، فإذا كانت العلوم تشرف بشرف موضوعها، وتنال من عناية الدارسين، وإقبالهم عليها، بقدر ما تهدي إليه من خير، وتحققه من نفع، فإن علم السيرة بعد كتاب الله تعالى من أجل العلوم قدرا، وأرفعها شأنا، وفي فضل هذا العلم قال الإمام الزهري : «في علم السيرة والمغازي، خير الدنيا والآخرة».

وفي الاعتزاز به والحث على كسب مسائله أنشد من أنشد :

إذا مـــــا اعتـــــز ذو علم بعلم
فعلم السيرة أولى بـــــاعتـــــزاز
فكم عطر يفـــوح ولا كمســـك
وكم طير يطير ولا كبـــــاز

وكيف لا، ومدار موضوعه، ومجال مباحثه، ذات المصطفى ﷺ وتاريخ حياته، بكل ما فاضت به من معاني الخير والكمال، وفاحت به رياضها من أسرار العظمة والجلال، وأرثته الحياة من سخي الزاد وكريم العطاء، مما سيبقى مصدر إلهام للأجيال، على كر الليالي والأيام، وتعاقب السنين والأعوام.

ولعل القدوة أجل ما يثمره علم السيرة النبوية في قلوب الدارسين له، وهي من أسمى ما تتطلع إليه النفوس المؤمنة من غايات، لما يرتبط بها من نعم وآلاء، أهمها محبة الله لعبده، وتكفيره عنه ما تقدم من ذنبه.

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾.

والقدوة مطلب لا يتحقق بالتمني، ولكن باتخاذ الأسباب واصطناع الوسائل، والإخلاص في الطلب.

النتائج الظاهرة التي حققها الصالحون من سلف هذه الأمة، في صياغة أجيال، حملت بأريحية وشموخ أمانة العلم، ورسالة التمدن والحضارة، كانت بعض عطاء القدوة، والتماس معالمها، وستظل منارة هدي لمن شاء أن يتخذ إلى المجد والعلياء سبيلا.

☆ ☆ ☆

فيما تلمسناه من آثار المنهج السلفي في التربية والتعليم وجدنا أن علم السيرة النبوية، كانت له الصدارة في مناهج أوائلنا لا يقدمون عليه غير كتاب الله.

ورد في سياق حديث دار بين سليمان بن عبد الملك وقبيصة بن ذؤيب ـ وهو من أعلام التابعين ـ حول إجراء اتخذه عبد الملك ابن مروان وهو خليفة، يقضي بمنع كتاب في السيرة النبوية من الدخول إلى الشام. قال قبيصة كالمتعجب من إصرار عبد الملك على قراره : «لقد رأيتني، وأنا، وهو، يعني عبد الملك ـ وعدة من أبناء المهاجرين ما لنا علم غير ذلك، حتى أحكمناه ـ يعني علم السيرة ـ ثم نظرنا بعد في الحلال والحرام».

وعلى مدى ستة قرون من الريادة العلمية والتألق الفكري والمجد الحضاري، احتفظ علم السيرة بموقعه في صدارة المناهج التعليمية، لا يختلف في ذلك شرق عن غرب.

ابن المناصف، وهو من أعلام مخضرمي القرنين السادس والسابع يسعفنا بتقديم لقطة عن ملامح المنهج التعليمي بالغرب الإسلامي في عصره مبرزا موقع السيرة النبوية منه.

قال في ديباجة المَعْلَم الرابع من «معالم درته السنية»، وهو المَعْلَم الذي خصصه لعرض وقائع السيرة وأحداثها :

وإن أولى مـــــا تحلى المسلم
بعـــد كتـــاب اللـــه إذ يقـــوم
علم بـــأيـــام رســـول اللـــه
من لـــدن النشء إلى التنـــاهي
وحفـــظ مـــا يحـــق ألا يجهـــلا
من أمره وحـــالـــه مفصـــلا

☆ ☆ ☆

وفي رأي الكثيرين من خبراء التربية والتعليم المعاصرين أن السيرة النبوية، يوم تأخذ موقعها في مناهج المسلمين، ويوم ينطلقون في تصوراتهم من منطلق القدوة، يومئذ فقط يصح أن يقال عنهم، إنهم في حالة إقلاع حقيقي، إقلاع يخلف وراءه كل أشكال التخلف ومظاهره، وكل عوامل التناقض والتهافت، وسائر ضروب التعويق والإحباط :

﴿ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله، ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم، وعد الله، لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

☆ ☆ ☆

ولئن كانت هذه الدراسة، لا تقدم لنا عرضا للسيرة النبوية من منطلق الوقائع والأحداث والمواقف والمشاهد،

فلقد تناولتها من حيث تقديم تراثها المكتوب بالغرب الإسلامي، وصولا إلى إثبات أن هذه الديار لم يتخلق ركبها عن مسيرة العلم والمعرفة، بل ساير موكبها، وأسهم في إرساء قواعده المعروفة وإعلاء صرحها، وبخصوص علم السيرة النبوية، أكدت هذه الديار حضورها بما أسهمت به في إغناء تراثه، وتطوير مباحثه شكلا وجوهرا.

☆ ☆ ☆

بدأت صلتي العلمية بهذا الموضوع، يوم كنت أبحث ملف الرواية المغربية للسيرة النبوية، منذ عشر سنين مضت. تساءلت يومئذ؛ إن كان علماء قومي، قد قنعوا بنقل التراث المشرقي في السيرة، دون أن يتعلق طموحهم بما وراء الرواية والنقل من آفاق الدراية، أو أن كبرياءهم العلمي، أبى عليهم إلا أن يتجردوا لهذا العلم دراية كما حملوه رواية، شأنهم مع غيره من العلوم العربية والإسلامية ؟، وإذا كان شيء من هذا قد حدث، فإلى أي مستوى يرتفع قدر إسهامهم، وماذا عن الصدى الذي خلفته مشاركتهم في ذاكرة الأجيال ؟.

كذلك كان أول ميلاد للموضوع في فكري، ثم مازال يلح علي ويعاودني في غير انقطاع، حتى توثقت صحبتي له، وتمثل لي موضوعا سويا، فاستخلصته لهذه الأطروحة، وجاء موضوع الرواية المغربية للسيرة النبوية، بمثابة مقدمة له، ومدخل لمباحثه، وحمدت الله على ما هدى إليه وأرشد :

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾.

وزادني تمسكا بالموضوع، وحرصا عليه، أني رأيت زملاء لي من أبناء هذه الدار المباركة، قد أتيح لهم أن يقدموا عطاء الأجيال في الدراسات القرآنية، وفي علوم الحديث والفقه، فقلت : لتكن محاولة أضيف بها - إن شاء الله - إلى ما قدموه، دراسة لمصنفات علمائنا في السيرة النبوية استكمالا لرؤية أبعاد النشاط العلمي في خدمة الإسلام، وما قدمه سلفنا الصالح في مجال كان للمشرق فضل السبق إليه.

وسألت الله من فضله أن يأخذ بناصيتي إلى أقوم سبل البحث وأهداها :

﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾.

ووضعت خطوي باسمه الكريم على دروب البحث ومسالكه، أجوس خلال مغانيه ودياره، واستكشف من رسومه ومعالمه.

وفي مرحلة الإعداد له، ومن خلال رؤية شاملة لمجاله، تبين لي أن رصيد علماء المغرب في القرنين : الثالث والرابع لا يقل عن خمسة عشر مصنفا في السيرة النبوية، ثم قدم فيها من جاء بعدهم ما قد يتجاوز هذا العدد بكثير.

وفي صحبتي للموضوع وجدت أن الطبقة الأولى تبدأ من القرن الثالث، وهو يكاد يوازي عصر الرواية المغربية، فكأن مشاركتهم في علم السيرة لم تتأخر إلى ما بعد مرحلة الرواية لمصنفاتها المشرقية، بل اتصلت عندهم المرحلتان، فصح لهم هذا العلم رواية ودراية منذ القرن الثالث.

وفي دراستي للمصنفات المغربية ضاق الجهد، وحالت الظروف دون الظفر بكثير مما للمغاربة من مصنفات فيها، فلم نجده إلا في الأسانيد ومعاجم الشيوخ، وبرامج مروياتهم، وفهارس التراث، فقد ضاعت، أو لعلها في مكان ما، قصر جهدي عن إدراكه.

ولكن القدر الذي وصلنا من ذلك يكفي لأخذ فكرة عن الجهد والمكانة والمستوى.

وأول ما يستحق أن أنبه عليه هنا، هو ما قد يتبادر إلى الذهن من أن علم السيرة، نشأ في المشرق وهو موطنه، ومنه حمله سلفنا المغاربة، مع المدونات الكبرى التي تداولتها الأجيال من المشرق والمغرب، فما الذي بقي منه لعلماء المغرب، يوجه إليه هذا الاهتمام، وتصنف فيه العشرات من المصنفات ؟.

يمكن القول : بأنهم في المراحل الأولى قدّموا أجل الخدمات لما حملوه منها، شأنهم في العربية والفقه والأدب، في أصول فريدة موثقة من روايتهم.

ثم إنهم خدموها توثيقا وشرحا وإسنادا، واستنباطا واستصفاء، وذلك يعني أنهم لم يأخذوا السيرة في روايتهم نقلا وتقليدا، بل نظروا فيها، وحرّروا ما يحتاج إلى تحرير، وقابلوا المرويات المختلفة، فاستصفوا ما أجمعوا عليه، واجتهدوا فيما فيه خلاف على القواعد المتبعة للاجتهاد والترجيح.

فشرح السهيلي للسيرة، شرح إمام حافظ محدث فقيه لغوي، وليس راوية فحسب، ففي مشاهد السيرة ومواقفها، قدم معها فصولا شارحة بحيث يمكن استخلاص كتب مفردة منه في فقه السيرة، وفي شواهدها والأمالي عليها.

على حين نجد أبا ذر الخشني يتجرد للشرح اللغوي.

ويقتفي الكلاعي أثرهم فيقدم المغازي النبوية، ومعها مغازي الخلفاء الراشدين.

والإمام القاضي عياض في الشفا لم يكرر رواية الشمائل الترمذية، بل جمع الطرق والأسانيد، واستصفى ما هو من حقوق المصطفى ﷺ وشمائله.

وفي هذا المجال أذكر بغاية التقدير، العمل الجليل لأبي علي الغساني في «تقييد المهمل، وتمييز المشكل»، في أسماء رواة الصحيحين ومنهم رواة السيرة في أسانيد مصنفيها.

وفي كتب الأحكام الجليلة للمغاربة كأحكام القاضي أبي بكر ابن العربي، نجد أقضية رسول الله ﷺ لابن الطلاع، وهو من صميم السيرة، لم ينقل فيه عن السيرة فحسب، وإنما أخذ من المدونات الأصول في الحديث وجوامعه.

أريد أن أقول : إن مصنفي السيرة المشارقة ـ وهم العمدة وعليهم المعول في العلوم النقلية للإسلام والعربية، رووها من سماعهم مسندة أو مرسلة، وتقصوا منها ما وصل إلى عهدهم من القرنين الثاني والثالث، عن السيرة وعصر المبعث. وأما علماء المغرب، فإنهم كانوا يكتبون مصنفاتهم وبين أيديهم كل هذه المصنفات، ومثلها وأضعافها معها من كتب الحديث والتاريخ والأنساب.

وبعده توزعوا فنون السيرة، فمنهم من تخصص في حياة الرسول، ومغازيه وأعلامه ودلائله ومعجزاته وشمائله وخصائصه... ومنهم من اهتم بالصحابة، ومنهم من اعتنى بالأنساب، ومنهم من حرر المشتبه من الأسماء، إلى غير ذلك من علوم السيرة.

☆ ☆ ☆

حدثت ظاهرة لافتة في تاريخ الحياة العلمية للإسلام بصفة عامة، وفي السيرة النبوية وروافدها بصفة خاصة.

كانت العلوم تأتي من المشرق، والرحلات إليه للسماع معن في الحواضر العلمية للإسلام، ثم بدأت المصنفات المغربية في هذه العلوم تأخذ مكانتها عند المشارقة، يؤولون إليها وينقلون منها، ومن بينها ما صار عمدة عندهم كتيسير الداني في القراءات، ومحكم ابن سيده في اللغة، واستيعاب ابن عبد البر في الصحابة، وشفاء القاضي عياض في الحقوق النبوية والشمائل، والروض الأنف للسهيلي في فقه السيرة، وأقضية ابن الطلاع في الأحكام النبوية، وتقييد المهمل للغساني في تحرير المشتبه من الأسماء، وأنساب الرشاطي في الأنساب، ومدونة سحنون، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي.

☆ ☆ ☆

وقدمت نماذج لما وقفت عليه من عناية المشارقة بالسيرة المغربية، ومصنفاتهم عليها في القسم الثاني من هذه الدراسة.

ووقفت في هذا البحث الذي جعلت الغرب الإسلامي بمعناه العام ومدلوله الشامل لأجزائه وأقطاره، أفقا له ومجالا، عند نهاية القرن السادس، ممتدا إلى الثلث الأول من السابع ليدخل فيه محضرمو القرنين : السادس والسابع، منظورا فيهم إلى نشأتهم ومشيختهم في القرن السادس. وقفت عند هذا الحد، نظرا لتصدع الأندلس وانهيار حواضرها العلمية الكبرى، حيث بدأت رحلة نزوح إلى المشرق للاستيطان والإقامة، وكانت قبلها للحج والرواية،

فكانت نهضة علمية شارك فيها مهاجرة الأندلسيين والمغاربة.

☆ ☆ ☆

هذا عن الموضوع.

وأما عن الخطة والمنهج فأوجز القول فيه بعرض مباحث دراستي في قسمين رئيسيين :

القسم الأول : السيرة النبوية في المغرب.

وفيه : مدخل وأبواب ثلاثة.

المدخل : قدمت فيه خلاصة موجزة لمراحل التطور التاريخي لعلم السيرة، من الرواية الشفوية إلى عصر التدوين، في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، قصدا إلى أن يصل بي البحث إلى الربط بين المدرسة المغربية ومنابعها المشرقية.

وأما الأبواب الثلاثة :

فالباب الأول منها، وفيه خمسة فصول، قدمت فيه مصنفات السيرة والمغازي على الشكل التالي :

الفصل الأول : السيرة والمغازي عرضت فيه نحو 29 مصنفا.

الفصل الثاني : الأقضية والأحكام، عرضت فيه ثلاثة مؤلفات من أقضية النبي ﷺ.

وقد ترددت بادئ الأمر في إدراج «الأقضية» مع مصنفات السيرة، على اعتبار أنه قد يبدو من عناوينها أنها من كتب الأحكام الجامعة، المستمدة من الأحاديث النبوية، ولكن الناظر في كتاب ابن الطلاع لا يسعه إلا أن يضعه في صميم السيرة، بتركيزه على عصر المبعث واستخلاص ما كان للنبي ﷺ من مواقف وأحكام فيما واجه المسلمين من قضايا ونوازل، وما كان من أحداث في المجتمع الإسلامي الأول قضى فيها رسول الله ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم في بيته وفي مغازيه، فجاء الكتاب غير مسبوق إليه من علمائنا المغاربة، في تجريد أحكام من سيرته ﷺ في عصر المبعث، من السيرة النبوية، والأمر كذلك فيما قدمت من كتب الباب.

الفصل الثالث : المولد النبوي

قدمت فيه خمسة مصنفات، ونبهت على أن التصنيف في المولد لم يتأخر إلى عصر الحافظ أبي الخطاب ابن دحية، وأبي العباس العزفي السبتيين، في أواخر القرن السادس، وأوائل السابع، ولكن بدأ قبل ذلك بكثير على يد الحافظ أبي زكرياء يحيى بن مالك العائدي الطرطوشي المغربي في القرن الرابع الهجري.

الفصل الرابع : خصصته للمصنفات في المسجدين والحرمين.

وقدمت فيه مصنفات ثلاثة : وأوضحت أن المسجدين والحرمين من أظهر معالم السيرة النبوية وهما قطبا دائرة الأحداث الكبرى في عصر المبعث، فالحرم المكي كان فيه مولد المصطفى، وفيه كانت المواقف المشهودة، وإليه حولت القبلة، وكانت عمرة القضاء بعد سنة من الحديبية.

والمسجد النبوي منذ أسس عقب الهجرة كان مجتمع الصحابة ومصلاهم، والمدرسة النبوية، ومنه كانت تنطلق الكتائب والبعوث ضاربة في سبيل الله، وإليه كانت تعود، ثم كان فيه المثوى الأخير لرسول الله ﷺ، وإذن لا يمكن فصل ما ألف في المسجدين والحرمين عن المصنفات في السيرة بحال، ولنا فيها من عهد مبكر مؤلف لعبد الملك بن حبيب من مخضرمي القرنين الثاني والثالث.

الفصل الخامس : السيرة الشعرية والمنظومة.

أفردته للقصائد النبويات الكبار، والمنظومات في السيرة النبوية، ولست أقصد بالسيرة الشعرية هنا المدائح النبوية للشعراء المغاربة فذلك ما يضيق عنه الحصر، وإنما قصدي إلى ما يدخل في أبواب السيرة النبوية : النسب الشريف، والدلائل، والأعلام، والمعجزات، والمولد، والمبعث، والمغازي، والخصائص، والشمائل، من كل ما يتفق مع مصنفات السيرة مادة، ويختلف عنها في النهج والصياغة والأسلوب.

☆ ☆ ☆

الباب الثاني : خصصته للدلائل والأعلام والمعجزات والشمائل والخصائص، فجاء في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الدلائل والأعلام.

قدمت فيه ثمانية مصنفات أقدمها في القرن الثالث الهجري، وهو أعلام النبوة للفراء المعتزلي القيرواني المعروف بابن أبي عصفور.

الفصل الثاني : المعجزات : عرضت فيه ثمانية مصنفات أقدمها في أواخر الثالث وأوائل الرابع. وهو كتاب المعجزات لأبي جعفر القصري التونسي.

الفصل الثالث : الشمائل والخصائص : وقدمت فيه ستة وأربعين مصنفا ما بين مصنفات أصول ومؤلفات عليها.

الباب الثالث : الصحابة والكنى والأنساب، وتضمن ثلاثة فصول.

الفصل الأول : الصحابة. قدمت فيه اثنين وعشرين مصنفا.

الفصل الثاني : الكنى، عرضت فيه خمسة مصنفات.

الفصل الثالث : الأنساب، وصلت فيه إلى ستة عشر مصنفا، ما بين كتب أصول ومؤلفات عليها، وأفردت له السفر الثالث كاملا من أسفار هذه الدراسة الأربعة. ناظرا في إدخال هذه الكتب إلى أن الصحابة، هم رجال المبعث، ومادة السيرة.

☆ ☆ ☆

اتجه الجهد في هذه الأبواب وفصولها إلى محاولة استقراء ما تسعف عليه الوسائل والطاقة من عطاء علماء السيرة المغاربة، من طبقة الرواد، إلى نهاية القرن السادس الهجري، في رؤية شاملة للربوع المغربية، توضح أبعاد علمائها، على السياق الزمني، وتبين آفاق انطلاقهم في الميدان، من حيث وصلت جهود الذين سبقوهم، مفردا لكل مصنف فقرة خاصة للتعريف به تلميذا طالبا، يذكر بعض شيوخه، وأستاذا مدرسا، بذكر بعض تلاميذه، وكاتبا مؤلفا بذكر ما وقفت عليه من تراثه. وفيهم بلا ريب من تغني شهرتهم عن التعريف بهم بمثل الفقرات التي أقدمهم بها مع مصنفاتهم في السيرة، قصدا إلى اتساق نهج العرض في مباحث الدراسة، مع إيراد ما علمت من مصادر ومراجع لتراجمهم تكمل ما اقتصرت عليه منها، مستخلصا من هذه الأبواب والفصول متكاملة ما تهدي إليه من نتائج يرجى أن تضيء ما لعله غاب عنا من تراثنا العلمي وتعين على فهمه وتفسيره.

☆ ☆ ☆

القسم الثاني من هذه الدراسة، أفردته للسيرة المغربية عند المشارقة.

وجاء في تمهيد وباب واحد من أربعة فصول.

ركزت في التمهيد على موضوع رحلة الكتاب المشرقي إلى المغرب، ثم رحلة الكتاب المغربي إلى المشرق، مستخلصا من ذلك واقعا لا يخلو من طرافة، وهو أن المغرب منذ فجر الإسلام حظي بشرف نقل العلم والثقافة، وتأصيل التواصل العلمي بين مشرق الإسلام ومغربه.

ويرجى أن تبقى المدرسة المغربية ـ بإذن الله ـ وفية لهذا التواصل، حريصة على امتداده وحيويته، ذابة عنه بكل همة.

الفصول الأربعة التي يتضمنها الباب، قدمت فيها أربعة نماذج للكتاب المغربي في السيرة النبوية بالمشرق، يمثل كل واحد منها نمطا معينا من أنماط السيرة، ظهر من خلالها الاهتمام البالغ للمشارقة بكتاب السيرة المغربي.

وهكذا خصصت الفصل الأول منها لكتاب (الاستيعاب) للحافظ ابن عبد البر مثالا لكتب الصحابة المغربية.

وقدمت في الفصل الثاني (القصيدة اللامية الشقراطسية)، مثالا للسير الشعرية، التي تعبر عن وجدان الجماهير وأحاسيسها.

وعرضت في الفصل الثالث كتاب (الشفا) للقاضي عياض، نموذجا لعطاء المدرسة المغربية في الخصائص والشمائل والحقوق.

أما الفصل الرابع، فأفردته (للروض الأنف) للسهيلي نهجا رائدا في دراسة السيرة النبوية دراسة نقد وتفقه واستنباط.

وكانت غايتي من إفراد قسم للسيرة المغربية عند المشارقة، إبراز مكانة هذه السير، وما حظيت به في المشرق من اهتمام، وصولا إلى دفع واستبعاد شبهة التقليد والتكرار لسابق عطاء المشارقة، إذ لو كان شيء من ذلك قد حصل، ما نالت مثل هذا الاهتبال من طرف جهابذة أعلام، يرصدون كل خطوة جادة على طريق المعرفة، ويباركون كل إضافة حقيقية تزيد في رصيد الأمة الفكري، وتثري عطاءها العلمي.

☆ ☆ ☆

وختمت هذه الدراسة بخاتمة أوجزت فيها ما وفق الله إليه وأعان، من نتائج مما لم أكن أعلمه، ولعل غيري يعلمه وفوق كل ذي علم عليم.

ولعل في طالعة ما تقدمه هذه الدراسة :

1) لائحة غزيرة المادة، متنوعة العطاء، للتراث المغربي في السيرة النبوية، بمختلف فنونها وشعبها. سيرا، ومغازي، ومعجزات، وأعلاما، ودلائل، وشمائل، وفضائل، وخصائص، وحقوقا، وموالد، وأقضية، وسيرا شعرية، ومنظومة، وصحابة، وأنسابا، بلغت ما يناهز 250 مصنفا، عدا ما لم أقف عليه، إما لضياعه، أو لتقصيري في البحث عنه. وهو عدد يكفي لأن يشهد بأن المغرب قد كان دار سيرة، إلى جانب كونه دار قرآن.

2) وفي المجال الزمني، وصلت إلى أن المغرب لم يقف عند مرحلة الرواية في العصر المبكر، ثم انتقل متأخرا إلى التصنيف والدراية كما قد يظن، ولكن انتقل سريعا من مرحلة النقل، إلى مرحلة التصنيف والدراية.

3) ظهور السير المغربية الأولى، كان يعاصر المصنفات المبكرة للسيرة بالمشرق، ففي مصنفي السيرة المغربية، رجال من طبقة الواقدي، وابن هشام، وابن سعد.

4) دخول رجال هذه الطبقة روادا بمصنفاتهم، في شعب من السيرة لم يسبقوا إليها فيما أعلم، حتى في المشرق نفسه، كالفراء المعتزلي القيرواني، بكتابه : (أعلام النبوة)، وأبي جعفر القصري بكتابة : (المعجزات)، لإفرادهما هذه الشعب بالتصنيف، وكان من قبلهم يدمجها في مادة العامة للسيرة، ويعرضها في سياقها الزمني.

5) في تقديري، أن من أهم ما وصلت إليه في هذه الدراسة، هو تصحيح موضع القصائد النبويات الكبار التي كانت نقطة تحول في تاريخ علم السيرة، ومناهجه، من حيث إنها أتاحت تذوق هذا العلم للسواد الأعظم من الأمة.

6) إثبات الصلة الوثيقة بين الموضوع التقليدي لعلم السيرة النبوية، وبعض فنونها الأخرى التي كانت تعرض مفصولة عنها، ككتب الأقضية، وكتب الحرمين الشريفين والمسجدين، وكتب الصحابة والأنساب والكنى، مما يعطي هذا العلم تنوعا في المادة، وامتدادا في الزمن.

7) الآفاق الجديدة التي ارتادها علماؤنا وهم يستوحون من فيض عطاء سيرة المصطفى، ويقتبسون من نور شمائله، إذ جاءوا في ذلك ببعض ما لم يسبقوا إليه، على نحو ما قدمه القاضي عياض في كتاب «الشفاء».

8) وأرجو أن يجدي جهدي في تجميع هذه المادة المبعثرة، تجريدا لها مما لا أحصيه من كتب التراث، وفهارس، وبرامج.

والذي أعتز به هو أن تجمع في دراسة مفردة تضع المغرب في مكانه من خدمة السيرة النبوية وعلومها.

9) ولعلي أعتز أيضا بما في القسم الثاني من محاولة لإبراز عناية المشارقة بكتب السيرة المغربية، من خلال النماذج التي قدمتها في السيرة، والشمائل، والصحابة، والسيرة الشعرية، ليس نقلا من كتب الفهارس العامة بل تجريدا من كتب الأسانيد، وتراجم العلماء من العصور الأولى إلى العصور المتأخرة، ومن كتب ليست من مظان البحث.

10) وإذا كانت كتب الفهارس وبخاصة الحديثة منها، مظنة استيعاب لكتب التراث، فإني أضع في نتائج الدراسة ما استدركته عليها من فوات في مواضعه، فأصحابها فيما تقصّوا من تراثنا، فالذي يشغلهم أن

يدلوا على أماكن المخطوطات، وقد فاتهم من ذلك قدر غير قليل، نبهت عليه في موضعه.

☆ ☆ ☆

مما تزودت به لهذه الدراسة من مصادر ومراجع عدة أصول أخص بالذكر منها كتب السيرة وروافدها، التي يقيد مصنفوها أسماء مواردهم لها، ومعها معاجم الشيوخ، وبرامج مروياتهم، وأسانيد رواياتهم لها، مع الميسور من الفهارس قديمها، كفهرست ابن النديم، وفهرسة ابن خير. والحديث، ككشف الظنون، بالإضافة إلى كتب الرجال، وتراجم الاعلام المغاربة، في مصادرها الموسعة، وما ذكر فيها من أثبات للعلماء السلف.

وأما ما يتعلق بالموجود من ذخائر هذا التراث فالمرجع فيه إلى الفهارس بالخزائن المعروفة، ومدونات علماء الخزائن المعاصرين، كبروكلمان، وسزكين، وإن فاتها مع ذلك ما فاتها مما وقفنا عليه بحمد الله في أصول مصادرنا لتراجم السلف وأثبات مصنفاتهم، وفهارس ومرويات أصحابهم.

☆ ☆ ☆

هذا وإني أذكر بمزيد التقدير والعرفان، العون والمساعدة اللذين تلقيتهما من الأساتذة الأجلاء، ومن الزملاء الأصدقاء وغيرهم، ممن أتحرج من ذكر أسمائهم، وقد بذلوا ما بذلوا، زكاة مروءتهم وأريحتهم. وفي مقدمتهم من يشاركون في الفحص والمناقشة، فضلا عما أنتظره منهم من توجيهات سديدة، وإفادات قيمة.

والشكر لله سبحانه فيما وفق إليه بفضله، وأعان عليه بمنه وكرمه. ثم لأستاذتي المشرفة العالمة الجليلة الدكتورة عائشة عبد الرحمن التي رافقتني خلال هذه الرحلة المضنية، تسدد خطاي وتهديني إلى أقوم الطرق وأسلمها، باذلة من علمها ووقتها وراحتها بسخاء وأريحية، أضرع إلى الله العلي الكبير أن يمد في عمرها لخير العلم، ويثيبها على ما صنعت لنا بأحسن ما يثيب به أولياءه المتقين.

وكلمة أخرى لابد منها فيما أرى، وهي ما نشعر به نحن أبناء هذه الدار المباركة من الإحساس بالرضا والارتياح، ونحن نراها توالي - بتوفيق الله - مسيرتها الرائدة، في خدمة الإسلام وثقافته، **مشمولة بكريم عطف أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني وسابغ رعايته، لما يعلقه عليها من آمال في بعث وإحياء ما اندرس، أو كاد من معالم الدراسات الإسلامية، ولا سيما منها القرآنية والحديثية، وهي علوم كان المغرب دارا لها ومنارا، واصلا - حفظه الله - حاضر هذه الأمة بمجد ماضيها، ومتطلعا إلى الأفق البعيد بتفاؤل وإيمان، لا تشغله مشاغل الحياة وأعباؤها، أن يتمثل ضمير الأمة الديني**، مما يصح أن نتمثل معه بقول الشاعر :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه
ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

☆ ☆ ☆

وبعد، فإني لا أريد في ختام هذا العرض أن أتردد في الاعتراف بأن ما فاتني من مصنفات في السيرة النبوية، ليس قليلا، ولكن هذا جهد مخلص، أرجو أن يتاح له النمو والاكتمال.

وحيثما وقفت أو وقف سواي من الدارسين على مصنف في السيرة، لم أذكره هنا، يجد موضعه، فيضاف استدراكا، واستلحاقا، فكذلك سارت حياتنا العلمية في نموها المطرد، وحيويتها المستمرة، بما يضاف إلى جهود العلماء والدارسين، من مستدركات، وذيول.

ولا أجد في هذا المقام تعبيرا أدق وأوفى مما قاله الإمام حافظ المغرب، أبو عمر ابن عبد البر لأخلص تلاميذه وأقدرهم على النهوض بالوصية : أبي علي الغساني، بعد أن أسمعه الشيخ كتاب (الاستيعاب) : «أمانة الله في عنقك، متى عثرت على اسم من أسماء الصحابة لم أذكره، إلا ألحقته في كتابي الذي في الصحابة».

وأنا أقول للزملاء الأصدقاء : إن المجال يتسع لكل إضافة، ولن يضيق صدري - إن شاء الله - لما يفيدني به أساتذتي الأجلاء من تصويبات، واستدراكات، وإضافات، وتعقيبات، وتوجيهات. وصدق الله العظيم :

﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾

واقع التعليم الأصيل

للأستاذ محمد الحجوي الثعالبي

مقدمة : اضطلع التعليم الأصيل بدور هام في المحافظة على أصالة أمتنا، وفي تحصينها ضد المبادئ الاستعمارية الهدامة، ومساعدتها على ضمان تماسكها وترابطها ووحدتها.

وهو يمتاز بكونه مركزًا على اللغة العربية والمواد الإسلامية، متفتحا على الرياضيات والعلوم واللغات الأجنبية، مبلورا للشخصية العربية الإسلامية، والإنسية المغربية الأصيلة، كما يمتاز بكونه معربا مئة في المئة، تلقن فيه الفرنسية والإنجليزية والإسبانية كلغات أجنبية لا أقل ولا أكثر..

نبذة تاريخية :

عرف التعليم الأصيل وثبة هامة في السبعينات، حيث أنشئت له مديرية بوزارة التربية الوطنية، وبوشر إصلاحه من القاعدة ومن القمة، بكيفية تدعو إلى الانشراح والتفاؤل بمستقبله ومصيره.

ففي أواخر سنة 1972 **أمر صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله بتشكيل لجنة وزارية لدراسة ملف التعليم الأصيل بشقيه التربوي والمادي.**

وبهذه المناسبة قرر حفظه الله **أن يسميه بالتعليم الأصيل عوض التعليم الأصلي كما كان يدعى قبل ذلك التاريخ.**

وقد قامت اللجنة في أول مرحلة بمراجعة برامج التعليم الثانوي الأصيل، وطعمتها بالمواد العلمية والرياضية، وعززت حصص اللغات الأجنبية فيها، وأحدثت شعبة علمية بها..

وبعد التصديق على هذه البرامج الجديدة من لدن اللجنة الوزارية، دخلت حيز التطبيق بسائر المؤسسات الأصيلة في فاتح اكتوبر 1973.

ويتابع التلاميذ الحاصلون على البكالوريا الأصيلة ـ الشعبة الأدبية الشرعية ـ دراستهم العليا بكليات جامعة القرويين، وكذا بكليات الآداب والحقوق التابعة للجامعات المغربية الحديثة.

أما التلاميذ الحاصلون على البكالوريا الأصيلة ـ الشعبة العلمية ـ فيتابعون دراستهم العليا في العلوم والرياضيات بالجامعات الأوربية بعد قضاء سنة من التكوين السريع في اللغة الأجنبية للبلد الذي يدرسون فيه.

وقد استطاع هؤلاء الطلبة أن يتخرجوا من كليات فرنسا وألمانيا وروسيا في الهندسة والعلوم والطب والصيدلة وغيرها.

وكان من نتائج أعمال اللجنة الوزارية في الجانب المادي لهذا التعليم أن قررت إصلاح الثانويات الأصيلة الموجودة بالمملكة وتزويدها بالداخليات وبجميع المرافق الضرورية، ورصد لتلك الغاية في التصميم الخماسي 1973 ـ 1977 ما يفوق 65.000.000 درهم.

وهكذا بنيت عشر ثانويات جديدة بكل من وجدة، والناظور، والحسيمة، وشفشاون، وطنجة، والعرائش، والقصر الكبير، ومكناس، وفاس (الخنساء للفتيات)، ومراكش (الزهراء للفتيات).

ووقع توسيع خمس ثانويات أخرى بكل من الجديدة، وفاس (القرويين)، ومراكش (ابن يوسف)، وتطوان (القاضي ابن العربي)، وتارودانت (محمد الخامس)، كما بنيت خلال التصميم الثلاثي 1978 ـ 1980 مؤسسة للتعليم الأصيل بالرشيدية، وأخرى بتازة.

وفي اكتوبر 1977 تم فتح إعداديتين للتعليم الأصيل بكل من تزنيت وقلعة السراغنة، كما فتحت إعدادية الرشيدية في اكتوبر 1979، وإعدادية تازة في اكتوبر 1980، ومؤسسة العيون بالصحراء المسترجعة في اكتوبر 1981، وإعدادية فجيج في اكتوبر 1982، ومؤسسة ماسا في اكتوبر 1983، وإعدادية كلميم في 16 شتنبر 1986، فيصبح مجموع مؤسسات التعليم الأصيل ثلاثا وعشرين، يبلغ عدد تلاميذها 17.500، من بينهم 150 تلميذا أجنبيا ينتمون إلى تسع دول إفريقية صديقة.

الطور الابتدائي الأصيل :

ولضمان روافد التعليم الثانوي الأصيل أحدثت الوزارة طورا ابتدائيا خاصا تستغرق الدراسة فيه ثلاث سنوات، ويلجه التلاميذ الذين يحفظون القرآن الكريم كلا أو بعضا.

وقد فتح أول قسم من هذا الطور الابتدائي بثانوية ماء العينين للتعليم الأصيل بالعرائش في اكتوبر 1976، ثم توبع فتح هذا الطور تدريجيا في باقي المؤسسات الأصيلة، ويبلغ عدد التلاميذ المسجلين فيه الآن زهاء 2500.

وهكذا تم التغلب على مشكل «الروافد» للثانويات الأصيلة التي تزود بتلاميذ التعليم الابتدائي العام، والتي أخذت تزود ابتداء من الموسم الدراسي 1979 ـ 1980 بتلاميذ حفظوا القرآن الكريم عن ظهر قلب، وتلقوا تعليما ابتدائيا أصيلا مناسبا في جوهره وشكله للتعليم الثانوي الذي سيتلقونه في المؤسسات الأصيلة المؤدية إلى جامعة القرويين.

لجنة التأليف :

ونظرا لما للكتاب المدرسي من أهمية سواء بالنسبة للأستاذ أو للتلميذ، فإن مديرية التعليم الأصيل عملت على تكوين لجنة للتأليف تضم نخبة من خيرة المفتشين المنتمين إلى التعليم الأصيل، انكبت على تأليف أربعة كتب للسلك الأول الثانوي تتعلق بالتوحيد، والفقه ـ والحديث، والأخلاق من خلال القرآن الكريم، وقد أنهت اللجنة أعمالها في غضون سنة 1985، ويجري الآن طبع تلك الكتب بدار الثقافة بالدار البيضاء، وستجيء مشرفة بحول الله، شكلا ومضمونا، وتكون صالحة لجميع أنواع التعليم.

التنظيم الإداري لمديرية التعليم الأصيل :

تختص مديرية التعليم الأصيل بالإشراف على شؤون التعليم الأصيل بأطواره الثلاثة : الابتدائي، والثانوي، والعالي.

وهي تشتمل على قسمين :

1) ـ قسم التعليم الثانوي الأصيل.

2) ـ قسم التعليم العالي الأصيل.

وهذه المديرية لها وضعية خاصة حيث إنها تشرف في آن واحد على قسم تابع لقطاع التعليم الابتدائي والثانوي، وقسم تابع لقطاع التعليم العالي، ويوجد مقرها بالمركز الرئيسي للوزارة بباب الرواح.

وفي رمضان 1401 أسند صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بظهير شريف إلى مدير التعليم الأصيل مهام كتابة المجلس العلمي الأعلى الذي يرأسه بنفسه والذي يتركب أعضاؤه من رؤساء المجالس العلمية الإقليمية بالمملكة. ونشر الظهير الشريف بالجريدة الرسمية عدد 3586 وتريخ 20 رمضان 1401 موافق 22 يوليوز 1981.

التعليم العالي الأصيل :

يتجسم التعليم العالي الأصيل في جامعة القرويين المجيدة، التي تشتمل على المؤسسات الآتية :

- كلية الشريعة فاس،
- كلية الشريعة بأكادير،
- كلية اللغة العربية بمراكش،
- كلية أصول الدين بتطوان،
- دار الحديث الحسنية (الإشراف التربوي فقط)، وهي مؤسسة للسلك الثالث.

وتحتضن تلك الكليات الطلبة الحاصلين على الباكلوريا الأصيلة أو الباكلوريا الأدبية، وتحضر الإجازة العليا، وديبلوم الدراسات العليا، ودكتورة الدولة.

تخصص كليات جامعة القرويين :

تختص كليتا الشريعة بتكوين رجال القضاء وأساتذة التعليم الثانوي للمواد الإسلامية، وتختص كلية أصول الدين بتكوين أساتذة الفلسفة والفكر الإسلامي بالتعليم الثانوي.

أما دار الحديث الحسنية فتختص بتكوين أساتذة المواد الإسلامية بالتعليم العالي، وكذا بتكوين الباحثين ورجال الدعوة داخل المغرب وخارجه.

إصلاح برامج التعليم العالي الأصيل :

بوشر إصلاح برامج التعليم العالي الأصيل من لدن لجنة مختصة، فرفعت مدة الدراسة للحصول على الإجازة العليا من ثلاث سنوات إلى أربع، كما وضعت برامج دراسية للحصول على دبلوم الدراسات العليا ودكتورة الدولة بجميع كليات جامعة القرويين.

وقد وقع التصديق على النصوص التشريعية المتعلقة بالسلك الثالث، وصدرت بالجريدة الرسمية في 30 يوليوز 1980، وستدخل حيز التطبيق في اكتوبر 1986 بكلية الشريعة بفاس، وذلك في شعبة الأحوال الشخصية والتبرعات، في انتظار تعميمها على باقي كليات جامعة القرويين.

وهكذا أعيد الاعتبار إلى جامعة القرويين، فأصبحت كباقي جامعات المملكة، تحضر شهادات السلك الثالث أي دبلوم الدراسات العليا ودكتورة الدولة في مختلف الشعب الخاصة بكل كلية، ولم تبق مقتصرة على تحضير الإجازة العليا كما كان الحال من قبل، بل أصبحت تتمتع بجميع مميزات جامعة عصرية مع احتفاظها بشخصيتها الأصلية التي تألقت في سماء المجد منذ أزيد من أحد عشر قرنا.

وتجدر الإشارة إلى أنه تم خلال التصميم الخماسي 1973 ـ 1977 تشييد ثلاث بنايات جديدة لإيواء كلية الشريعة بفاس، وكلية اللغة بمراكش، وكلية أصول الدين بتطوان، وتم فتح كلية جديدة للشريعة بأكادير في نونبر 1978، بعد أن تبرع أحد المحسنين بمقرها الكائن بأيت ملول.

كما تجدر الإشارة إلى أن عدد طلبة جامعة القرويين قفز من 142 في سنة 1973 إلى 5700 طالب في سنة 1986، من بينهم 50 طالبا أجنبيا ينتمون إلى عشرين دولة صديقة في شتى أنحاء المعمور.

خاتمة :

يتضح من البيانات السالفة الذكر أن التعليم الأصيل يضطلع بدور هام في المحافظة على الشخصية المغربية وعلى القيم الروحية والثقافية والأعراف الأصيلة للأمة.

وهو يهدف إلى تكون الأطر المتضلعة في الدراسات الإسلامية والعربية والملمة باللغات الأجنبية، مما يساعدها على مواجهة التيارات

المعاكسة ورد الشبهات والقيام بتلقين أهداف الإسلام وتعاليمه بطريقة علمية مقنعة.

وتلك أطر (تقنية) خاصة لاغنى للأُمة المغربية المسلمة عنها، كما لاغنى لها عن الأطباء، والمهندسين، والقنيين.

فالتعليم الأصيل يجب أن ينمو ويزدهر حتى يصبح هو التعليم الرائد في البلاد، أساسه القرآن والسنة، وجدرانه الرياضيات والعلوم والتكنولوجيا، واللغات الحية، وسقفه الأصالة المغربية، والأمجاد العربية، والقيم الإسلامية.

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني

إن مسيرتك الخضراء شعبي العزيز، ودخولك الصحراء أرض الأمهات والآباء واستقرارك فوق هذا التراب المبارك بحكم مالك من حق ثابت وسيادة متأصلة، كل هذا جعل من مغربك مملكة جديدة وفرض علينا فروض الحدب والرعاية والنظر الذي يتعقب النقص والخصاص، ويتفرغ لتلافي ما يجب تلافيه، وتجديد ما يتعين تجديده، وتشييد ما يبدو تشييده ضرورة لا مناص منها، إننا نذرع أرض الصحراء منذ شهور ونزرعها حبا وأمنا وسلاما، ونوليها الكثير من فيض القلوب والوفير من محض العقول ونريدها مطمئنة بالثقة عامرة بالآمال، ناضرة بالاخضرار جنة فيحاء وارفة الظلال، وإرادتنا هذه تقتضي أن ننصرف إلى مجالات شتى وميادين مختلفة، ونباشر التثقيف والتكوين، والعلاج والتجهيز، والتنقيب والاستثمار، وكل ما من شأنه أن يبدل الصورة ويغير الملامح، حتى تصير هذه الأرض الحبيبة امتدادا للشمال، وترتدي من مطارف البهاء والجمال وملابس الرفاهية والازدهار ما يجذب الأفئدة والأبصار، ويسعد رعايانا الأبرار.

من خطاب عيد العرش لسنة 1976

من نوادر المخطوطات

خزانة الإمام عبد الجبار الفكيكي

للأستاذ بنعلي محمد بن بوزيان

أعتقد أن الوقت قد حان لتهيىء مسرد للمصنفات التي كانت تزخر بها خزانة بني عبد الجبار بفجيج، وفاء بوعد قطعته على نفسي في مقال سالف[1]، تردد فيه أن يكون هذا المسرد للتمثيل لا للحصر، وأن يتوخى التنويع في العلوم على نحو يرمي إلى تكوين فكرة زاهية عن منزلتها التي كانت مرموقة ولاشك. ولنتذكر أن زيارتها كانت ضرورة لا غناء عنها، وأنها كانت محمدة على ألسنة الزوار، وبين صفحات كتب الرحلات المغربية.

ومن شأن ما دوّن الهشتوكي[2] في رحلته الموسومة «بهداية الملك العلام»[3] أن يفرض علينا احترام الخزانة قبل أن نحضر بيّنتنا، وأن يلقي الضياء على أهميتها، خاصة وأن معلوماتنا عنها لا تتعدى تقاريظ الرحالين، وانطباعاتهم الحسنة، ولا تتجاوز ما عايناه بها اليوم وقد تفرقت شذر مذر على حد تعبير ابن ناصر في رحلته الكبرى.

يقول الهشتوكي معددا بعض نفائس الخزانة ما يلي :

«وزرنا صالحي فجيج وعلماءها؛ السيد عبد الجبار وأولاده وأصحابه. ودخلنا إلى خزانتهم العظيمة، وتبركنا بها، ورأينا فيها كتبا غريبة، غير أنها لعدم من يعتني بها للاندثار قريبة، من جملتها اختصار تفسير القرطبي لجدهم سيدي عبد الجبار في اثني عشر مجلدا متوسطة، فيها - والله أعلم - سبعة أجزاء بخط يده الكريمة.

وفي بعض الأجزاء من هذا التفسير أن صدقة التطوع لا تحرم على آله، ﷺ، مطلقا : كانوا مضطرين إليها أم لا. وإذا قوبل هذا بقول خليل في مبحث الخصائص، وحرمة الصدقتين عليه وعلى آله، كان في المسألة قولان.

---

1) ينظر المقال في دعوة الحق عدد 85/248. ص 95 وما بعدها.

2) هو أحمد بن محمد بن داود بن يعزى الشهير بالهشتوكي المتوفى عام 1127 انظر الإعلام للزركلي ج 1 ص 240 مع المصادر المحال عليها.

3) إسمها الكامل : هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام» توجد في خ ع تحت عدد : ق 190.

ومنها مكمل إكمال إلا كمال لِلشيخ أبي عبد الله السنوسي. نفعنا الله به على الدوام، في سفرين، وهو كتاب جليل، مشتمل على كلام جميل.

ومنها كتاب المسالك على موطإ مالك بخط حسن يعجب ويطرب للإمام أبي بكر محمد بن العربي في ثلاثة أسفار ضخام.

ومنها سفران من كتاب الحاصل للإمام حجة الإسلام الغزالي.

ومنها السفر الأول من كتاب الاعتبار في الناسخ والمنسوخ للإمام الحازمي.

ومنها سفر صغير فيه نظم مختصر خليل لبعض من ذرية السيد عبد الجبار[4].

ومنها شرح مقصورة الأسدي لمحمد بن يعلى الشريف شارح المقدمة الجرومية بخط يده على ما قيل.

ومنها حلية الأديب في اختصار الغريب لأبي بكر بن المزجي في مجلد واحد. وقسمه أقساما ثلاثا :

الأول : في خلق الإنسان وصفاته وما يضطر إليه في معاشه ورياشه وسائر تحولاته مع ذكر سائر الحيوان، الخيل والإبل والأنعام، وسائر الوحوش والسباع.

والثاني : في الأشجار والنباتات وما يتصل بذلك، وذكر الأرضين والجبال والمياه وما يلحق بذلك من ذكر الأمطار والغيوم والرياح والنجوم وسائر الأزمنة.

الثالث : في أبواب من التصريف وأوزان من الكلم وشواذ المصادر والقلب والإبدال.

ومنها لمع اللوامع في شرح جمع الجوامع للأشموني بخط يده الكريمة. وفي آخره إجازة من الشيخ الأشموني للشيخ إبراهيم بن عبد الجبار. ومنها كتاب إيضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج على الحماسة لعبد المهيمن الحضرمي.

ومنها الإفصاح على مسائل الإيضاح وحاشية على الكامل للمبرد، يشير بالطاء للبطليوسي وبالشين المعجمة للرقشي.

ومنها جزء من القانون لأبي بكر بن العربي من قوله عز وجل في سورة الأنعام : وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلى قوله سبحانه في سورة الأعراف أو عجبتم[5]، وهذا السفر هو الخامس.

ومنها شرح العارف بالله سيدي أحمد زروق المسمى بمفتاح الإفادة لذوي العقول والهمم على معاني ألفاظ الحكم...[6].

وما ذكرنا إلا غير المتداولة جدا وإن كانت معروفة الذكر[7]».

والآن، وقد فهمنا عن هذا النص الجديد والمفيد[8]، وتزودنا منه الدليل على أهمية الخزانة رغما من أن صاحبه حل بعرصاتها أيام كانت تعاني الإهمال الموجع، نتخطى إلى تعداد بعض ما لا يزال يتربع على رفوفها من مخطوطات ومجاميع وأوراق تشمل مختلف حقول المعرفة، مستندين إلى المجاميع الخطية، والمخطوطات المفردة ثم الأوراق التي تحمل إشارات دقيقة إلى عناوين الكتب وأعيانها، على أن يكون بيّنا أننا سنصنفها بحسب الفنون.

---

4) القصد إلى أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار - راجع دعوة الحق عدد 248/85 ص 100.

5) تمام الآية : أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم (الأعراف آية 63).

6) الملاحظ أن من بين الكتب التي ذكرها الهشتوكي ما لا يزال في حكم المفقود مثل شرح مقصورة الأسدي.

7) هداية الملك العلام ص : 102 - 104.

8) لعل هذا النص يبدد حيرة الأستاذ عبد الهادي التازي الذي صرح بأنه لم يجد أثرا لذكر شرح الشريف لمقصورة الأسدي (ينظر درة الحجال ترجمة رقم 234).

1 ـ علوم القرآن :

* تفسير القرآن تـأليف أبي بكر محمـد بن عـزيـز السجستاني المتوفى 330 هـ، وهو غريب القرآن الذي اشتهر به، جاء في الصفحة الأخيرة منـه ما يلي : **كمل تفسير القرآن مبوبـا على حروف الهجاء تـأليف... وهـو جميـع الـديـوان.** وعلى الظهر ورد هـذا التعليق المهم : **«قال أبو النمر أحمد بن عبـد الرحمان : قرأت هـذا الكتاب على ابن خالويه رحمـه الله، قـال : قرأتـه على أبي عمر الزاهد تصحيحا. قـال : وسمعتـه وهو يقرأ على ابن الأنباري أبي بكر. قال ابن خالويه : كان أبو بكر محمد بن عزير مؤلف هذا الكتـاب من أكـابر أصحـاب ابن الأنبـاري علمـا وسترا وصلاحـا. وكان يؤدب أولاد العامة، ويأتي جامع المـدينـة كل جمعة ومعه زبيل صغير فيـه دفـاتر فيطيل الصمت، وإذا تكلم قـال حقـا، وكـان ثقـة لم يـؤلف غير هـذا الكتاب، وادعاه رجل عند سيف الدولة لنفسه فـذكر ابن خالويه أنه ابن عزيز وأخرج نسخة وجدت في المجلس فسقـط ذلـك الرجل عنـد سيف الـدولـة وأقصاه»[9].**

* تـأليف في اختصـار فضـل القرآن العظيم، وفضـل بعض خصائصه وسوره ومنافعه في الـدنيـا والآخرة. تـأليف ابن عيسى بن سلامة بن عيسى بمدينة بسكرة سنة 860 هـ.

* الفوائـد الجميلـة على الآيـات الجليلـة. وضعـه أبو علي سيدي حسين بن علي بن طلحـة الرجراجي الشوشـاوي المتـوفى بتـارودانت عام 899 هـ على بعض فـوائـد القرآن وهـو عشرون بـابـا، بقيت منـه الأبـواب الستـة الأولى ضمن مجموع يحمل عدد : 15.

* حكم رسم المكي. أرجوزة لأبي زيد عبد الرحمان بن أبي القاسم بن القـاضي الفـاسي. يحتضنهـا مجموع يحمل رقم 37.

* قصيـدة داليـة في وقف القرآن العظيم لـلأستـاذ المحقق أبي عبد الله سيدي محمد بن امبارك السجلماسي المغراوي. وتحتفظ منها الخزانة بسبعة وعشرين ومائة بيت.

* تحصيل المنافع من كتـاب الـدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نـافع. لابن سعيـد السملالي الكرامي جـاء في آخره : **«قـال ابن سعيـد السمـلالي الكرامي : انتهى وكمـل مـا قصدتـه من بيـان معاني كتاب البريـة وتقريب فـائـدهـا في صفر عـام ثلاثـة وسبعين وثمانمائة، وسميت هذا الشرح بكتاب تحصيل...».**

انتسخه الفقيه محمد بن محمد بن عبد الله بن عمر العياشي عام 1129 هـ.

☆ ☆ ☆

2 ـ الحديث والسيرة :

* «مرشدة الأخيار» منظومة لمحمد بن المقدسي الداوودي.

وبعـد فـالإمـام مجـد الـدين
فيروز آبـادي الأصـل ذو التمكين
ذكر في كتـابـه المشتهر
«سفر السعـادة» الجليـل الخطر
خـاتمـة مهمـة قـد ذكرا
فيها الـذي مـا صح عن خير الـورى
لكـونـه إسنـاده قـد ضعفـا
أو كـون شرط صحـة منـه انتفى

* أرجوزة في سيرة الرسول عليه السلام للأديب علي الفاسي.

وبالرغم من كونهـا مبتورة فقد بقي منهـا 676 بيتـا. نسخها بخط جميل رائع محمد بن أحمد المدعو ابن علّ الحمامي[10] دون تاريخ.

---

9) على الهامش نجد مكتوبا ما يلي : أملى علي هذا الفصل الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم البلنسي وفقه الله وذكر أنه وجده في نسخة قديمة.

10) نسبة إلى قصر الحمام الفوقاني وهو أحد القصور السبعة المكونة لفجيج.

* نظم في سيرة الرسول عليه السلام لأبي عبد الله محمد بن الحسين بن مخلوف الراشدي.

لا يزال منها حوالي 300 بيت.

* الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض اليحصبي المتوفى 544 هـ.

نسخه لنفسه أحمد بن محمد ابن أبي حبل لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة ثمان وسبعمائة، وقابله بأصل الفقيه الأستاذ الضابط المحقق أبي عبد الله الطراز برواية عبد الله بن مليح.

هذا إلى الجامع الصحيح، والتنقيح، والموطأ، والتوضيح والتصحيح لمشكل الجامع الصحيح لجمال الدين محمد بن مالك الطائي الجياني وغيرها من الكتب المشهورة والمتداولة.

☆ ☆ ☆

3 ـ الفقه وما إليه :

* شروح مختصر الشيخ خليل : ومنها :

○ شرح العلامة سيدي عبد الله بن محمد بن مسعود الدرعي.

○ «شفا الغليل في حل مقفل خليل»، تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن غازي المكناسي، تملكه عبد السلام العشاوي.

○ شرح بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز تاج الدين الدميري المتوفى 805 هـ.

○ شرح الفقيه العالم العلامة الولي الصالح الزاهد الناصح المسك الفائح سيدي السوداني، نسخه أبو بكر بن أحمد بن هل، وكان الفراغ منه يوم الثلاثاء بعد العصر من شهر الله شعبان سنة ست وستين بعد الألف.

* الدرة المفردة في شرح العقيدة المرشدة للشيخ الفقيه الأجل القاضي الأعدل الخطيب الأستاذ المقرئ الأكمل أبي عبد الله محمد ابن الشيخ المرحوم أبي العباس أحمد بن إسماعيل بن علي الأموي عرف بابن النقاش وضعه استجابة لرغبة تلميذه محمد ابن زيد عبد الرحمان اليزناسي.

* العمدة في الأحكام في معالم الحلال والحرام وهي العمدة الصغرى تأليف الشيخ المحدث الإمام تقي الدين أبي محمد عبد الغني المقدسي.

نسخ عشية يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ثمان وتسعمائة على يد الفقير عبد الله بن عمر بن عبد الله السليماني المغربي بوادي غريس.

* تأليف في مقاصد الصلاة ونشر فوائدها : وهو مختصر صغير الجرم كبير العلم للشيخ يحيى بن أحمد بن يحيى بن السراج الأوسي (؟)

* منية المصلى وغنية المبتدي لعلي بن حسين بن قل نيروزلي.

فرغ منه في رجب من عام 1053 هـ. وهو مكتوب بخط مشرقي جميل وموثق.

* رسالة البرهان الواضح، في قطع لسان كل كلب نابح، يتعاطى ما ليس في طوقه فباء بالفضائح، للشيخ محمد بن إبراهيم المصمودي.

رتبها على خمسة فصول، والفصل الأول منها في ذكر أحوال المنتصبين للحكم والقضاء من جهلة الطلبة المتصفين بقلة الأمانة ورقة الديانة على حد تعبيره.

* منظومة سيدي عبد الرحمان الرقعي في فرائض ابن رشد.

رجزها سنة 853 هـ.

* أرجوزة في الفرائض أيضا : لأبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني المتوفى سنة 690 هـ.

وقد بقي منها 357 بيت.

* نظم في «أصول الدين بأقرب الطرق في التبيين» لأبي الحجاج الضرير.

ويقيني أن القائمة منظومها ومنثورها طويلة جدا ولولا ما شرطنا في البداية لأوعبنا القول وواصلنا الإحصاء.

☆ ☆ ☆

4 ـ التاريخ وما إليه من تراجم وفهارس وأنساب :

* تأليف في أصول أنساب الأمم من العرب والعجم لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري المتوفى 463 هـ. ولعله المشهور بالقصد الأمم.

* فهرست أبي جعفر أحمد ابن الشيخ المرحوم أبي الحجاج يوسف بن علي الفهري الليلي.

* تأليف في التعريف بالفقيه محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر التلمساني شهر بالمقري وضعه العالم الفذ

أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى عام 914 هـ.

قيده بيده سنة 876 هـ ووافق الفراغ منه غدوة يوم الخميس رابع ربيع الأول.

افتتحه بقوله : «أما بعد حمد الله تعالى والصلاة على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، فإنك أيها السيد الفاضل الإمام العام العامل العلامة العلم الذي لا يضاهي وذو الخلال السنية السنية العثمانية[11] التي لا تتناهى، كلفتني مع قصر باعي وقلة إطلاعي وعدم انطباعي أن أقيد لكمالك وباهر جلالك نبذة من التعريف بالفقيه القاضي...الخ».

وقد بحث الونشريسي في هذا المؤلف النادر ما يلي :

ـ التعريف بالفقيه القاضي المقري ونسبه وعدة تآليفه.

ـ مسألتي شيخه أبي عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النجار التلمساني الهندسي في ضابط الحرمة وتخلل الخمر. وذكر طبقات بني الإمام ومن لقي الأبلي منهم معلما ومتعلما.

ـ قضية بلديه أبي علي الحسن بن عثمان بن عطية التجاني مع عدول بلد مكناسة المحروسة. وقصيدته التي قال فيها.

ـ تعيين ما ذهب إليه العقباني القاضي أبو عثمان سعيد بن محمد بن العقباني التجيبي الأصل التلمساني الدار في مسألة قيطون الإعانة مما ذهب إلي الشيخ الصالح الحافظ المؤلف المفتي أبو العباس أحمد الجذامي الأصل الفاسي الدار الشهير بالقباب[12].

* إجازة الشيخ العالم أبي الطيب محمد بن أحمد بن محمد المصري للشيخ العالم أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بثغر الأسكندرية سنة 822 هـ.

☆ ☆ ☆

5 ـ الحساب والفلك :

* تأليف لأبي الحسن علي ابن أبي محمد بن عبد الله بن محمد بن هيدور في كيفية استنباط الأعداد المتحابة واستخراجها وتمييزها من بين سائر الأعداد، وذكر خواصها وأفعالها في المعدودات وهو ثلاثة فصول.

* المقنع لأهل التعليم في علم الحساب والتنجيم، لمحمد بن سعيد السوسي المرغتي المتوفى عام 1089 هـ. وهو رجز.

* انكشاف الجلباب وكشف الأسرار وهما تأليفان للعالم الفرضي علي بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي والمتوفى عام 899 هـ.

والأول رسالة في قانون الحساب. بينما الثاني رسالة في الجبر.

☆ ☆ ☆

11) يبدو أن الذي كلف الونشريسي بتأليف هذا الكتاب هو صديقه الأود ابن غازي العثماني المكناسي.

12) الصفحة الأولى من الكتاب (مخطوط خاص).

6 ـ الطب :

* شرح أرجوزة في الطب جاء في آخره ما يأتي :

«انقضى القول في شرح هذه الأرجوزة... وكان الفراغ منه في الحادي والعشرين لربيع الأول سنة أربعين وستمائة.

ونسخه بيده لنفسه الحقير لرحمة ربه : محمد بن يوسف بن العباس بن علي الكومي العابدي بحضرة مراكش شرفها الله تعالى بمنه ويمنه».

ومما جاء في الأرجوزة :

وأودعه ما استطعت حتى تمنعه
بكل بارد لكيما تدفعه
وامنعه من تبرك أو يبرا
الزمه في طول السكون الصبرا
والخلع طبه بما يمده
حتى إلى موضعه يرده

* تأليف في تمييز أعيان الأدوية وتحقيقها ومعرفة أسمائها للشيخ الفقيه المحدث أحمد بن محمد بن مفرج الأموي النباتي المعروف **بابن الرومية**. توفي سنة 637 هـ. ولعله أن يكون كتابه المشهور بتفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريس.

* كامل الصناعة الطبيعة، تأليف علي بن عباس المجوسي المتوفى نحو عام 400 هـ.

ولم يبق منه في الخزانة غير الصفحة الأخيرة من المقالة السادسة وبداية المقالة السابعة.

ومعلوم أنه ترجم إلى اللاتينية تحت عنوان آخر، ودون ذكر إسم مؤلفه من لدن قسطنطين الإفريقي. وفي عام 1127 مسيحية ترجمه مرة ثانية اسطفان الأنطاكي وأعطاه عنوانا آخر دونما ذكر مؤلفه. والكتاب يحمل عنوانا ثانيا هو «الكتاب الملكي».

☆ ☆ ☆

7 ـ المنطق :

* شرح الشيخ بناني على السلم المرونق للأخضري.

ويقع ضمن مجموع يحمل عدد 52.

* رسالة في المنطق.

«كان الفراغ من نسخ هذا الشرح المبارك يوم الجمعة عقب عصرها الخير سنة ثمان وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية على يد من علقه لنفسه ثم لمن شاء الله من بعده الفقير الحقير المعرف بالذنب والتقصير، المادّيديه إلى كل جليل وحقير، طالبا منه دعوة ينجو بها من نار السعير، فإنه اكتسب ذنوبا كثيرة في عمر قصير، بدر الدين بن بدر الدين بن أحمد بن محمد بن سيف الدين البرديني مولدا».

☆ ☆ ☆

8 ـ علوم العربية :

* كتاب الجمل الهادية في شرح المقدمة الكافية، إملاء الشيخ الجليل أبي الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ المتوفى عام 469 هـ.

* أنوار المقاييس للحريري.

استفاد منه جل المؤلفين بفجيج كأبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار في كتابه الفريد، وأحمد الشريف السكوني في شرح تنبيه الأنام.

* شرح **الآجر ومية.**

وضعه الأستاذ النحوي اللغوي المقرئ المحقق أبو زيد عبد الرحمان بن علي بن صالح المكودي المتوفى 807 هـ. ونسخه ابن قاسم الشبلي الشريف الحسني عشية يوم الأحد بعد خمسة أيام من ربيع عام تسعين وألف هجرية.

* الجواهر السنية في شرح المقدمة الآجرومية لأبي عبد الله ابن أبي القاسم محمد بن الثعالبي الفاسي المولد، الجزائري المنزل، ويقع ضمن مجموع تحت رقم 52.

* الفتوح القيومية في شرح الآجرومية لأحمد بن أقد بن محمد بن أحمد.

* التبيان في تعيين عطف البيان لأبي العباس أحمد العنابي ضمن مجموع يحمل عدد 52 أيضا.

* المختصر من الكتاب الكبير : إملاء الشيخ الفقيه الأستاذ النحوي أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد البهاري على قصيدة الخزرجي في العروض. ويسمى «العيون الغامزة» ويحتضنه المجموع الذي يحمل عدد 54.

* قصيدة لامية في العروض للشيخ أبي عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن الحاجب، توفي عام 646 هـ. سماها «المقصد الجليل في علم الخليل».

☆ ☆ ☆

9 ـ الأدب :

* شرح مقصورة ابن دريد. ثم نسخها مفتتح ربيع الآخر من عام 685 هـ.

* شرح قصيدة البردة كتبه عبيد الله الفقير الحقير الذليل محمد الصغير بن عبيد الجومي ووافق الفراغ منه يوم الجمعة على الزوال من شهر الله يومين من القعدة عام واحد وسبعين وتسعمائة.

* شرح همزية البوصري

جاء في مقدمته بعد الحمد والتصلية «...**وبعد، فيقول العبد الفقير إلى مولاه العالم بسره ونجواه محمد بن أب بن أحميد بن عثمان المزمري نسبا التواتي مولدا ومنشأ وموطنا، هذه ذخائر كثيرة قصدت بنشر طيها في هذه الأوراق حل ألفاظ الهمزية راجيا من الكريم الوهاب الميسر فتح ما أرتج من الأبواب، الفوز بحسن التهذيب في التأليف والتركيب، والظفر بالصواب عند التعرض للإعراب، وتمام التحرير والتيسير لدى محاولة التقرير والتفسير، والسلامة من ذهول العقل عند تحري ما يناسب من النقل الخ...**

انتسخه تلميذه عبد الرحمان بن عمر التواتي وفرغ من تبييضه لليلة خلت من شهر رمضان سنة أربع وستين ومائة وألف. والنسخة التي اعتمدناها منقولة عنها بخط الفقيه الجليل الأديب الشاعر محمد بن محمد بن العربي بن الحاج المعضادي الفجيجي.

* تأليف في شرح معاني القصيدة العرفانية التي أنشأها نجم الدين محمد بن إسرائيل الدمشقي ومطلعها :

وفى لي من أهواه جهرا بموعدي
فأزعج عذالي عليه وحسدي

والشرح لأبي عبد الله محمد يشهر بابن الدباغ القيرواني.

* كناشة في 64 صفحة تحتوي على قصائد من الملحون لكل من الشاعر عبد العزيز المغراوي والأكحل والسلال وسعيد بن عبد الله التلمساني.

هذا إلى عدد غير قليل من أزجال افتن المغاربة في نظمها. نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

قصيدة الشيخ عبد الله بن محمد الهبطي المسماة بالقصيدة النورانية في المسامرة الربانية.

* قطعة من ديوان أبي العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني الغزي، تقع في أزيد من خمسين ورقة من الكبير.

قال جامعة : إنه ذكر الأبيات التي لأبي العتاهية في منصور بن عمار، ورتب أشعاره على حروف المعجم ليكون أقرب للطالب...الخ.

☆ ☆ ☆

9 ـ التصوف والذكر :

* الحقائق الواضحات في شرح الكلمات الباقيات الصالحات : لأبي العباس أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل الإقليشي الأندلسي، أردفها بأسجاع وأبيات محتوية على عبر وآيات يرددها الوعاظ في وعظهم ويحلون بها عقود لفظهم، وينشدها العباد عند اجتماعهم، ويلهج بها السواح في انقطاعهم، فتحرك سواكن طباعهم... وقد رتب النظم والسجع على حروف المعجم ليكون أتقن وأنظم.

* قطب العارفين ومقامات الأبرار والأصفياء والصديقين : ويليه : «شمائل الخصوص».

وكلاهما من وضع أبي القاسم عبد الرحمان بن يوسف بن عبد الرحمان البجائي، فرغ من تأليف الأول، أول يوم من شهر المحرم عام 577 هـ، ومن الثاني لسبع عشرة ليلة مضت من شهر المحرم في نفس السنة.

وقد انتسخه عبد الله بن محمد بن جعفر الشريف الحسني، ووافق تمام نسخه بعد صلاة العصر من يوم الاثنين آخر شهر الله رجب الفرد عام 1240 هـ.

ويقع ضمن مجموع يحمل عدد 61.

* تأليف في التصوف للشيخ العارف القدوة المحقق عماد الدين بن أحمد الواسطي ويتضمن استنادا إلى صفحته الأولى أربع قواعد هي :

أ ـ قاعدة في أصناف التأله وخصوصية تأله كل طائفة من الطوائف.

ب ـ قاعدة في ذكر أسباب المحبة لله تعالى.

ج ـ قاعدة في أسباب محبة الله تعالى ومعرفته.

د ـ قاعدة في اعتبار أهل الخير وغيرهم.

* تحفة الأخيار في فضل الصلاة والسلام على النبي المختار، أو «تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين» مما عني بجمعه وتأليفه أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل قاسم الرصاع في رمضان من عام 869 هـ.

نسخه محمد بن ضيف الله بن أحمد الهواري النجار المستغانمي الدار مفتتح 971 هـ.

* تأليف في فوائد الصلاة على النبي وفضائلها للفقيه الحافظ المحدث عامر بن الحسين بن الزبير الجسيمي، نسخه أحمد بن أبي بكر بن حمد بن سعيد بن مسعود النضيفي في رجب الفرد من عام 1084 هـ.

☆

☆ ☆

وهذا الحشد من العناوين لا يؤلف في الحقيقة غير أثر الأثر الذي حدثنا عنه ابن عبد السلام ابن ناصر في رحلته الكبرى، أوردناه مظهرا من مظاهر الحياة الفكرية بفجيج أيام عزها كما أوردناه شهادة تدل على مكانتها.

وعسى أن تتوضح أمام أعين القارئ ـ الآن ـ تلك الصورة المشرقة التي رسمناها لها في مقال سابق والتي سعينا لإظهارها بشكل أوضح في هذا المقال المتواضع.



عبد الملك بن حبيب

وكتابه "طب العرب"

تقديم وتحقيق:

الأستاذ محمد العربي الخطابي

لعل أقدم المؤلفات الطبية الأندلسية التي حفظها الزمن، وانتهى إلينا علمها؛ هو تصنيف لأبي مروان عبد الملك بن حبيب السُّلمي الإلبيري، من رجال القرن الثالث الهجري، وهو من إلبيرة، وُلد ونشأ بقرية «قورت»، وقيل بحصن واط من خارج غرناطة، وسكن قرطبة، وأصل أسرته من طليطلة، تلقّى العلم بالأندلس حيث روى عن صعصعة بن سلام، والغازي بن قيس، وزياد بن عبد الرحمن، ثم رحل إلى المشرق سنة 207 أو 208 هـ فحل بمصر وبالمدينة المنورة، ولقي عددا من أصحاب مالك بن أنس، وقيل إنه ربما أدرك إمام دار الهجرة في أخريات حياته.

وسمع ابن حبيب في رحلته هذه من عبد الملك بن الماجشون، ومطرف بن عبد الله، وابرهيم بن المنذر الجذامي، وأصبغ بن الفرج، وعبد الرحمن بن رافع الزبيدي، وإسماعيل ابن أبي أويس، وعبد الله بن عبد الحكم، وعبد الله بن المبارك، وأسد بن موسى وغيرهم.

ورجع ابن حبيب إلى وطنه عام 210 هـ. فحل بإلبيرة، وسرعان ما ذاعت شهرته العلمية، وعُرِفت مكانته، فأمر الأمير عبد الرحمن بن الحكم بنقله إلى قرطبة، حاضرة الإمارة الأموية، حيث رتّبه في طبقة المفتين بها مع يحيى بن يحيى المصمودي الليثي صاحب الإمام مالك والقائم على مذهبه في الأندلس آنذاك.

ويظهر من قراءة كتب الطبقات والتراجم التي تحدثت عن سيرة عبد الملك بن حبيب أن آراء الفقهاء والعلماء فيه متضاربة؛ وقد لخص «ابن الفرضي» تلك الآراء فقال : «**كان عبد الملك حافظا للفقه على مذهب مالك نبيلاً فيه، غير أنه لم يكن له علم بالحديث، ولا معرفة بصحيحه من سقيمه**».

وقال «أحمد بن عبد البر»، فيما نقله عنه «ابن الفرضي» و«القاضي عياض» - مع اختلاف طفيف في اللفظ - : «**كان ابن حبيب جمّاعا للعلم، كثير الكتب، طويل اللسان، فقيها، نحوياً، عروضيا، شاعراً، نسابة أخبارياً، وكان أكثر من يختلف إليه الملوك وأبناؤهم وأهل الأدب**».

ويبدو أن هذه المعارف المتنوعة التي أتيحت لابن حبيب وظهرت في مؤلفاته العديدة كانت من أسباب اختلاف الرأي فيه، مع الإجماع على تضلعه بالفقه المالكي، وقد نقل «القاضي عياض» في «ترتيب المدارك» أن الفقهاء كانوا يحسدون عبد الملك بن حبيب «**لتقدمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها**».

وربما يكون من أسباب التحامل عليه أيضا قربه من الأمراء وذوي السلطان، واختلاف أبنائهم إلى مجالسه

العلمية، مع أنه كان من أهل الورع والدين، منتصراً لقول مالك ذابا عنه، فاتهم لذلك بطول اللسان.

ويظهر أن عبد الملك بن حبيب ألّف كتباً كثيرة العدد، قيل إنها تجاوزت الألف، وتناولت علوماً مختلفة، كالفقه والحديث والسِّير والشمائل والتراجم والتاريخ والطبّ.

ومن أشهر مؤلفاته في السنن والفقه :

كتاب «**الواضحة**» الذي كثيراً ما قيل عنه إنه لم يؤلَّف مثله، **ولم يبق من هذا الكتاب سوى قطعة محفوظة بخزانة جامعة القرويين بفاس.**

ومن مؤلفاته الباقية : «**تلخيص في علم الفرائض**» يوجد محفوظا في برلين.

ومجلد من كتاب «**الورع**» محفوظ بالمكتبة الوطنية في مدريد.

ونسخة مخطوطة من كتاب «**التاريخ**» محفوظة بأكسفورد.

وقد أثار هذا الكتاب الأخير جدلا بين الباحثين من حيث قيمته العلمية وصحة نسبته إلى ابن حبيب، وهو كتاب يظهر أن أحد تلاميذه قد أضاف إليه فصولا[1].

ومن مؤلفاته الأخرى التي وصلت إلينا «**مختصر في الطب**» محفوظ بالخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط[2] وهو الذي سنقدم أهم فصوله فيما بعد.

ذكر مؤلفو التراجم كتاباً لعبد الملك عنوانه «**الحسبة في الأمراض**»، ولم يذكر أحد منهم موضوع هذا الكتاب ولا أبوابه وفصوله، وانفرد الطبيب النبّاتي أبو القاسم الغساني الوزير (ت 1019 هـ/1611م) بنقل معلومات من كتاب الطب لابن حبيب سماه الغساني «**كتاب طب العرب**»[3]. وهذه المعلومات تطابق بالحرف ما جاء في مختصر ابن حبيب، والظاهر أن ناسخ هذا المختصر قد اقتصر على حذف الأسانيد من الكتاب الأصلي، كما يُفهم من الكلام الوارد في صدر الصفحة الأخيرة من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط، وقد لاحظنا أن تسمية الكتاب بطب العرب ـ تناسب موضوعه، كما سنبين بعد لأي، وكذلك القول في تسميته الواردة في كتب التراجم : «الحسبة في الأمراض» والحسبة قد يفهم منها أحد أمرين :

إما حسن التدبير، وهو من معاني لفظ الحِسبة في لغة العرب.

وإما أن الكتاب وضع لإرشاد مزاولي خطة الحِسبة بخصوص الأحكام الشرعية المتعلقة بمهنة الطب.

وإذا رجعنا إلى المخطوطة الفريدة التي أطلق عليها اسم «مختصر في الطب» فإننا نجدها مقسمة إلى قسمين :

1) **القسم الأول :** يعرض فيه المؤلف جملة من الأخبار الواردة في مسائل الطب والأدوية، وفيها طائفة من الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين، وتقريراتهم، مع اجتهادات أئمة الفقه.

ونستخلص من هذا القسم كذلك جملةً من الممارسات الطبية العربية في الجاهلية والإسلام، كالبطّ وعلاج الجراحات وبتر الأعضاء المصابة، واستعمال المَرقِد ـ أي البنج ونحوه ـ في العمليات الجراحية الصعبة، وفيه ذكر لأنواع الأدوية المستعملة، وبعض طرق العلاج التي كانت متداولة عند العرب، كاللَّدود، والإعلاق، والكي، وما إلى ذلك.

ويكثر في هذا القسم وُرود اسم الطبيب العربي «الحارث بن كَلَدَة الثقفي» الذي أدرك الإسلام، كما ترد فيه

---

1) آخر ما صدر في هذا الموضوع بحث لخورخي أكوادي Jorge Aguade الأستاذ بجامعة مدريد، (انظر : Actas de las Jornadas de Cultura Arabe Islamica-Instituto Hispano-arabe de Cultura, Madrid 1985 pp. 9-16.

2) فهرس المخطوطات العربية، الرباط 1958، الجزء الثاني، ص 332، رقم 2640.

3) انظر كتاب «حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، تحقيق محمد العربي الخطابي، ص 46: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1405 هـ/1985م.

أسماء بعض النساء اللواتي اشتهرن بالتطبيب: «**كأسماء بنت عويس**»، زوجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ومن الأبواب الفقهية الهامة في هذا القسم الأول: ما جاء به في ضمان من يتطبب بعلم أو بغير علم، وفيما يحل التداوي به من الأدوية، أو يحرم أو يكره، **فضلاً عما فيه من الطب النبوي الذي يجعل منه أول كتاب صنف في العربية في هذا الموضوع**[4].

وأما القسم الثاني من الكتاب فقد عني فيه المؤلف ببيان أمزجة الأطعمة والأشربة والرياحين والأزهار وما فيها من منافع دوائية أو مضار، وقد استعرض المؤلف عدداً من الأغذية الحيوانية والنباتية، كاللحوم والدهنيات والألبان والثمار والبقول والحبوب، كما ذكر عدداً من الأشربة، وهو ما سنتعرض له في الكتاب الذي نعده في موضوع **الأدوية والأغذية في التراث الطبي والصيدلي الأندلسي**.

من المسائل التي قد تثير الانتباه في كتاب ابن حبيب: ما يتعرض له من مسائل تتعلق بالأمزجة الأربعة - التي يسميها المؤلف أخلاطاً، وهي البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة - والطبائع التي يقصد بها المؤلف ما يعرف عند الأطباء الأوائل بالأخلاط (الدم والبلغم والصفراء والسوداء)، وهو يتكلم أيضا على اعتدال المزاج وانحرافه، وما يلزم لكل حالة من نظام غذائي مناسب.

وقد استقى عبد الملك بن حبيب كثيراً من معلوماته من بعض رواة الأخبار: كوهب بن منبه (توفي عام 114 هـ/732م)، كما استقاها من «أهل المدينة ممن لهم معرفة بالطب» - كما قال، وهذا يدفع إلى الظن أن كثيراً من المعلومات الطبية التي يظن أنها وصلت إلى العرب والمسلمين من طريق الكتب التي ترجمت من اليونانية أو السريانية في القرنين الثاني والثالث من الهجرة، كانت معروفة لدى العرب في عصر بزوغ الإسلام وقبله، فمن أين عرفوها ؟ أمن طريق المدارس التي كانت منتشرة في شمال الجزيرة العربية في البلاد التي استظلت فيما بعد بحكم الإسلام، كمدرسة الرها ونصيبين وجنديسابور ؟ وهذه المدينة الأخيرة هي التي تعلم في مدرستها الحارث بن كلدة الثقفي.

لا نستطيع الآن أن نقطع بقول فصّل في هذا الموضوع، إلا أنه لا يصعب علينا مع ذلك التسليم بأن بلاد العرب قبيل الإسلام، وفي زمان ظهوره، كان فيها أطباء يمارسون مهنتهم، عرفوا بذلك، ونال بعضهم شهرة واسعة، كالحارث بن كلدة، وبأنهم كانوا يعرفون من أمر الداء والدواء وطرق العلاج الشيء الكثير، وبأن تأثير الأمم المجاورة لهم في ذلك لا يمكن نكرانه.

ومن هنا يظهر أن كتاب «طب العرب» لعبد الملك* ابن حبيب ذو أهمية مؤكدة في دراسة تاريخ العلوم عند العرب والكشف عن بداياته وعن مدى تأثر الطب العربي في صدر الإسلام بغيره، وتتجلى أهمية هذا الكتاب أيضا في كونه أول تأليف أندلسي في الطب يصل إلينا.

كتاب طب العرب

القسم الأول

1) ما جاء في الأمر بالتداوي والعلاج.

عن مطرّف بن عبد الله عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم : أن رجلا في زمان رسول الله ﷺ جرح فاحتقن الجرح بالدم وأن الرجل دعا برجلين من بني أنمار، فنظرا إليه فقال لهما رسول الله ﷺ : «أيكما أطب»، فقالا : أفي

4) من المؤلفين في موضوع الطب النبوي : أبو بكر السني (346 هـ)، وأبو نعيم أحمد الأصبهاني (430 هـ)، وعبد اللطيف البغدادي (629 هـ)، والحافظ الذهبي (748 هـ)، وابن قيم الجوزية (751 هـ)، وعبد الرحمن السيوطي (911 هـ).

*) من مصادر ترجمة عبد الملك بن حبيب :
- تاريخ العلماء لابن الفرضي 1 : 312 - 315.
- بغية الملتمس للضبي 364 - 365.
- ترتيب المدارك للقاضي عياض.
- الإحاطة لابن الخطيب 3 : 548 - 553.
- الديباج المذهب لابن فرحون 2 : 8 - 15.

الطب خير يا رسول الله ؟، فقال رسول الله ﷺ : «أنزل الدواء الذي أنزل الداء»[1] فأمرهما رسول الله ﷺ حينئذ بمداواته فبطّا الجرح وغَسلاه ثم خاطاه.

وعن زيد بن أسلم : أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ وقد نَصَلَ في بطنه نصْل، فدعا رسولُ الله ﷺ رجلين من العرب كانا متطببين فقال لهما : أيكما أطب ؟ فقالا : أوَ في الطب خير يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أنزل الدواء الذي ابتلى بالداء». فقال أحدهما : أنا أطب الرجلين يا رسول الله، فأمره رسول الله ﷺ بمداواته فبط بطنه واستخرج النَّصل ثم خاطه.

وكان عند عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ طبيبان بعث بأحدهما إليه معاوية والآخر عبد الله بن ربيعة.

2) مــا جــاء في جــواز عرض البــول على الطبيب.

عن عمر بن عثمان قال : رأيت بولَ عمر بن عبد العزيز في زجاجة عند الطبيب ينظر إليه. وعن الواقدي عن يزيد مولى الزناد أنه قال : رأيت الزهري وأبا الزناد بالرُّصافة يُريان الطبيبَ البول. قال الواقدي : وقد رأيت مالكاً والثوري يُرسلان بالبول إلى الطبيب ينظر إليه إلا أن الثوري كان يبعث به إلى الحيرة.

3) ما جاء في حِمْية المريض.

ابن حبيب، قال : سمعتهم يقولون : عَوِّدْ جسماً ما تعود، وخير الطب التجربة ورأس الطب الحِمْية، وقد حَمى رسول الله ﷺ وأمر بالحمية عمرَ بن الخطاب وغيره من الصحابة. وبلغني أن عمر قال للحارث ابن كلدة : ما الدواء ؟ قال : الحمية.

وروى ابن حبيب ـ مسنداً ـ أن عليا دخل على رسول الله ﷺ وهو حديث عهد بحمى فأتى رسول الله ﷺ بِرُطَبٍ فأراد عليّ أن يقع فيها فمنعه رسول الله ﷺ وطرح إليه رَطَبة رُطَبة فأكل حتى انتهى إلى سبع رطبات ثم قال : «حسبك إنك ناقة». وعن أم المنذر المازنية قالت : دخلت على رسول الله ﷺ وعلي يأكل منها (أي من الرُّطب)، قالت فطفق رسول الله ﷺ يقول لعلي : مهلا إنك ناقه حتى كفّ، وقد صنعت له سِلْقا وخبز شعير فلما جئت به قال رسول الله ﷺ : «مِنْ هذا فأصب فهو أوفق لك». فأكل من ذلك، قال الواقدي : فهو عندنا بالمدينة يقال له سلق الأنصار، وهو البرمق[2]، قال عبد الملك : البرمق هو القَطف، وكانت عائشة تنعت سلق الأنصار للمحموم وتقول : هو صالح، وكانت تحمي المريض (أي تأمره بالحِمية).

3) ما جاء في الحجامة وما يرجى من نفعها.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «ما مررت ليلةَ أُسري بي على مَلك من الملائكة إلا قالوا : يا محمد مُرْ أمتك بالحجامة». وعن رسول الله ﷺ قال : «جعل الله الشفاء في العسل وفي الحجامة فاحتجموا فإن الدم يقبع بالإنسان حتى يقتله». وعن نافع عن رسول الله ﷺ أنه يقول : من احتجم فعلى بركة الله، وهو على الريق أفضل، وتزيد في الحفظ وتُذهب البلغم؛ وعن ابن عَبّاس أن رسول الله ﷺ قال : «نعم الدواء الحجامة تَذهِب الداء والصداع وتخف الصلب وتجلو البصر».

قال حكيم بن حزام : مما علمنا من طب العرب في الجاهلية ترك الحجامة للشيخ.

4) ما جاء في علاج الحمى.

قال رسول الله ﷺ : «الحمى من فيح جهنم فأبردها بالماء». وكانت أسماء بنت أبي بكر إذا أتتها امرأة محمومة

---

1) ورد هذا الحديث في موطأ الإمام مالك، أنظر «الطب النبوي» لابن قيم الجوزية تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط اللذين خرجا الأحاديث النبوية الواردة في الطب؛ وانظر أيضا الطب النبوي للحافظ الذهبي، تحقيق أحمد رفعت البدراوي؛ والأحاديث التي ذكرها عبد الملك بن حبيب واردة في هذين الكتابين، ولذلك لم نر ضرورة للإكثار من الهوامش.

2) السلق والبرمق من فصيلة واحدة (البرمقيات Chenopodiancene)، إلا أنهما مختلفان جنساً.

تأخذ الماء فتصبه بينها وبين جيبها وتقول : «إن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نبردها بالماء». ورُوي أن رجلا شكا الحُمّى إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : «اغسل ثلاث مرات قبل طلوع الشمس، وقل باسم الله وبالله اذهبي يا أمّ مَلدم، فإن لم تذهب فاغتسل سبعاً.

5) ما جاء في علاج الخاصرة.

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : «وجع الخاصرة من عِرْق الكُلْية فمن وجد منها شيئا فعليه بالعسل والماء المُحْرق» - يعني الحميم - قالت عائشة : «وكانت الخاصرة برسول الله ﷺ وكانت تشتدّ به حتى إن كانت لتُسهده».

وروي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سأل الحارث ابن كلدة الثقفي عن دواء الخاصرة، قال : الحُلبة تُطبخ ويجعل فيها سمن البقر. قال الحارث : وأما إذا كنا على غير الإسلام فالخمر وسمن البقر. قال عمر : لا نسمع منك ذكر الخمر فإني لا آمن إن طالت مدةٌ من لا ورع له أن يتداوى بها.

6) ما جاء في الإثمد وعلاج البصر.

قال رسول الله ﷺ : «عليكم بالإثمد فاكتحلوا به عند منامكم فإنه خير أكحالكم، وهو يجلو البصر، ويُذهب القذر ويُنبت الشعر ويجف الدمع». وكانت لرسول الله ﷺ مُكْحُلَة فيها إثمد يكتحل منها عند النوم. وسمع رسول الله ﷺ يقول : «الكَمْأة[3] من المن وماؤها شفاء للعين» قال عبد الملك : تُعصَر وهي رطبة ثم يُرفع (عصيرها) ويُكْتحل به من اشتكى عينَه من الرَّمَد وغيره. وكانوا يكرهون أكل الحلاوة وأكل التمر والرُّطَب لصاحب الرمد.

وقال ابن المنكدر : لم يُرَ لكاتب ولا لعامل أي شيء خير لبصره من النظر إلى الخضرة.

وسئل مالك عن الضرير البصر يُقْدَح الماءُ من عينيه فيمكث أربعين ليلة أو أقل من ذلك أو أكثر لا يصلي إلا إيماءً برأسه، فقال : أكره ذلك.

ولما نزل الماء في عين ابن عباس أتاه طبيب قال : أنا أقدح الماء من عينيك وتستلقي على ظهرك أربعين يوماً يرجع إليك بصرك؛ فكره ذلك ابن عباس، وقال : ما كنت لأشتري بترك صلاتي. ومثل هذا عن ابن الماجشون حرفاً بحرف.

قال عبد الملك : قال مالك : «ولو كان إنما يستلقي من قدح الماء من عينيه اليومَ الواحد ونحوَه لرأيت ذلك خفيفاً، ولو استطاع أن يصلي جالساً يومئ برأسه في الركوع والسجود في الأربعين ليلة لم أر لذلك بأساً.

وعن حبيب بن سَلمة أنه قال : «ما رمدت عيني ولا جربت، وذلك أني لم أجد حُكاكاً بعيني ولا جلدي إلا مسحتهما بريقي.

7) ما جاء في علاج الصُّداع.

قال رسول الله ﷺ : «الصُّداع مرض الأنبياء»، وكانت عائشة - رضي الله عنها - تنعت لصاحب الدُّوام - يعني الدوار - أن يأكل سبع تمرات ضحوةً كل يوم على الريق سبعةَ أيام.

وكان رسول الله ﷺ إذا أصابه الصداع غلف رأسه بالحِنّاء، وكان يُصْدَع من الوحي إذا نزل عليه.

وعن أم كلثوم بنت أبي بكر أن رسول الله ﷺ دخل على عائشة وبها حرارة بصداع فأخذ رسول الله ﷺ خَلَق عمامته فشقها عصائب فعصب بها مفاصل يديها ورجليها فذهب ما كانت تجد.

وكان الحارث بن كلدة يأمر الذي به الصداع والحرارة أن يستعط بحُضُض[4] بالماء لا يخالط بغيره، وربما أمر بالصبغ العربي مع شيء من الكُنْدُر.

---

3) الكمأة : صنف من الفطر، وهو بلغة عامة أهل المغرب : الترفاس، واسمه العلمي Tuber magnatum.

4) الحضض : هو عصارة الصَّبِر، ويعرف في المغرب بالخولان المكي.

قال عبد الملك : والكُنْدر هو اللُّبان، والحضض : كُحل خولان.

وكان رسول الله ﷺ يأمر بالاستعاط بالكست (القُسط) الهندي من الصداع، يؤخذ الكست فيحك بالسِّمسم أو بالزّنبق ثم يسعط به من به صداع.

9) ما جاء في علاج الدماميل.

عن إبراهيم بن محمد الهندي قال : ينفع بإذن الله من الدماميل أن تأخذَ من العنب الأحمر خمسين عِنبة أو نحوها فتطبخ بالماء حتى يعود الماء إلى الثلث ثم تشربه وتأكل العنب.

10) ما جاء في العُذْرة

عن جابر بن عبد الله أن امرأةً دخلت على عائشة بابن لها وبه العُذْرة وقد أعلقت عنه وأنفه يسيل دماً فدخل رسول الله ﷺ فرآه فقال : ويلكنّ لا تقتلن أولادكن بالإعلاق، أيما امرأة أصاب ولدها عُذرة أو وجع في رأسه فلتأخذ قُسطا هنديا[5] وشيئا من الحَبة السوداء فلتحكه بشيء من زيت ثم تسعطه إياه. فأمر رسول الله ﷺ عائشة ففعلت ذلك فبرئ.

قال عبد الملك : فسألت قُدامة عن علاج ذلك فقال : تأخذ سبع حبات من الحبة السوداء... فتجعلها في شيء من زيت ثم تَسْهكها سهكاً حتى تنماع ثم تأخذ عُويداً من قُسط مرّ فتَسهكه في ذلك الزيت سهكاً فتُقبل به وتُدبر... ثم تقطره في منخريه. وإن كان ذلك في الصيف في شدة الحر فليكن ذلك مع شيء من لبن امرأة... فإنه بارد.

قال لي قدامة : وتفسير الإعلاق : أن تحدّ الحديدة أو العود حتى يصير كحدّ السهم ثم يحدد طرفه شديداً ثم يدخل الحلق واللهاة حيث العُذرة فيُبَط به حتى يسيل الدم، والعُذرة شبيه السلفاغ[6].

11) ما جاء في علاج الجذام.

وروى ابن الأزدي كاتبُ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه أصابه الجذام فقال عمر للحارث بن كلدة : عالجْه. قال : يا أمير المؤمنين : أما أن يبرأ فلا، ولكن أداويه حتى يقف مرضه، قال عمر : فذلك. فكان الحارث يأمر بالحنظل الرّطب فيدهن به قدميه لا يزيده على ذلك فوقف مرضه حتى مات.

12) ما جاء في الكيّ والبطّ وقطع العروق.

قال عبد الملك بن حبيب : الكيّ والبطّ وقطع العروق مكروهة إلا من اضْطُرَ إليها لداء لا دواء له إلا فيه وأمر لا يوجد منه بدّ. فأما على حال التداوي مما فيه المندوحة بغيره عنه فلا يجوز فعله، لم تزل الكراهية فيه في الآثار وفي الفتيا من أهل العلم. جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إن بي عِرْق النَّسا وقد أردت قطعه، فقال رسول الله ﷺ : «لا تقطعه ولكن امترق له وخذ ألية كبش عربي أسود فتذاب ثم اشربه على الريق ثلاثة أيام وادهن به فإنه ينفع بإذن الله من عرق النسا»[7].

ونهى ابن مسعود عن قطع اللهاة.

وعن جابر بن عبد الله أن ابن سعد بن وقاص رُمِي بسهم في يده فأمر رسول الله ﷺ طبيباً فكواه على موضع الرمية.

وروى مالك عن نافع عن عمر أنه اكتوى من اللقوة. وقال مالك : لا بأس بالكيّ والبطّ وقطع العروق لمن اضْطُر إليه ولم يجد منه بداً.

---

5) القسط شجر من فصيلة الزنجبيليات، من نوع الكلخ، ويطلق القسط على أصل هذا الشجر، ومن القسط حلو ومر، والمر هو القسط الهندي، واسمه العلمي Costus arabicus.

6) جاء في كتاب الطب النبوي لابن قيم الجوزية (ص 133) عن أبي عبيدة : أن العذرة تهيج في الحلق من الدم، وقيل العذرة قرحة تخرج فيما بين الأذن والحلق، وتعرض للصبيان غالبا، وقد يكون المقصود هو التهاب اللوزتين.

7) في كتاب «الطب النبوي» لابن قيم الجوزية، ص 101 ـ 103 تفصيل في أمر جواز قطع العرق والكي مع بيان وجه الكراهة فيما ورد من أحاديث شريفة في ذلك.

وعن أنس بن مالك أنه اكتوى في عهد رسول الله ﷺ من ذات الجنب.

وروي أن المقداد بن الأسود كان عظيم البطن قد أضرَّ به الشحم وأغمّه حتى كان يوقفه على الموت فبطّ بطنه مرتين يُخرج منه الشحم على غير مرض إلا كثرة الشحم فمات من ذلك على آخر البط.

وخرج عُروة بن الزبير إلى الوليد بن عبد الملك فأصابت رجله الشأفة[8] فعظمت ثم آلت إلى الأكِلَة فأراد عروة قطعها فدعا له الوليد الأطباء فقالوا له: إن أنت قطعتها قتلت نفسك، فقال: لابدَّ من قطعها فاقطعوا. قالوا: فنسقيك المُرْقِد، قال: ولِمَ؟ قالوا: لئلا ترى ولا تحسّ ما نصنع لك. قال: لا أشربه، فأخذوا منشاراً فأحموه حتى صار كالجمرة ثم قطعوا به ساقه فوق الكعب بأربعة أصابع ثم أدخلوها في الزيت تفور فما تحرك.

13) معالجة امرأة يموت ولدها في بطنها.

عن الأوزاعي أن امرأةً عسر ولدها في رحمها فأمر عمر بن عبد العزيز الطبيبَ أن يُقَوِّر ثوبها على فرجها ويُدخل يده فيقطعه ففعل ثم جعل بعضه في رحمها عطوا[9]، وقال لا بأس بذلك.

وعنه أيضا وعن مكحول وعطاء وغيرهم من التابعين، قالوا في المرأة بها الجرح وغيره: لا بأس أن يداويها الرجل يأخذ ثوبها فيلف به ما حول الفرج حتى لا يرى غير الجرح ثم يداويه.

14) ما جاء في ضمان الطبيب.

قال رسول الله ﷺ «من تطبب ولم يُعرَف قبل ذلك بطب فهو ضامن.

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يتقدم إلى المتطببين ويقول: من وضع يده من المتطببين في علاج أحد فهو ضامن إلا أن يكون طبيباً معروفاً. وقَدِم طبيب معروف من نجد فداوى رجلاً من الأنصار فمات فَرُفِع إلى عمر بن الخطاب فقال: ما حملك على أن تضع يدك على هذا وليس لك طبٌّ تُعرَف به؟ قال: يا أمير المؤمنين: أنا طبيب العرب، ولكنَّ أَجَلَه انقضى، فسأل عنه عُبادة بن الصامت فقال عبادة: يا أمير المؤمنين هو من أطبِّ الناس، فخلّاه عمر.

قال عبد الملك: وإنما تفسير هذا أن يموت المريض من علاج الطبيب من بَطِّه أو كَيِّه أو من قطعه أو من شقِّه ولم تُخطئ يدُه في شيء ولم يخالف، فعند ذلك لا يكون عليه ضمان إذا كان معروفاً بالطب، وإذا لم يكن معروفا بالطب فهو ضامن لذلك في ماله ولا تحمل ذلك العاقلة ولا قَوَدَ عليه لأنه لم يتعمد قتله وإنما أخطأ الذي طلب من أصابت مداواته بجهله ذلك، وعليه من السلطان العقوبة... ومنعه من أن يعالج بعده أحداً. فأما إذا أخطأ الطبيب في كَيِّه أو بطِّه أو شقِّه فيكوي حيث لا يُكْوى أو يقطع عرقاً لا يقطع أو يَبطّ حيث لا يُبَطّ أو يَسقي ما لا يؤمن شُرْبه أو يجاوز قدرَه فيموت (العليل) من ذلك فهو ضامن وإن كان طبيباً معروفا بالطبّ وبالبصر به لأنه جناية يده بخطإ، وذاك على عاقلته إذا جاوز ما أصاب ثلث الدية، ولا عقوبة عليه لأنه يُعذَر بجهلٍ ولم يتعمد بيد ولا بقلب حتى زَلَّت يده أو حديده في سرعتها، وكذلك قال مالك: إذا كان الطبيب معروفاً بالطبّ فلا ضمان عليه إلا أن يتعدّى أو يُخطئ فيكون ذلك على العاقلة إن بلغت ثلث الدية، وإن قال أقل من ذلك ففي ماله. قال مالك: وكذلك الخاتن يَختن فيموت الصبيّ من اختتانه: إن كان بصيراً

---

8) الشأفة: قرحة خشنة صلبة تستأصل بالكي، وقيل إنها إذا قطعت مات صاحبها.

9) هكذا في النسخة، ولعل المقصود: ثم جعل يعطوه عطوا أي يتناوله بيده، وقد يكون المقصود: يعطه عطا: أي يشقه طولا وعرضا.

بعمل معروفاً به فلا شيء عليه، وإن لم يكن معروفا فهو ضامن من ذلك في ماله وعليه العقوبة. قال : وإن كان أخطأ أو قطع ما لا يُقطع أو مضت يدُه إلى البيضة أو ما أشبه ذلك من الخطإ وتعدّى الصوابَ فهو ضامن : كان بصيراً بعمله معروفاً به أو غير معروف. وإن كان غير معروف به ففي ماله قليلا كان أو كثيراً، وإن كان بصيراً بعمله معروفاً به فذلك على عاقلته إذا جاوز ذلك ثلثَ الدية، وإنما يفترقان في العقوبة، يعاقَب غير المعروف بذلك العمل، وتُصرف العقوبة عن المعروف بعمله البصير به. وكذلك قال مالك في ذلك كله[10].

وإن كان الطبيب نصرانياً فسقى المسلمَ فمات فعلى السلطان أن يكشفه عما سقاه وإن كان طبيباً معروفا بالطبّ وبالبصر به للمظنة التي تواقعه لعداوة النصارى للمسلمين.

15) ما جاء في مداواة الجراح.

رُوي أن رسول الله ﷺ تداوى لمّا أصيب بوجهه يوم أُحُد برمادِ حصيرٍ مُحْرَق.

قال عبدُ الملك : أراه حصيراً من دوم لأنها حُصُر المدينة وأما الحلفاء فلم أره بها.

16) ما جاء في التعالُج بالسَّعوط واللَّدود والوَجور والغمز والتمريخ والكماد والتذليع.

رُوي أن رسول الله ﷺ غشي عليه في مرضه الذي مات منه فتخوفوا أن يكون به ذات الجنب فلدّوه فوجد خفافاً فأفاق فقال : ما صنعتم ؟ قالوا لددناك يا رسولَ الله، قال : بماذا ؟ قالوا : بالعود الهندي - يعني القُسْط - وبشيء من وَرْس وقطرات من زيد (زيت)، قال : من أمركم بذلك ؟ قالوا : أسماء بنت عويس، قال : هذا طبٌّ أصابته بأرض الحبشة، ثم قال : لا يبقينّ أحدكم في البيت إلا الُتدّ إلا ما كان من عمّي - يعني العباس - قال : ما الذي تخافون علي ؟ قالوا : ذات الجنب، قال : ما كان الله ليُسلطها علي، ولكن هذا من شأن اليهودية يومَ خيبر.

قال عبد الملك : وسمعتهم يستحبّون للمريض السعوط واللدود والغمس (الغمز) والتمريخ والكماد والتلذيع، ويذكرون أن رسول الله ﷺ نهى عن العلق ونهى عن الكي، وقال : اجعلوا الكماد مكانه والتلذيع. وقد سعط رسول الله ﷺ.

وقال عطاء بن أبي رباح : اللدود سبعة أشفية لسبعة أدواء منها ذات الجنب يلد بالقُسط والورس والملح الدراني.

وعن جابر بن عبد الله قال : حَطَرّ رسول الله ﷺ بيده لسعد بن زرارة من الذبحة. حَطَرّ : لذع والتحطير هو التلذيع.

قال عبد الملك : وتفسير **التلذيع** : أن تَحمي المِسَلة وما أشبهها من الإبر والحديد الدقيق فيلذع بها صاحب الذبحة أو ما أشبه ذلك من الأوجاع، فكذلك التلذيع يغني عن الكي، والكماد معه يغني عن الكي.

وتفسير **الكماد** أن يُسَخّن الملح ثم يربط بخرقة فيكمّد به في موضع الوجع من البطن أو الجسد، أو يُحْمى الشقف فيفعل به مثل ذلك، والملح والشعير والرماد السخن خير من الشقف. **والغمز** : غمز القدمين والساقين واليدين والذراعين وسائر المفاصل والجسد فإنه جيد. **والتمريخ** أن يُمَرّخ الجسد بالدهن إن كان به حرارة فيدهن بالنفسج، وإن كانت به برودة فبالزيت، يسخن بشيء من خل. وإن كان من مليلة فالصندل : يسخن ويحتمل به ثم يذاب بالزئبق حتى يصير كالمخ فيمرخ به الجسد والمفاصل فإنه يذهب المليلة وأوجاع الجسد كلها.

---

10) بحث ابن عبد الملك في هذا الباب مسألة فقهية هامة تتعلق بمسؤولية من يتصدى لعلاج المرضى بعلم أو بغير علم فيخطئ ويقتل المريض، وقد توسع ابن قيم الجوزية في هذا الموضوع وذكر اختلاف الأئمة فيه، انظر كتابه : «الطب النبوي» ص 135 - 146.

وأما اللدود فبأن يعالج الذي وصفنا فوق هذا من اللدود فيجعل في مِلدَّة ذاتِ أنبوبة ثم يرفع اللسان فيصب تحته.

وأما العلق فهو الإعلاق وتفسيره : أن يَرفع اللهاة ويُدخل الأصبع في الحلق فيخدش الحلق بها أو بعود حتى يدمى.

والنفخ : أن يسدّ فمه وينفخ في مخرجه أو يسدّ مخرجه وينفخ في فمه، وقد نُهي عنه وعن العلق. عن الشعبي عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : اجعلوا السّعوط مكان العلق واللدود مكان الكي. وعن أم أنس (انيس) بنت محصن أنها أتت رسول الله ﷺ بابن لها وقد أعلقت عنه من العُذْرة فقال لها رسول الله ﷺ :علام تدعن أولادكن بهذه الاعلاق، عليكم بالعود الهندي فإن فيه سبعة أشفية يلد من ذات الجنب ويسعط من العُذرة.

17) ما جاء في التعالج بالحُقن.

قال عبد الملك بن حبيب : كان من مضى من السلف وأهل العلم يكرهون التعالج بالحقن إلا من ضرورة غالبة لا يوجد عن التعالج بالحقنة مندوحة بغيرها. ورُوي أن رجلاً عليلاً جلس إلى عمر بن الخطاب فسأله عمر عن علته فأخبره وقال : إنه ليقال ما لي دواء أوفق من الحقنة، فقال له عمر : إذا وجدت من شكواك شيئاً فعد لها. وعن الواقدي قال : كان علي وابن عباس ومجاهد والشعبي والزهري وعطاء وابرهيم النّخَعي وأبو بكر بن حزم والحكم بن عيينة وربيعة وابن هرمز يكرهونها إلا من ضرورة غالبة، وكانوا يقولون : لا تعرفها العرب وهي من فعل العجم، وهي طرف من عمل قوم لوط.

قال عبد الملك : وأخبرني مُطرّف عن مالك أنه كرهها وذكر أن عمر بن الخطاب كرهها، وقال : هي شعبة من عمل قوم لوط.

قال عبد الملك : وسمعنا ابن الماجشون يكرهها ويقول : كان علماؤنا يكرهونها.

18) ما جاء في التعالج بالمشي من السّنا والشُّبْرُم وأشباهها من العقاقير[11].

عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال : عليكم بأربع فإن فيهن شفاء من كلّ داء إلا من السامّ : - وهو الموت - السّنا والسّنّوت (أي الكمّون) والثّفا والحبة السوداء.

قال عبد الله : والسنا : القثاء لغة ثم السنوت الشبة، والثُّفاء : الحُرف، والحبة السوداء : الشونيز.

قال رسول الله ﷺ : ماذا في الأمَرَّين من الشفاء : الصَّبِر والثُّفاء - يعنى الحُرف -.

وعن أسماء بنت عويس أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها شُبْرم فقال لها : ما هذا ؟ فقالت : شبرم يا رسول الله أردت أن أستمشي، فقال لها : إنه حارٌ جارٌ - يعني أنه يجر الداء -، قالت : ودخل علي مرة أخرى وعندي سنا فقلت : يا رسول الله أردت أن أستمشي بهذا، فقال رسول الله ﷺ : لو كان شيء يشفى من الموت لشفي منه السّنا، فكانت أسماء تنهى بعده عن الشُّبرم لحرارته، وكانت إذا شربت السنا تَعجنه بالزيت.

ووصف الحارث بن كلدة لعمر بن الخطاب شرب السنا يطبخ بالزيت، وأنه ينفع من الخامّ ووجع الظهر، فأرسل عمر إلى أزواج النبي ﷺ بنعت ذلك، فكن يتعالجن به، وكانت عائشة لا تَعيبه.

وعن حبيب عن مالك أن رسول الله ﷺ قال : عليكم بالسنا وإياكم والشّبرم فإنه حارّ جارّ - يعنى أنه يجري بالداء -.

وعن مالك أن رسول الله ﷺ قال : عليكم بالأشيبوش فإنه مَرْهم البطن، قال : الأشيبوش : بزرقطونا.

---

11) المشي والاستمشاء : يراد بهما استطلاق البطن بالأدوية المسهلة.

19) ما جاء فيما يُكْره التعالج بـه من الـدواء الخبيث.

عن مجاهـد أنَّ رسول اللـه ﷺ نهى عن شرب الـدواء الخبيث وهـو الـذي يبقى في الأمعـاء ويقتـل صاحبـه من العقاقير المسمومة مثل السقمونية وتكّـاوت والشبرم والحنظل والعلقم وأشباهها فإن التعالج بها مكروه.

وقد سئل مالك عن التعالج بها فكرهها ونهى عنهـا إلا من اضْطُرَّ لشـدة داء ويكون الـذي يعـالج بهـا ثقة مـأمونـا عالماً بالطبّ والعلاج به.

وسئل رسول الله ﷺ عن الخمر يَتداوى بها المريض والصبيان فقال : «لاتقربوها فإنها داء... وقـال : ليس فيمـا حَرَّم الله شفاء».

وعنه ﷺ : ما جعل الله في شيء حَرَّمه شفاءً لأحد.

وقال مـالـك : لا يَحلّ لأحـد أن يـداوي دُبُر الـدوابّ بالخمر، فكيف بمداواة المريض بها، وكان ابن عمر إذا دعـا طبيباً يداوي أهلـه اشترط عليه ألا يـداوي بشيء ممـا حَرَم الله.

20) ما يكره من التعالج بالمـاء المر والحميم وماء الشمس.

عن الحسن بن علي أنه قـال : المـاء العـذب مبـارك، فأما الماء المر فملعون فلا تتداووا به.

وكره رسول الله ﷺ شرب الماء الحميم للـدواء، قـال، عبد الملك : وذلك إذا كان وحده، فـأمـا إذا كـان بـالعسل فقد أمر به رسول الله للخاصرة، وما كان بالكَمّون وما أشبهه من الأشجار الحارّة فذلك القـاشور ولا بَـأس بـه، بل هو من جيد العلاج للمعدة وبرد الجوف.

وقال عمر بن الخطاب : لا تغتسلـوا بماء الشمس فـإنـه يورث البَرص، قال عبد الملك : وقـد رُوي عن غير واحـد من أهل العلم أنهم كـانوا يغتسلـون بـه فـاجتنبوه لنهي عمر خيفة ما ذكر.

21) ما جاء في التعالج بألبان الأتـان ومرارة السبع.

سئل رسول الله ﷺ عن التـداوي بشرب ألبـان الأتُن، فقال : لا بأس به.

وكـانت رملة بنت المُسوّر قـد اشتكت رِجْلَهـا فنعت لها ألبانُ الأتُن تداوى بها فكـانت تشربهـا، والمـور يعلمـه ولا ينكره.

وعن الواقدي : أن سعيد بن المسيِّب والقاسم بن محمد وعطاء بن ربـاح ومالـك بن أنس قـالوا : لا بـأس بـالتـداوي بشربها.

وعن القـاسم بن محمـد أنَّه سئل عن التـداوي بمرارة الذئب وغيره من السِّباع فقال : لا بأس به لمن اضْطُر إليه. قال الواقـدي : وقـالـه الزهرى وسعيـد بن جبير والحسن بن سيرين وقاله مالك بن أنس، وذلك إذا ذكي بمـا يـذكى بـه الصيد لمرارته ولما يتداوي به ولا يؤخذ من ميت.

22 ما جاء في التعالج بالترياق.

وروي أن عمر بن عبـد العـزيـز استعمـل الـوليـد بن هشـام على الطـائف وزَوّده التِّريـاق وأمره أن يَسقيـه لمن لُدِغ من المسلمين. وكـان بن عمر يشرب التِّريـاق ولا يرى به بأسـاً.

قال ابن أبي شُبْرمة : وسـألت ربيعـة وأبـا الزِّنـاد عنـه فقالا لي : اشربه ولا تسأل عنه، وعليك بعمل أريحا، فـأمـا إن عملته أنت فلا تجعل فيه إلا حية ذكية.

23) مـا جـاء في فضل دُهْنِ البنفسـج على غيره.

روي أن رسول الله ﷺ قـال : عليكم بـدُهن البنفسج فإن فضله على سائر الأدهان كفضلي على أدناكم.

24) ما جاء في عِلاج البَلغم والنِّسيـان ومـا يورث الحفظ.

قـال رسـول الله ﷺ : أَكْلُ اللبـان يـورث الحفـظ ويُذهِب النسيان ويقطع البَلغم.

وكان أبو بكر المنكدر يصيب الشونيز بالعسل كلّ غُدوة ويقول : هو أجل ما يتعالج به من البلغم، ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يصيبها كل غُدوة.

وعن الحَكَم بن عُيينة قال : كان رسول الله ﷺ لا ينام ليلةً حتى يأكل مثقال شونيز بعسل فإذا أصبح أكل مثل ذلك للحفظ ولذهاب البَلغم.

وعن علي - رضي الله عنه - أنّ رسول الله ﷺ قال : ثلاثةٌ يُذهبن البلغمَ من غير علاج : السّواك والصيام وتلاوة القرآن.

قال عبد الملك : أكل اللُّبان يذهب البلغم، وكل ما أذهب البلغم فهو يُذهِب النسيان ويورث الحفظ.

25) ما جاء في علاج الصدر والحلق والفم.

عن ابرهيم بن محمد قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يلتقطون البَرَدَ لرسول الله ﷺ فيأكله، ويقول : إنه يُذهِب أكلة الأسنان.

العسل : يجلو البصر ويشدّ الفؤاد ويعالج الدُّبَيْلات والدماميل والقَرْحة. وقد يُشرب العسل ممزوجاً بماء السماء.

ألبان البقر : كان الحارث بن كلدة يَنعتها للأوجاع في البطن، ويقول : لا تشربوا اللبن إلا مخيضاً، وكان ينهى عن شربه في الصيف.

الزيت : كان رسول الله ﷺ يأمر بأكل الزيت والدُّهن به.

الكُنْدر : (أي اللّبان) كان رسول الله ﷺ يأمر بالتداوي به واتخاذه بَخوراً، فإنه يشدّ القلب ويقطع البلغم ويورث الحفظ ويزيد في العقل ويُذهِب النسيان. ويُبَخّر به وبالحرمل والشيح والمر والصعتر.

الحرمل : يتداوى به للرمد والغاشية، ويفتح الشهية، يُطحن ويُنخل ويجعل في قِدْرة جديدة ثم يُصَبّ عليه زيتٌ حلو حتى يصير مثل السّويق ثم يفتر على النار ثم يَشْرب منه (العليل) على الريق كأساً يوالي عليه أياماً. ومَنْ شكا صُلبَه أو بطنَه أو قدميه أو فؤادَه يَسْفّ منه على الريق وعند النوم ما طاب له. ومن كان به صداع فليطبخ أصول الحرمل وأغصانَه وورقه بالماء طبخاً جيداً ثم يحمله على رأسه حتى يُصبح. ومن كان به زكام فليبخّر به حلقه ومنخره، ومن كانت به حمرة فليسحقه ويعجنه بخل ثم يطلى به موضع الحمرة. وإن أرادت المرأة السِّمَنَ فلتطبخه مع قمح طبخاً جيداً حتى يتهرأ ثم تُطعمه دجاجةً حتى تسمن ثم تذبح الدجاجة وتأكلها وحدها لا تأكل معها غيرها وتوالي عليها. ويُسْعط به من به الجنون، يأخذ منه حبّاتٍ فيشمها ويجعل معها شيئاً من فُجلٍ وثوم... فإن لم يكن له ماء رششته ثم عصرت منه في منخريه قطرات، توالي ذلك كلما أصابه وتبخره به.

الحَبّة السوداء : قال رسول الله ﷺ : «رأيت حبة سوداء فيها شفاء من كل داء» فأوتي بالفلفل فقال : لا، ثم أوتي بشونيز فقال : هي هذه.

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «ما من داء إلا وفي الحبة السوداء منه شفاء إلا السامّ» والسامّ الموت.

وكان الحارث بن كلدة ينعت الشونيز بدهن ويقول : هو جيده. عبد الملك : ينفع الشونيز - إذا قُلي وصُرّ في خرقة وشمّه العليل - من زكام البَلّة إذا كان من البرد، وينفع من ذلك أيضا إذا استُعط به. وإذا شرب قتل حبّ القرع[12] في البطن. وإذا عجن بالعسل وشرب بماء حار أذاب الحصاة التي تكون في الكُليتين والمثانة ويدر الحيض والبول.

الكست : (وهو القسط الهندي).

قال عبد الملك : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : عليكم بالكست فإن فيه سبعة أشفية : يُلَدّ من ذات الجنب ويلدّ من وجع الفؤاد ويسعط من العُذْرة ويسعط من الصداع ويُتَبَخر به من الزكام، قال عبد الملك : ونسيت اثنين.

12) حب القرع : دود من الطفيليات يشبه حب القرع في شكله.

الحنّاء.

قال عبد الملك بن حبيب : بلغني أن الحنّاء دواءُ رسول الله ﷺ إذا أصابه خَدش أو جُرح أو قَرحة وضع عليه الحنّاء حتى يرى أثره على جلده، وكان إذا صُدِعَ غلف رأسه بالحناء، وكان لا يشتكي إليه أحدٌ وجعا برجليه إلا أمره بالحنّاء أن يخضبهما به.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من دخل الحمام فأصاب هذه النُّورَة ولم يصب شيئا من حناء فأصابه وَضَحٌ فلا يلوم إلا نفسه».

الحُرْف والشَّبة والحُلبة والرِّجْلة والكَرَفس.

كان رسول الله ﷺ يوصي بالتداوي بالثُّفاء (وهو الحُرْف) والسَّنّوت (وهو الشبة) والحُلبة. وعنه ﷺ «الرِّجلة شفاء من تسعين داء أدناها الصُّداع».

التَّلبين.

أمر رسول الله ﷺ بالتلبين وقال : فيه بركة، وقال : لو رَدَّ الموتَ شيءٌ لرَدَّه التلبين، ومعنى التلبين أن يُعجن الدقيق ثم يحلل بالماء ثم يُطبخ ويصفى.

الوباء.

شكا قوم إلى عمر - رضي الله عنه - وباءً بأرضهم فقال : لو تركتموها، فقالوا : هي معايشنا ومعايش عيالنا، فسأل عمر عن ذلك الحارث بن كَلَدة فقال : يا أمير المؤمنين : البلاد العربية هي ذات أنْجال، والبَعوض والزِّبْر والنَّجل هي الوباء، ولكن لو خرج أهلها منها قريباً إلى أن ترتفع الثريا وأكلوا بها البَصل والكُرّاث والثوم وتداووا بالسمن العربي يشربونه ويَمسون طيباً ولم يمشوا فيه حفاةً ولم يناموا بالنهار رجوت أن يسلموا من الوباء، فأمرهم عمر بذلك. قال عبد الملك : والأنجال : الغدور واحدها نَجل، والزِّبر : الأرض، وقوله : ترتفع الثريا : فإن مبتدأ طلوع الثريا في النصف من مايو وهو بدء الشتاء واستقبال الصيف، فأمرهم أن يتخلوا عن موضعهم حتى ترتفع الثريا - يعني أن يخرج عنهم الربيعُ كلّه ويشتد الصيف فتذهب نداوة الأرض وينقطع بعوضها.

القسم الثاني

الباب الأول

«الأطعمة كلها والأشربة والثمار والرياحين من الأخلاط الأربعة من الحر والبرد واليُبس والرطوبة، فما كان منها موافقاً لطبائع الإنسان سُمّي **معتدلاً** وما جاوز الاعتدال من ذلك جُزِّئَ أربعَة أجزاء وحُدَّ أربعةَ حدود، فما جاوز الاعتدال باليسير نُسِب إلى الجزء الأول والحدّ الأول من الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة، وما جاوز ذلك اليسير بالقليل أيضاً نسب إلى الجزء الثاني والحدّ الثاني، وما قوي من ذلك وأربى نُسِب إلى الجزء الثالث والحدّ الثالث، وما أفرط في القوة وأضر بطبائع الجسد حتى يفسد ويمرض نسب إلى الجزء الرابع والحدّ الرابع.

فينبغي للإنسان ألاّ يصيب من الأطعمة والأشربة إلا ما وافق منها طبائع جسده وعَدَّلها حتى يكون مزاجها معتدلاً، وأنه إن بَغى عليه شيء من طبائعه أن يلزم الطعام والشراب بضده حتى يكسر به ما بغى عليه من طبائعه، فإن طبائع الجسد - التي هي قوامه - أربعة : الدم والبلغم والمرة الحمراء[13] والمرة السوداء، وهي إنما رُكِّبت من الأخلاط الأربعة من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، فالدم حارٌّ رطب حلو، والبَلغم بارد رطب مالح، والمِرّة الحمراء (الصفراء) حارة يابسة مُرّة، والمرة السوداء باردة

13) تكرر ذكر المرة الحمراء في كلام ابن حبيب، وقد أجمع الأطباء اليونانيون والمسلمون على تسميتها بالمرة الصفراء. فهل يكون هذا من تصحيف الناسخ أم من وهم عبد الملك بن حبيب نفسه ؟.

يابسة حامضة، فإذا بغى عليه الدم ـ وهو حارّ رطب حلو ـ لزم من الطعام والشراب كلّ بارد يابس حامض، وإذا بغى عليه البلغم ـ وهو بارد رطب مالح ـ لزم من الطعام والشراب كل حار يابس، وإذا بغت عليه المرة الحمراء (الصفراء) ـ وهي حارة يابسة مُرّة ـ لزم من الطعام والشراب كل رطب بارد مالح، وإذا بغت عليه المرة السوداء ـ وهي باردة يابسة حامضة ـ لزم من الطعام والشراب كلّ رطب حارّ... ومن اعتدل مزاجه لزمته الصحة وجانبه السقم بإذن الله.

«والطعام والشراب كله على أربعة أوجه : حلوٌ ومرٌّ وحامض ومالح، وفيه أربعة أمزجة : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، فالحلو كله حارّ رطب، والمر كله حارّ يابس، والحامض كله بارد يابس، والمالح كله بارد رطب هـ».

«إن الإنسان يكون غلاماً سبع عشرة سنة وشاباً سبع عشرة سنة وكهلاً سبع عشرة سنة وشيخاً إلى آخر عمره، فمزاج الغلام الدم وهو حارّ ذو ابتلال، وأخوف السنة عليه الربيع لأنّ فيه سلطان مزاجه وكذلك الربيع حارّ ذو ابتلال فإن يثور عليه غير الدم فهو آمن عليه، ومزاج الشاب المِرّة الحمراء (الصفراء) ومزاجه حارّ يابس، وأخوف السنة عليه الصيف لأنّ فيه سلطان مزاجه، وكذلك الصيف حارّ يابس فإن يثور عليه غير المرة الحمراء فهو آمن عليه، ومزاج الكهل المرة السوداء ومزاجه باردٌ يابس وأخوف السنة عليه الخريف لأن فيه سلطان مزاجه، وكذلك الخريف بارد يابس فإن تثور عليه غير المرة السوداء فهو آمن عليه، ومزاج الشيخ الخام[14] والبلغم ومزاجهما بارد ذو ابتلال وأخوف السنة عليه الشتاء لأن فيه سلطان مزاجه وكذلك الشتاء بارد ذو ابتلال فإن يثور عليه غيرُ الخام والبلغم فهو آمن عليه.

«واعلم أن منزل الدم الكبد إلى العروق إلى القلب[15]، والقلب حارٌّ ذو ابتلال وكذلك العروق والكبد، ومنزلة المرة السوداء الطيحال وهو بارد يابس، ومنزل البلغم الرئة ومعدنه الرأس، منه مهبطه إلى الصّدر إلى الرئة، والرئة باردة ذات ابتلال، ومنزل الخامّ المفاصل، ومنزل الريح الأمعاء.

«قال عبد الملك عن وهب بن منبه : لما خلق الله آدم جعلَ في جسده تسعةَ أبواب، سبعة في رأسه واثنين في جسده، وجعل عقله في دماغه وسِرّه في كليتيه، وغضبه ورحمته في كبده، وندامته في قلبه، ورغبته ونَفَسَه في رئته، وضحكه في طيحاله، وفرحه وحزنه في وجهه، وهمومه في صدره، وشهوته في فرجه، وذريته في صُلبه، وقوته في مَنِيِّه، وجعل له عشرة أصابع في يده قوةً ليديه وعشرة أصابع في رجليه قوّةً لرجليه، وجعل له بابين منهما يسمع قلبُه وبابين يُبصر بهما قلبه، وهما نور جسده، وجعل له باباً يعيش جسده منه وجعل له فيه لساناً يُبين كلامه وحنكاً يجيد به طعم كل شيء ومَنْخِرين يجد بهما ريح كلّ شيء، وجعل له بابين يخرج منهما ثُقْلُ طعامه وشرابه، وجعل فيه ثلاثة مائة وستين مفصلاً وثلاثة مائة وستين عظماً وثلاثة مائة وستين عرقا ساكناً وثلاثة مائة وستين عرقاً نابضاً فلو سكن عرق من النابضة ما نفعه عيش ولو نفض عرق من الساكنة ما نفعه عيش هـ».

«وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : الحلق للصوت، واللسان للحروف، والقلب للعقل، والكبد للحزن، والكُليتان للرأي والمكر، والرئة للنَّفَس، والقلب والطيحال للضحك هـ».

«قال عبد الملك : أصل العقل القلب ومحله الدماغ، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ «جوارح الجسد أعوانٌ القلب، والقلب مَلِكها، فالرِّجْلان يدودان، واليدان جناحان والعينان

14) سبق للمؤلف أن ذكر في معرض الكلام على الأخلاط «أن الخام من البلغم، وهو أصله، فما كان تحت الصدر إلى القدم فالخام ومن الصدر إلى الرأس فالبلغم، والبواسير من الخام».

15) يظهر هنا شبه بمذهب جالينوس الذي يرى أن الكبد هي منزل الدم، وخالفه في ذلك أبو الوليد ابن رشد الذي يؤكد أن منزل الدم الذي يجري في العروق هو القلب.

مرتادتان واللسان ترجمان والأذنان تعيان والكُليتان مدبرتان، والطيحال للضحك والفرح، والكبد للحزن والغضب والرحمة، والرئة للتَّنفس، والدماغ للعقل، والأنثيان للنسل، والصدر للهمّ والأنفُ للشم، والشفتان للذوق، والقلب مَلِك ذلك كلّه فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبث جنوده «فقال له عبد الملك بن سلام وكعب الأحبار : والله يا أمير المؤمنين إنه لهكذا عندنا فيما قرأنا من الكتب».

«وقال وهب بن مُنبِّه : لما خلق الله آدم ركب جسده من أربعة أشياء : من اليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة، وذلك لأنه خلقه من تراب وماء ثم جعل فيه نفساً وروحاً، فيبوسته من قِبَل التراب ورطوبته من قبل الماء وحرارته من قبل النفس وبرودته من قبل الروح؛ ثم خلق الله فيه من بعد هذا الخلق أربعة أمزجة هي قوام جسده وملاكه لا يقوم جسده إلا بها ولا يقوم مزاج أحد منها إلا بأقرانه وهي : الدم والبلغم والمرة الحمراء (الصفراء) والمرة السوداء، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض فجعل مَسكن اليبوسة في المرّة السوداء ومسكن الحرارة في المرّة الحمراء (الصفراء) ومسكن الرطوبة في الدم ومسكن البرودة في البلغم، فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الأمزجة الأربعة التي جعلها الله قوام جسده فصار كل مزاج منها رُبْعاً لا يزيد ولا ينقص كملت صحته واعتدلت فطرته وكان سائرُ جسده وغرائزه مستوية، فإن زاد مزاج منها عن ربعه غلبته الأمزجة الثلاثة وقهرته ودخل عليه السّقم بقدر نقصانه وعجزه عن مقارنتها. فينبغي للطبيب العالم بالداء والدواء أن يَعْلم من أين سقم الجسد بزيادة المزاج أو من نقصانه، ويعلم الدواء الذي يعالج به فينقص منه إن كان زائداً ويزيد فيه إن كان ناقصاً حتى يقيمه على فطرته، قال : وجعل الله هذا الخلق الذي وصفنا عنه بناء أخلاق بني آدم في طبائعهم التي بها تُعرف أفعالهم، فمن اليبوسة العزم، ومن الرطوبة اللين، ومن الحرارة الحدّة، ومن البرودة الأناة؛ فإن مالت به اليبوسة كان عزمه قساوة، وإن مالت به الرطوبة كان لينه مشانة، وإن مالت به الحرارة كانت حدته سفهاً وطيشاً، وإن مالت به البرودة كانت أناته بلادة».

«واعلم أن الدم حلو ذو ابتلال فإذا تَثَوَّر فعالجه باليابس البارد الحامض، والمرة الحمراء (الصفراء) حارة يابسة فإذا تَثَوَّرت فعالجها بالبارد النديّ الحلو، والمرة السوداء باردة يابسة حامضة فإذا تثورت فعالجها بالسخن النديّ الحلو والبلغم بارد رطب مالح فإذا تثور فعالجه بالحار اليابس الحلو».

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني

فما علينا نحن إلا أن نزيد عملا تلو عمل، وخطى تلو خطى حتى يمكن لجميع من يجاهد في سبيل هذه الدولة وفي سبيل هذا الشعب على تخوم حدوده أو في مكاتبه أو في معامله أو في حقوله، حتى يمكن لنا جميعا نحن جنود هذه الأمة أن نقوم بواجبنا، بالواجب الذي يفرضه علينا الدين والمواطنة، ويفرضه علينا ماضينا الذي نعيشه اليوم.

من خطاب جلالته بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب يوم 20 غشت 1977

لله درك يا حسن

للشاعر أحمد عبد السلام البقالي

تأثر الشاعر بما ورد في الخطاب الملكي في افتتاح البرلمان من توجيهات إصلاحية أدخلت السرور والارتياح على جميع المواطنين، فسجل انفعاله وابتهاجه بالحدث في هذه القصيدة :

للـــــه درك، يـــــا حسن !   لا فض فـــــوك، ولا وهن !
مـــــا قلت إلا كـــــل مـــــا   سر المـــــواطن والـــــوطن

لله درك يا حسن

☆ ☆ ☆

اللـــــه ألهمـــــك الفكر   أوحى إليـــــك بمـــــا أمر
فكـــــأنمـــــا جعـــــل القضـــــا   ء مسخرا لـــــك والقـــــدر

وأراك ما يخفي الزمن..

☆ ☆ ☆

رأس المنـــــارة أنت مـــــا أعـــلاك، يـــــا حسن الحمى
وأحـــــدك فكرك كلمـــــا لاحت غيـــوم في السمـــــا
وأشد حبك للوطن !

☆ ☆ ☆

تـــأتي الريـــاح ببعض مـــا لا تشتهي سفن الشعـــــوب
أمـــا ريـــاحـــك، يـــا حبيـــب، فتطمئن لهـــا القلـــوب
والغم يذهب والشجن

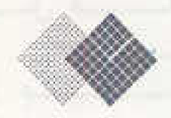
☆ ☆ ☆

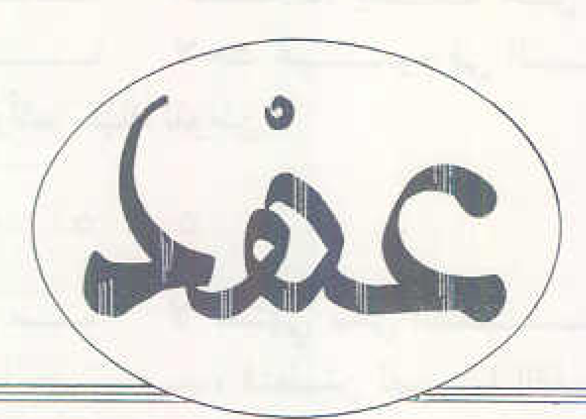
خلـــدت شعبـــك في الـــزمن، وأنرت خـــارطـــة الـــوطن،
واسم المسيرة بـــاسمـــك الـ (م) ميمـــون، يـــا حسن، اقترن
وبكل ذاكرة سكن..

☆ ☆ ☆

هي مثـــل ســـور الصين أو نيـــل الكنـــانـــة والهرم
رفعت لأمتنـــا مكـــا نـــا عـــاليـــا بين الأمم
والعصر بـــالحـــدث افتتن للـــه درك يـــا حسن !

☆ ☆ ☆





للأستاذ المهدي الدليرو

للـــــه نحن نضـــــاعف الشكرا
في كـــل عـــــام يحضن الـــــذكرى
وعـــدالـــة تحتـل مـوقعهــا القضيــــه
بحقيقـــة الصحراء أرضــا مغربيــــه

☆☆☆☆

والجهـــد في تخـــدير وعي النـــاس
عبثـــا : بقـــول فـــارغ الفحـــوى
أو شبـــه فعـل قـــاصر الجـــدوى
مردوده المقرون بـــــالإفـــلاس
لم يقلـــق الجيش الحبيب إلى التحـــدي
والتصـــدي

يرعـــــاه من عرش القيـــــاده
تـاج السيـــاده
ملـــــك تحلّى فكره المبـــــدع
بتفتّـح مقنـــع
أو لم يحكّم منطقـــــــــــا وعرا
تعلّقـا بالسلـم ؟
وإذ الكبـــــار تـــولّـــوا الأمرا
تجمّلـوا بالحلـم

☆ ☆ ☆ ☆

لكن تمشيـــــــط الحـــــــدود
ولــــــــــــــو من الظن
أملـى وجـود
حزامنـا الأمنـي

☆ ☆ ☆ ☆

والأمـــــة الحبلى بســـــؤددهــــا
مـن مهدهــا
لا تستسيـــغ لضعفهـــا طعمـــا
أبـــــدا، ولا تتحمّـــل الضيمـــا

☆ ☆ ☆ ☆

فــاهنـــأ قرير العين مرتـــاح السريره
يـــا عهـــد... يـــا قسم المسيره

الرّأيُ رأيُكَ صائبٌ ومُوفّقٌ

للشاعر عبد الواحد السولامي

قـــامت تطـــاول هـــامـــة الجوزاء ... وتنـــــاوئ الانـــــواء في الأجـــــواء
قـــامت لتنشر من تليـــد جهـــادهـــا ... صحفـــا مـــزركشـــة بلـــون دمـــــاء
والرايـــة الحمراء يـــا قـــومي بـــدت ... مـــزهـــوة الأعطـــــاف في خيـــلاء
خفـــاقـــة في أفـــق وادينـــا، لهـــا ... وهـــج تـــلألأ في ربيـــع رجـــــاء
لاحت فـــلاح البشر من أعطـــافهـــا ... واستبشر الـــــوادي بيـــــوم جـــلاء
«وادي الـذهب» فـك الحصـار جنودنـا ... عنـــــه فـــلاحت نجمـــــة الصحراء
«الـــداخلـــة» الحسنـــاء أسفر وجههـــا ... عن كـــوكب الإشراق في الظلمـــــاء
بـــدرت تجـــدد عهـــدهـــا في بيعـــة ... غمرت رحـــاب القصر بـــالشرفـــــاء
تلـــك الخيـــام خيـــامهـــا، فـــوفـــودهـــا ... جـــاءت تُبـــايـــع عن رضى ووفـــاء
الشـــوق يحـــدوهـــا وفي جنبـــاتهـــا ... حب عريـــــق دب في الأحشـــــــاء
ميراث أجـــــداد بـــــه أوصـــوا فبـــا ... ت وصيـــــة الآبـــــاء لـــلأبنـــــاء
ولجُـــوا رِحـــاب القصر صفـــا واحـــدا ... أكبـــــادهم في لهفـــــة للقـــــاء
وأهـــــل رمـــــز خـــلاصهم فتفتحت ... أبصـــــــارهم ترنـــــو لنجم سماء
نـــور الجـــلال يحف طلعتـــــه التي ... حسنت فـــأضحت بهجـــة للرائي

يخطو الهوينى في تؤادته، وفي ... نظراته معنى لكل إباء

«طلق الجبين، وفيه فضل مهابة ... يغضي لها ذو المقلة الشوساء»

حيا بيُمناه الوفود فطأطأت ... وخطت إليه تزف عهد ولاء

فتقبل الحسن العظيم ولاءها ... ثم انثنت تزهو بخير غطاء :

وعطاؤه تلك البنادق جهزت ... لتصد عنهم جولة السفهاء

ضجّتْ رحاب القصر من دعواتهم ... وهتافهم في ساحة العلياء

وتعهدوا ألا ينيلوا خصمهم ... منهم، وفيهم قطرة لدماء

«لا يرحم الرحمان مصرع مارق ... عبثت بطاعته يد الأهواء»

نالوا رضى الحسن المهاب وقبلوا ... يد من أتاح الوصل بعد جفاء

لاحت علامات الرضى في وجهه ... فارتاحت الأرواح بعد عناء

وهج الوداع تألق يختال في ... أفق تورد في أصيل سماء

وتماوج الإشعاع وردي السنا ... قوس الغمام يموج في الأضواء

فاخضر من بعد الذبول رجاؤهم ... لا فصل بعد الوصل للصحراء

عادوا إلى الوادي المذهب كلهم ... ظَمِئٌ لينهل من دم الأعداء

الثأر يحفزهم فكل مدجج ... في عزمه يحكي عقاب سماء

وتسارعوا نحو الحمى بوثيقة ... مختومة أضحت مناط رجاء

والفرحة الكبرى تعم بلادنا ... والداخلة الحسناء في خيلاء

تزهو بلألاء الضياء كغادة ... ممشوقة تجلى ليوم لقاء

عمت يد التجديد كل رحابها ... واخضر وادي الساقية الحمراء

الداخلة الحسناء في ذكرى الجلا ... ء عروسة تختال في الأزياء

والراية الحمراء في أرجائها ... خفاقة في أفقها الوضاء

قامت تذكرنا بأبطال الحمى ... الواهبين دماءهم بسخاء

الذاكرين العهد يوم كريهة ... الباذلين الروح يوم فداء

الكاسرين لقيدنا، والناشر ... ين لذكرنا. في عالم الأحياء

أبطالنا الشهداء طاب، ثراهمو ... حيوا جهارا زمرة الشهداء

حيوا مليك بلادنا رمز الفدى ... والقائد التواق للعلياء

الحسن والإحسان من أسمائه ... ومن الصفات شجاعة في مضاء

عـــــــاش المحرر والمقرر إذ نرى ... فيمـــــا يقرر بسمــــــة لرجـــــاء

يـــا كـــوكب الإسعـــاد أنت مَـلاذُنـــا ... وسراجنـــــا في الليلــــة الظلمـــــاء

الرأي رأيـــك صـــائب ومـــوفـــق ... والحــــظ فرع فراســـــة وذكــــاء

وهب الإلاه لـــك النبـــاهـــة حيثمـــا ... يَمَّمتَ سُــــدْتَ بهـــــا على النُّظراء

واصـــل مسيرك فـــالعنـــايـــة واكبت ... تفكيرك العــــــالي بكـــل فنــــاء

تبني تحطـــــــــط تقتفي أثر الأولى ... قهروا الـــزمـــــان بهمـــــة قعســـاء

وثبـــات عـــزمـــك بلبلت أفكـــار مَن ... قـــد خيمـــوا في الـــواحـــة الغنـــاء

وخطـــاك ثـــابتـــة تعـــززهـــا عـــزيـ ... ـمتـــك التي قـــادت لعهـــد رخـــاء

قسمـــا بمجـــدك يـــا مليـــك بـــلادنـــا ... وبحبـــك الـــوثـــاب في الأحشـــاء

مـــا إن ترى فينـــا ســـوى متـــأهب ... للثـــأر، سبـــــاق إلى الهيجـــــاء

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني

شعبي العزيز

لم نكن لنصل إلى هاته النتائج لولا الثقة الموجودة بيني وبينك، تلك الثقة المبنية على الاحترام المتبادل، والمحبة المتبادلة التي ولدت هي بدورها الوعي بعدما أصبح وعيا صادقا وإيمانا راسخا ولد الطاعة والانضباط والنظام، وهذا كله أتى بالنتائج المتوخاة وبالأهداف المنشودة.

من خطاب 9 نونبر 1975

عيد المسيرة

للدكتور علال الخياري

حسن المعالي... يا سنا الأوطان   يشدو بحبك خاطري وجناني
لبت نداءك للمسيرة أمة   تهوى العلا... حسنية الوجدان
شمس المعالي منك شع ضياؤها   ورهان مجد منك إثر رهان
يا فرحة الصحراء تشدو بالمنى   وإذا ربانا فرحة وأغان
نهدي السلام إلى علاك، وغرسنا   ينمو بما أوليت من إحسان

*****

حسن المعالي... قدت ركب مسيرة   للفتح بالإيمان والقرآن
للمجد للنصر... أنت تحدو ركبنا   شهما، كريما، صادق الإيمان
من دوحة نبوية.. نفحاتها   آيات إعجاز، وحسن بيان
أعليت للإسلام صرحا شامخا   فرآك نصرته، وأكرم بان
وطلعت في أفق العروبة كوكبا   أنواره شعت بكل مكان
والأطلس الغالي... سمت أعلامه   في وحدة مرصوصة البنيان
يختال زهوا في المحاسن رافلا   متألقا بالعلم والعرفان

*****

عيـــد المسيرة، والبشـــائر، والمنى ... في مـــوكب زاهي الرؤى مـــزدان

يا عيد وحدتنا.. وأنت على المدى ... أنشـــودة في مسمـــع الأزمـــان

نـــاج الظـلال الـوارفـات، ونهضـة ... مثلى، وإنمـــاء، وخضر جنـــان

يـــا حبنـــا.. واليت الجهـاد مضحيـــا ... من أجلنـــــا في السر والإعـــلان

دافعت عن شرف البـلاد ومجـــدهـــا ... ووقفت مـوقف فـــارس الفرســـان

وإذا بيـــانـــك رأي أمتـــك التي ... تفـــديـــك بـــالأرواح والأبـــدان

فـــاسلم لأمتنـــا منـــار هـــدايـــة ... ومـــلاذ إلهـــام، ورمـــز أمـــاني

هـــذي، إذا استعصى البيـــان، عـــواطفي ... كم في العـــواطف من سمـــو معـــان

من توجيهات

جلالة الملك

الحسن الثاني

وها أنت شعبي العزيز، برهنت مرة أخرى على أنك تبذل وتعطي. وماذا تعطي وتبذل ؟ تبذل وتعطي أغلى ما عندك ألا وهو روحك، حياتك، حياتك في البيت، وجودك مع أهلك، حياتك العادية، وهذا كله أعطيته لبلدك بكيفية تلقائية، بكيفية تجعل كل أحد جعله الله سبحانه وتعالى على رأسك يحمده ليل نهار أن يزيده من فضله ويحيطه بتوفيقه، حتى يتمكن من القيام بواجبه نحو شعب كالشعب المغربي.

تعقيب على مقال :

حكم برمجة القرآن الكريم في الكمبيوتر

للأستاذ محمد الحاج ناصر

ـ 3 ـ

يتراءى لنا أن الأستاذ الحبيب أدرك إدراكا عميقا أنه أوقع نفسه في حرج، حين وقر في فكره ما وقر، من الدعوة إلى برمجة القرآن الكريم في الحسيب. ويبدو لنا أن الفكرة تمكنت منه قبل أن يستوعب ملابساتها ومعقباتها استيعابا كاملا شاملا، فلما أخذ يرسم مسوغاتها ويتقصى سبل الإحتجاج بها، واجهته حقائق لم يجد إلى تجاهلها أو إغفالها سبيلا، ولم يستطع أن ينزل عند مقتضياتها، فينصرف عن هذه الفكرة التي تمكنت منه، ولعل تمكنها منه كان بدافع الرغبة في «المعاصرة» العقلية والعملية و«الانعتاق» من شبهة الجمود على الماضي عملا وتفكيرا. فالذي يتأمل الفقرة الثانية والثالثة والرابعة من شرحه، لما «تبين» له بعد التأمل في المخاوف والمحاذير التي نبهت عليها تقارير الجامعات والجهات المختصة السعودية وهي مصدره في فكرته هذه، لا يملك إلا أن يشفق عليه أشد الإشفاق وأعمقه من الحرج الذي وجد نفسه فيه، وأخذ يحاول جاهدا مكدوداً أن ينعتق منه وأن يهون من أسبابه.

فالمحذور الأول الذي واجهه هو تعريض قدسية القرآن لما لا يتفق معها بتفريغه في أوعية قد لا تتوفر لها دائما أسباب الحفظ والصيانة الواجب توفرها للمصاحف القرآنية، فمن البدهي أنه يعلم علم اليقين أن رسول الله ﷺ نهى عن السفر بالصحف القرآنية إلى دار الكفر، وأن عددا من التابعين وتابعي التابعين والجيل الذي تلاهم كانوا يتحرجون من كتابة القرآن في المصاحف، بحيث يشيع تداولها بين الناس، ومنهم من لا يبيح قراءة القرآن من المصحف في الصلاة حتى ولو لمجرد نفي الشك والتثبت من عدم اللحن في قراءته. ولسنا ممن يذهب هذا المذهب، وإنما نسوقه لمجرد تذكير الأستاذ الحبيب بالاحتياط الشديد الذي كانوا يحيطون به القرآن الكريم وأوعيته من الوقوع في أيد لا تتوفر فيها أحكام الآية الكريمة : ﴿**إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون**﴾ الآيات : 77 ـ 78 ـ 79. من سورة الواقعة. وما نحسبه قد غفل عن هذه البدهية التي لا تغيب عن ذهن المسلم الغيور والبصير، بل يبدو أنها ألحت على فكره وهو يتحسس مصادر وأسباب الإحتجاج لفكرته. فمضى يدعي أن الحسيب ـ بأسطواناته وصفحاته العارضة ـ لا يختلف عن المصاحف في شيوعها وقابليتها للتداول بين الناس تداولا أصبح اليوم سائغا لا ينكره أحد، ولا عن الأشرطة والأسطوانات التي يسجل فيها القرآن ويتداولها الناس، وما من أحد اليوم ينكر ذلك. ونسارع فنؤيد الأستاذ الحبيب في أن هذا أصبح من «البلوى» التي لا محيص عنها ولا سبيل إلى تجنبها. ولكننا نسائله؛ كيف غاب عنه أن تداول

المصاحف والأشرطة والأسطوانات لم يعد مما تتوقف سلامته من التحريف والتغيير على متخصص يصونه ويكفله، في حين أن الحسيب ليس - ولا يمكن أن يكون - مشاكلا للمطبوعات والمسجلات - بفتح الجيم المشددة - في يسر تداولها وصيانتها واستعمالها وتصحيح ما قد يختل منها. فطبيعة تركيب الحسيب بل وطبيعة تطويره تجعل منه أبدا جهازا معقدا لا يمكن استعماله لغير التقنيين، البالغين من التقنية في الصناعات المتصلة به درجة عالية جدا. وهذا ما لا سبيل إلى مجرد دعوى احتمال أن يتوفر - وإن في المستقبل البعيد جدا - لكل من يريده، كما توفر استعمال المطبوعات والمسجلات للناس جميعا. ويترتب عن ذلك أمر خطير، وهو أن مجرد اكتشاف التغيير أو التحريف أو المحو في تسجيل قرآني أو متصل بالقرآن في صفحة عارضة أو شريط ناطق من الحسيب لغير حافظ للقرآن، مستظهر له على طرف لسانه، أو خبير أعمق الخبرة وأدقها بخصائصه التعبيرية، بصير أبعد البصر وأسده بمغازي تشريعه ومناطه يكاد يكون مستحيلا، وأدنى ما يوصف به مع كثير من التساهل وحسن الظن، أنه متعذر. ونتيجة لهذا، يكون ائتمان الحسيب واعتباره مصدرا يرجع إليه غير الحافظ الخبير البصير في الاستذكار أو البحث أو الاستعانة على الاستنباط عملا من شأنه تعريض القرآن وعلومه للالتباس على عامة الناس وصغار الباحثين، وتعريض هؤلاء للاعتماد على معارف مشبوهة أو مزيفة محرفة عن عمد وسبق الإصرار، وهذا عمل لا يمكن أن يقدم عليه من في قلبه مثقال ذرة من الغيرة على الإسلام أو حتى من الإدراك لما يقتضيه العمل العلمي من التثبت والوثوق والإحتياط.

ومن الإنصاف أن نعترف أن الأستاذ الحبيب حاول «الانعتاق» من هذا الحرج بأن ألح على ضرورة إحاطة تفريغ القرآن وعلومه في الحسيب بكل ما تصور أنه سيعصمه من التزييف والتحريف والانمحاء، فألح على أن يشترك التقنيون المتخصصون في تسيير الحسيب مع العلماء بالقرآن وعلومه في شحن الحسيب بما يراد برمجته فيه منها، ومجرد هذا الإلحاح ينقض من الأساس ما سبق أن قرره في الفقرة الثانية مما تبين له بعد التأمل، والتي أشرنا إليها سابقا من أن برمجة القرآن وعلومه في الحسيب ستيسر للعلماء والمتعلمين والقراء والمتعبدين بالاستماع إلى القرآن الكريم وعلومه أسباب الوصول إلى ما يبتغون بأحسن مما تتيسر لهم اليوم منه نفقات باهظة للحصول عليها فضلا عن صيانتها والاستعانة بالتقنيين في تسييرها أو - على الأقل - في مراجعتها وصيانتها والتأكد من عدم اختلال ما شحنت به سيصبح يوما وإن في أبعد مدى يستطيع الخيال أن يتصوره - متيسرا لكل أحد كما تتيسر المصاحف ووسائل التسجيل العادية الآن.

أما مقارنة الأستاذ الحبيب ما قد يحدث في مختزنات الحسيب من المحو، وما شاكله عن عمد وعن غير عمد بما يحدث عادة في طباعة المصاحف من ازدياد الحبر وتدفقه بأكثر مما ينبغي، أو نقصه عن المستوى المطلوب مما يترتب عنه تعتيم أو عدم وضوحه «في الكلمة» أو السطر أو الصفحة فهي مقارنة أستأذنه في وصفها بالسذاجة المفرطة، لسبب بسيط هو أن المطبعة التي يحدث فيها هذا التعتيم أو عدم الوضوح في كلمة أو سطر أو صفحة إنما يحدث في النسخة الواحدة أو في بضع نسخ. وأصغر مطبعة وأقلها جهدا وحتى تلك التي تدار باليد من مطابع القرن الماضي، وحتى المطابع الحجرية وحتى الآلات التي تطبع من الصفحات الحريرية المرقونة على الآلة الراقنة لا يحدث فيها التعتيم أو عدم الوضوح إلا في بعض من النسخ التي تطبع، وقل أن ينزل عددها عن المائة، بل لا نعرف مطبعة طبعت في القديم أو الحديث أقل من ألف مصحف في طبعة واحدة. فهل يمكن أن يقاس بها الحسيب الذي لا تشحن الآلة منه بالأعداد لكن بالوحدات. فإن تعددت فلا تبلغ ما تبلغه المطابع بما تنتجه عددا. ونتيجة لهذا ينحصر تداول أشرطة التسجيل الحسيبية وصفحاته العارضة في عدد محدود إن وجد لها عدد، ويصبح ما يسجل فيه كتابة أو نطقا ثم يتعرض للانمحاء مقصورا على قليل ممن يطلعون عليه ويعتمدونه، ولا يتبين ما وقع فيه من الاختلال لغير الحافظ الخبير البصير، لعدم تعدد النسخ ويسر الرجوع إليها

حين ينبهم شيء في البعض منهـا، وكـذلـك الشـأن في السجلات الصوتيـة، فهي من الكثرة بحيث تكاد تماثل المصاحف.

وفارق آخر هو أن التزييف أو التحريف فيما يسجل كتابة أو صوتا في الحسيب أيسر منه فيما يسجل كتابة في المصاحف وغيرها من الكتب، وفيمـا يسجل صوتـا في السجلات العادية، ذلك بما أن ما يسجل في الحسيب كتابة يمكن ـ لمن أراد التحريف أو التزييف ـ تقليد الخط الأصلي فيـه، وطبيعي أن الـذي يعمـد إلى التـزييف والتحريف يستكمل لهمـا أسبابهمـا، وأولها إتقان التقليد. ولعل الأستاذ الحبيب لم ينس أن الدوائر الرسمية عـامـة والقضائية خاصـة لا تعتمد النسخ المصورة إلا إذا صادقت عليها الجهات المختصة بذلك، لأن تلك الجهات لا يسوغ لها أن تصادق على النسخة المصورة إلا إذا قارنتها بالنسخة الأصلية، ولأن الدوائر المعنية وخاصة القضائية تدرك أن من الهين تقليد الخطوط، ولذلك كثيرا ما تعتمد خبراء للتأكد من صحة نسبة الوثيقة يتقدم بها حاملها كوسيلة إثبات أو نفي.

ثم أن التسجيل الصوتي في السجلات العادية يكون بصوت القارئ، ومن العسير جدا تقليد الصوت لا سيما إذا كـان في القرآن، لأن القارئ يقرأه عادة بنغم معين، وقـد يلتزم في قراءته إيقاعا معينا، فإن أمكن ـ مع البعد ـ تقليد الصوت العادي في التسجيل، فمن المستحيل تقليد النغم، على أن القضـاء يمتنـع عـادة من قبـول الاعترافـات أو الشهادات مسجلة صوتيا. ويصر على حضور الشـاهـد أو المعترف بنفسه لما يحتمل من تقليد الصوت. وإذا كان هذا هو الشأن في الأمور الحياتية العادية فكيف يسمح المسلم أو العالم ـ وإن غير مسلم ـ باعتماد ما يختزن في الحسيب واعتباره وثيقة يعتمدها علميا أو دينيا.

ويبدو أن الأستاذ الحبيب بعـد هـذه المقـارنـات و«التطمينات» التي بسطها وأوجزناها، اطمأن قلبه وشعر بأن المخاوف والمحاذير من إئتمان الحسيب قد تلاشت بإذن الله، فمضى يبشر قراءه بأمر آخر يزيد من طمأنتهم، وهو أن الحسيب قد وجدت لـه آلات باللغة العربيـة، ومن عجب أن يتخذ «هذه البشارة» كأداة لزيادة الطمأنينة في النفوس الحذرة. فهل كان يظن أن «برمجة» القرآن وعلومه في الحسيب يمكن النظر في شأنها ولو لم يتم صنع آلـة منه عربية اللغة ؟! لسنا ندري، بيد أن هذا يذكرنا برأي كان لأبي حنيفة، وقيل أنه رجع عنه بآخرة، وهو أنه تجوز الصلاة لمن لا يعرف اللغـة العربيـة من الفرس بـالقرآن مترجما إلى الفارسية، وقياسا على هذا الرأي تجوز كذلك بالقرآن مترجما بالفرنسية، أو الإنجليزية، أو الروسية، أو الصينية، أو غيرها من آلاف اللغات. وإن أدري فإن الأستاذ الحبيب كـان ـ أولا يزال ـ مستعدا لقبول «برمجة» القرآن وعلومه بلغات غير العربية وإن كنت أشعر أعمق الشعور بأشد الإشفاق على نفسي من أن أتصور ـ مجرد التصور ـ بأن الأستاذ الحبيب قد يهجس في نفسه لحظة أنه يمكن أن يترجم القرآن، وأن ما يسمى «ترجمة» القرآن هو «ترجمة» حقيقية.

إن الأستاذ الحبيب أكرم على نفسـه من أن يجعلها تتهاجس مجرد تهاجس بأن الكلمة القرآنية، الكلمة المجردة، فضلا عن الجملة القرآنية يمكن أن تحتفظ بكل خصائصها غير المحدودة ـ فهي كلام الله ـ إذا هي نقلت إلى لغة غير العربية. وصدق الله العظيم :

﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ (الآية : 44 ـ سورة فصلت).

والاحتياطات التي جاء بها بعد التطمينات السابقة وربما لمزيد منها مثل (الرجوع في الناحية الفنية إلى المتخصصين) و(إشراك الفنيين المتخصصين مع العلماء المتخصصين في القرآن وعلومه في القيام بوظيفة البرمجة) و(تفريغ أعداد كافية من أشخاص الرابطة ـ رابطة العالم الإسلامي فيما يظهر ـ مع مساعدين من أجل إعداد البرامج المناسبة ومعرفة وسائل البرمجة وإعداد المعلومات وتحليلها وتغذية الجهاز بها وطرق الإستفادة منها). وهنا نلاحظ أن التحليل لم يعد وظيفة للحسيب، وإنما أصبح من مهام من

يفرغون للبرمجة فيه، وهذا يناقض ما سبق أن أثبته نقلا عن من اعتمدهم من الخبراء من كفاية الحسيب بالتجميع والتحليل والاستنباط وإبداء الرأي.

و(إسناد هذا الأمر إلى الأمناء من رجال العلم الديني، البصراء بفروعه وفنونه، المطلعين على دقائقه وأسراره).

ويخيل إلينا أن هذا القول أقل ما يوصف به أنه يشكك في الكفاية التي سبق أن نسبها للحسيب وألمحنا إليها آنفا.

ويلوح أن الأستاذ الحبيب أفعم قلبه طمأنينة إلى سلامة ما انتهى إليه من أن الحسيب حين تتوفر له وفيه الإحتياطات والعواصم التي اجتهد في استيعابها تصورا وتصويرا، يكون بمنجاة من جميع المخاوف والمحاذير، ومؤهلا للتوثيق والوثوق، لذلك أصدر حكمه ـ ليس بجواز «برمجة» القرآن الكريم وعلومه فيه فحسب بل ـ بما يشبه إيجابه أو ـ على الأقل ـ الندب إليه باعتباره مما يدخل في الأخذ الواجب (بكل ما يعين على التقدم العلمي في مجال الدراسات الشرعية والإسلامية) وهذه عبارته، ولكنه ينقضها مباشرة بقوله : (وهذا من باب العادات التي يتوسع فيها) ولسنا نعلم عادة أصبح حكمها واجبا، إلا أن تكون ضرورة كالأكل والشرب عندما يكون الامتناع عنهما أو عن أحدهما مؤديا للهلاك، وعندئذ فهما واجبان ليس لذاتهما، بل لأن حفظ الحياة واجب، والتفريط فيها عدوان.

وللاستدلال، لست أدري، على الوجوب أو على الندب أو على أن العادة قد تكون واجبة نقل فقرة ـ أو بالأحرى فقرتين أدمجهما ـ من الموافقات للشاطبي ـ رحمه الله ـ وقد اجتهدنا في أن نجد ما نقله على أنه فقرة في الموافقات، فلم نعثر عليه دون أن يحدد رقم الصفحة فضلا عن الطبعة أو الناشر، ولكن وجدنا في الجزء الثاني منها في فصل عقده لبيان (أن الأصل في العادات الالتفات إلى المعاني) في الفقرة الثانية. ص : 306. الطبعة نشر دار المعرفة (طبعة مصورة الأصل بتحقيق الشيخ عبد الله دراز، ما نصه :

«وجمعيه يشير بل يصرح باعتبار مصالح العباد، وأن الإذن دائر معها ـ أي مصالح العباد ـ أينما دارت حسب ما بينته مسالك العلة».

وفي الفقرة الثالثة ما نصه :

«والثاني أن الشارع توسع في بيان العلل والحكم في تشريع باب العادات كما تقدم تمثيله وأكثر ما علل فيها بالمناسب الذي إذا عرض على العقول تلقته بالقبول ففهمنا من ذلك أن الشارع قصد فيها اتباع المعاني لا الوقوف مع النصوص».

ولكي يتسنى للقارئ أن يتبين تصرف الأستاذ الحبيب في عبارة الشاطبي تقديما وتأخيرا وإدماجا ونقصا وتحويرا، ننقل له العبارة التي نسبها إلى الشاطبي بالحرف :

«قال : قال الشاطبي في الموافقات : إن الشارع توسع في بيان العلل والحكم في تشريع باب العادات وأن المعتبر في ذلك مصالح العباد، والإذن دائر معها أينما دارت حسب ما هو مبين في مسالك العلل، والشارع قصد اتباع المعاني لا الوقوف مع النص».

ولسنا نرتاب في أن عملية التغيير في نص الشاطبي تقديما وتأخيرا وإدماجا وتحويرا واضحة لكل ذي بصيرة، بيد أننا نحب أن نقف هونا عند عبارة أسقطها من النص بعد التقديم والتأخير والإدماج والتحوير إسقاطا تاما. وهي قول الشاطبي ـ رحمه الله :

«وأكثر ما علل فيها ـ أي في العادات ـ بالمناسب الذي إذا عرض على العقول تلقته بالقبول».

ونعتذر للأستاذ الحبيب إذا صرحنا بأننا لا نجد مسوغا لإسقاط هذه العبارة، إلا أنها قد لا تنسجم في تقديره وهو صائب ـ مع الهدف الذي توخاه من الاستدلال بكلام الشاطبي، فليس من السهل على العقول المبصرة أن تتلقى بالقبول الدعوة إلى «برمجة» القرآن الكريم وعلومه في الحسيب وائتمانه على مصالح المسلمين الدينية والعلمية التي هي أساس وجودهم وضمان استمرارهم، ولكن أليست الأمانة العلمية تقتضي نقل العبارة ومناقشتها إن كان للناقل

ما يقوى به على مناقشتها ؟ أو أليست الأمانة العلمية توجب الالتزام الحرفي بكلام الغير عند نقله ونسبته إليه لفظا ؟ لقد كان يمكن أن يترخص المرء في النقل إذا لم ينسب اللفظ وإنما نسب الفكرة والرأي. أما عند نسبة اللفظ فلا نعلم أية رخصة في التصرف في كلام الآخرين، وأدنى قواعد المنهج العلمي وأمانة الرواية تنكره أشد الإنكار، ليس هذا في المناهج الحديثة فحسب، بل أساس متين في مناهجنا الإسلامية. ولعلنا لا نكون بحاجة إلى تذكير الأستاذ الحبيب ببعض قواعد علم الرواية وبعض أسس الجرح والتعديل.

وقد يكون مسار القول أشرف بنا على مناقشة القضية في ذاتها. بيد أننا نؤثر قبل ذلك أن نقف مع الأستاذ الحبيب هونا عند أمر عرض له، وما كنا نتوقعه منه، ذلك بأنه ساق - مستشهدا أو مستندا - في معرض كلامه ذكر بعض الأساتذة المعنيين إما بشؤون الإعلام وما في حكمها، وإما بالتدريس وما في حكمه، وهم - من غير شك - ذوو مقامات مهنية جديرة بالاعتبار اجتماعيا، بيد أنهم بمقاماتهم هذه ليسوا بالضرورة مؤهلين لأن يكونوا مجتهدين، تعتبر آراؤهم واجتهاداتهم عند النظر في الحكم الشرعي في أمر مستجد من أمور الحضارة أو المعاش. فكيف إذا كان متصلا اتصالا وثيقا بأقدس المقدسات الإسلامية بأعلى مصدر للتشريع الإسلامي بالقرآن وما تفرغ عنه أو اتصل به من علوم ومعارف، لسنا ننفي عن هؤلاء أو بعضهم أن يكونوا مؤهلين لذلك ؟ ولسنا نثبت، بيد أننا أولا لا نؤكد أهليتهم ولا نراجح في شأنها. فهذا ليس مجالنا الآن وقد لا يكونون مؤهلين له. وثانيا - وهذا هو الأهم - نشعر أنه من الضروري أن نسائل الأستاذ الحبيب - وقد حمل نفسه تبعة الاجتهاد في أمر خطير يتصل مباشرة بالقرآن الكريم - كيف ارتأى أن يستدل بعمل هؤلاء، أيّا كانت منزلتهم عنده، استدلال استناد أو استشهاد ؟ حين يعلم - كما يعلم كل من ألم بالقواعد الأولى بأصول الفقه - أن عمل الصحابة - رضوان الله عليهم - إذا لم يثبت الإجماع عليه موضوع خلاف من بعض الأصوليين في اعتباره دليلا شرعيا، وأن استدلال مالك - رحمه الله - بعمل أهل المدينة جادل فيه غيره من زملائه المجتهدين الكبار، وما أخذ به مالك إلا باعتبار عصره وهو من تابعي التابعين الكبار، وعصره ما يزال في معظم عاداته ومسالكه استمرارا - في تقدير مالك على الأقل - لما كانت عليه المدينة مدينة الرسول ﷺ في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين. فعمل أهل المدينة الذي اتخذه مالك أصلا أو مصدرا للاستدلال محدود بزمن وظرف وجيل. وما نحسب الأستاذ الحبيب قد غفل أو نسي ما نص عليه الأصوليون من أنه لا يجوز للمجتهد تقليد مجتهد آخر في حكم أصدر فيه نصا قوليا : فكيف بالفعل يقدم عليه، على أننا نرى - لمجرد التذكير - من تمام الإفادة أن نسوق الواقعة الآتية التي ذكرها الشاطبي - رحمه الله - في الموافقات - ج : 4، ص : 169 - من بين ما ذكر من الأدلة والوقائع في هذا المجال إذ قال :

«وعن ابن المبارك أخبرني المعتمر بن سليمان قال : رآني أبي وأنا أنشد الشعر. فقال لي : يا بني، لا تنشد الشعر ! فقلت له : يا أبتا، كان الحسن ينشد، وكان ابن سيرين ينشد، فقال لي : أي بني ! إن أخذت بشر ما في الحسن وبشر ما في ابن سيرين، اجتمع فيك الشر كله».

ثم قال : - نفس المرجع، ص : 171 - :

«وقد روي عن ابن المبارك أنه قال : كنا في الكوفة فناظروني في ذلك - يعني في النبيذ المختلف فيه - فقلت لهم : تعالوا فليحتج المحتج منكم عمن شاء من أصحاب النبي ﷺ بالرخصة، فإن لم نبين الرد عليه عن ذلك الرجل بشدة، صحت عنه، فاحتجوا، فما جاؤوا عن واحد برخصة إلا جئناهم بشدة. فلما لم يبق في يد أحد منهم إلا عبد الله ابن مسعود، وليس احتجاجهم عنه في رخصة النبيذ بشيء يصح عنه. قال ابن المبارك : فقلت للمحتج عنه في الرخصة : يا أحمق، عد أن ابن مسعود لو كان ها هنا جالسا. فقال : هو حلال، وما وصفنا عن النبي ﷺ وأصحابه في الشدة. كان ينبغي لك أن تحذر، أو تتحير، أو تخشى. فقال قائلهم : يا أبا عبد الرحمان، فالنخعي والشعبي، وسمى عدة معهما كانوا يشربون الحرام ؟ فقلت

لهم : دعوا عند الاحتجاج تسمية الرجال، فرب رجل في الإسلام مناقبه كذا وكذا، وعسى أن يكون زلة. أفيأحد أن يحتج بها ؟ فإن أبيتم، فما قولكم في عطاء، وطاوس، وجابر بن زيد، وسعيد بن جبير وعكرمة ؟ قالوا : كانوا خيارا. قال : فقلت : فما قولكم في الدرهم بالدرهمين يدا بيد ؟ قالوا : حرام. فقال ابن المبارك : إن هؤلاء رأوه حلالا فماتوا وهم يأكلون الحرام، فبقوا وانقطعت حجتهم. هذا ما حكى».

وأيا ما بلغ تقديرنا أو تقدير غيرنا لهؤلاء الأساتذة الأجلاء. فهل فيهم من يسامت أو يقارب أحدا ممن ساق ابن المبارك ـ رحمه الله ـ ذكرهم في قضية النبيذ، أو في قضية الدرهم والدرهمين من واقعته هذه ؟ لا مناص للأستاذ الحبيب من أن يختار بين أمرين. إما أن يكون الحكم الذي أصدره في برمجة القرآن في الحسيب اجتهادا. وإذا فكيف أباح لنفسه التقليد ؟ أو كيف جعل عمل بشر مثله من زملائه أو ممن يعتبرهم بمنزلة أساتذته وليس القول حجة يستشهد بها أو يستند إليها ؟ وإما أن لا يرى حكمه اجتهادا ولذلك لجاء إلى التقليد أو إلى ما يشبه التقليد. وإذا فأين موقعه بين الأحكام ؟ إنه ليس مجرد فتوى، إلا أن يعتبر الذين اعتمد عملهم حجة صالحة للاعتماد في الفتوى، وإذا فكيف أباح لنفسه أن يذيع فتواه وأن يسميها «حكما» والحكم ـ فيما نعلم ـ لا يكون في الأمور المستجدة إلا نتيجة استنباط ؟ الواقع أن تصرفه هذا يحيرنا فيما نحاول اكتشاف الأصول التي اعتمدها في إصدار حكمه العجيب.

ونعود إلى مناقشة الحكم في ذاته، وأول ما يستوقفنا في هذا المجال «الاعتبار» الذي بني عليه، ونكاد نجزم أنه بني على اعتبار المصلحة التحسينية، وإذا، فيتعين التثبت الدقيق من أن «البرمجة» التي صدر بشأنها الحكم قد تعين أنها أمر حسن، وإثبات هذا التعين، يستوجب أن تصاحبها أو تترتب عنها مفسدة حالية أو مآلية، وفي أثناء مناقشتنا لكلام الأستاذ الحبيب ألمعنا إلى أن هذه «البرمجة» ستترتب عنها في تقديرنا مفاسد عدة. منها تعريض القرآن الكريم لأن يجعل في وعاء ليس من المحتمل في المدى المنظور أن يستطيع المسلمون «المطهرون» وحدهم ودون الحاجة إلى غيرهم من التقنيين المتخصصين غير المسلمين، ضمان القيام بالأجهزة المراد «برمجة» القرآن وعلومه فيها تسييرا وصيانة، وحراسة من كل محاولة تسلل إليها بالتحريف أو التزييف أو المحو، وإصلاحا إذا حدث فيها اختلال سواء كان في الأشرطة الناطقة أو الصفحات العارضة أو في دواليب تسييرها، إذ أن مجرد احتمال الحاجة إلى غير المسلمين في شيء من هذا القبيل ـ وهو احتمال وارد قطعا في المدى المنظور على الأقل ـ يعني تعريض الوعاء الذي اتخذ للقرآن الكريم وعلومه لأن يمسه من لم يمكن وصفه بأنه من المطهرين. وهو مناط النهي الثابت عن رسول الله ﷺ عن السفر بالقرآن الكريم إلى دار الكفر، وإن كانت أيدي الكفار قد تطاولت إلى المصاحف منذ زمان إذ أن وقوع المحذور، أو المنهي عنه، لا يعني زوال الحكم المأمور به.

والثاني، أنه حتى لو أصبح يقينيا أن المسلمين لن يكونوا بحاجة إلى غيرهم في أمر مما يتصل بالحسيب تسييرا أو صيانة أو حراسة أو إصلاحا بأن بلغوا من التقنية في المجالات المتصلة به درجة الاكتفاء الذاتي، لا في رعايته في طوره الراهن فحسب، بل وفي مسايرة تطوره مهما تعددت مراحله وتعقدت أساليبها ووسائلها، فإن مجرد «البرمجة» يصرف عامة الباحثين والدارسين على الأقل، إن لم يصرف طائفة من الخاصة أيضا عن الالتزام بما يجب أن يلتزم به العالم من التثبت من النصوص التي يستعملها في بحثه أو دراسته، من حيث صحة توثيقها ومن حيث الموازنة بين ما قد يكون منها مختلف العبارة إذا كان من المرويات، أو بين ما يرد بعبارات مختلفة، في نسخ مختلفة، وجميع تلك العبارات أو عدد منها صحيح من حيث سلامة التعبير، ولكن لا يمكن أن تكون كلها صحيحة في نسبتها إلى المؤلف إلا على احتمال أنه وضع تأليفه أو أعاد فيه النظر أكثر من مرة، أو أملاه إملاء، واعتمد ما كتبه عنه طلبته وهذه حالات لا يستقيم التثبت

فيها ومنها إلا لمن يرجع إلى النسخ المختلفة معتمدا على المنهج العلمي في التثبت والتوثيق والمراجعة (بالحاء المهملة) وأنى لمن يعتمد في بحثه أو دراسته ما يبرمج في الحسيب أن يتاح له هذا النوع من التثبت والتوثيق والمراجعة ؟ فأدنى شبهة يتصور أن تعترضه ـ حتى وإن برمجت جميع النسخ أو الروايات في الحسيب ـ احتمال أن تكون بعض النسخ قد وقع فيها تحريف متعمد، قلد فاعله خط الكاتب الأصلي تقليدا لا يمكن اكتشافه إلا بمراجعة الأصل نفسه، والتساهل في التثبت والتوثيق والمراجعة تنتج عنه أخطار، أهونها نسبة قول أو رأي أو رواية إلى من لم يقله، ولا رآه ولا رواه، وبناء رأي أو حكم موافق أو مخالف على هذه النسبة المزيفة.

الثالث، لا نحسب الأستاذ الحبيب لم يتصور لحظة في سريرته ما سيصيب من سيعتمدون على الحسيب في بحوثهم ودراساتهم من الابتعاد المتزايد مع الأيام، ذهنيا وبصريا عن طرائق السلف في الكتابة وأشكال خطوطهم وما إلى ذلك مما لا تتسنى ألفته إلا بمعايشته مباشرة بالممارسة المتصلة المستمرة. وقد يكون من هذا الابتعاد، الانفصال عن الرسم المصحفي، وإن كان قد ذكر أن الحسيب المعرب يشتمل على ألوان من الضبط، مثل الشكل والمد، ولكن ما الذي يضمن في الحسيب نفس الدقة التي تراعى في المصاحف مثلا، كالتمييز بين همزة الوصل وهمزة القطع، والإدغام المخفف والإدغام الثقيل، والألف المتصلة وتلك المقطوعة الجذر، ومثل علامة الإشمام، وما شاكل ذلك مما يمتاز به الرسم المصحفي، وقد استعمل بعضه في رسم الأقدمين في بعض كتبهم، وهذه الدقة هي التي جعلت ناشري المصاحف يلجأون إلى تصوير صفحاتها بعد أن تكون كتبت بالخط اليدوي وراجعها خبير أو عدد من الخبراء في رسم المصاحف، وفي القراءات وغيرها مما يتصل بشؤون القرآن.

الرابع، سبق أن لفتنا نظر الأستاذ الحبيب إلى أن «برمجة» القرآن الكريم في الحسيب لن تكون مشجعا على حفظ القرآن، بل على العكس ستثبط عنه بما تيسر لعامة الطلبة وغيرهم، من أسباب الحصول على الآية المطلوبة أو السورة المبتغاة بمجرد الضغط على زرمعين، ونحب الآن أن نسائل الأستاذ الحبيب: ألم يتوجس لحظة أن تكون «برمجة» القرآن الكريم من أسباب رفع القرآن الذي هو من أشراط الساعة ؟ ألم يشعر لحظة أنه بحكمه العجيب هذا يعمل على التعجيل بهذا البلاء، وقانا الله منه : ما مصير الأمة الإسلامية إذا انحسر حفظ القرآن من أبنائها لينحصر في أجهزة الحسيب ؟ وكيف يلقى الله من يدعو إلى هذا البلاء أو يعين عليه ؟

وما نحب أن نمضي في استقصاء المفاسد التي ستترتب على «برمجة» القرآن الكريم وعلومه في الحسيب، وهي ما لا ينبني الحكم فيه إلا على اعتبار المصلحة التحسينية، على حين أن المصالح الحاجية نفسها تصبح ملغاة عندما ترجحها مفسدة. فمن بدهيات أصول الفقه أن (درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة). ولولا أن النقاش قد استطال حتى لأوشك أن يبعث الملل في النفوس لمضينا أشواطا في تعداد المفاسد، وفي سوق الأدلة مما قاله السلف المتحرزون للدين، المتحرجون في الحكم والعلم، بيد أننا نؤثر أن ننقل من الشاطبي ـ رحمه الله ـ كلاما شريفا قاله في الموافقات ـ ج : 4، ص : 194 ـ وهو :

«النظر في مآلات الأفعال مقصود شرعا، كانت للأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة من المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه الفعل ! (فقد يكون) ـ زيادة لتقويم العبارة من المحقق ـ مشروعا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه ؟ وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه، أو مصلحة تدفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك. فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها فيكون هذا مانعا من إطلاق القول بالمشروعية. وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد. فلا يسع إطلاق القول بعدم

المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد إلا أنه عذب المذاق، محمود الغب، جار على مقاصد الشريعة.

إلى آخر ما قال.

لذلك كله ولأن أحدا ـ حتى وإن كان لمخترعي الحسيب والعاملين في تطويره ـ لا يستطيع أن يجزم بأنه قادر على ضمان عدم وقوع الحسيب في الخطأ عند إجابته عما يطلب منه، ولا عدم تسلل التحريف والتزييف إليه بمختلف الوسائل. بل لأن المسؤولين الكبار عن شؤون الدولتين العظميين الولايات المتحدة، والإتحاد السوفياتي، يعترفون عمليا باحتمال أن يقع من الحسيب خطأ قد يؤدي إلى حرب نووية، فلجأوا احتياطا من هذا الاحتمال إلى استحداث الهاتف الأحمر وما شاكله من أسباب الاتصال السريع لتلافي ما قد يحدث نتيجة لخطأ يوقعهم فيه الحسيب، لخلل أو لسوء تسيير أو لسوء فهم لرموزه، بل ولأنه قد وقع فعلا خطأ، إما منه، وإما من المسؤولين على تسييره، أو تحليل رموزه، وهم أعلى طبقة تقنية في الولايات المتحدة الأمريكية ذهب ضحيته عدد من التقنيين رواد الفضاء في مأساة «شلنجر» وهي أساس عمله، أوقعت عددا من المصارف العالمية الكبرى في الإفلاس، أو على شفا الإفلاس، ولأن القرآن الكريم وعلومه والسنة النبوية وعلومها، والشؤون الدينية عامة، أمرها أخطر بكثير من الشؤون العسكرية والاقتصادية، والمالية، وما إليها من تبعات الدول والمؤسسات، والأفراد، والاحتياط لها، والتحرز فيها، والتحرج من كل ما قد يصيبها بالتحريف أو التزييف، أو المحو، أو يضعف مما يجب في شؤونها من التثبت والتوثيق آكد، وأوجب، وأعظم تبعة، وأولى بالمسلمين أن يلتزموا به في جميع تصرفاتهم في هذا المجال، **لذلك ندين لله بأن ائتمان الحسيب على القرآن الكريم وعلومه، والسنة النبوية، وعلومها، منكر يجب تغييره بكل وسيلة** إلا إذا جاء جيل آخر بلغت فيه تقنية الحسيب من التطور مبلغا يستحيل معه وقوع أي محذور من المحاذير التي أشرنا إليها آنفا. وخلال هذه المناقشة كافة، فعندئذ، وعندئذ فحسب يمكن لمن يعايش هذا الطور أن يعيد النظر في أمر ائتمان الحسيب بشرط أن ينحصر استعماله على المستوى الذي ينحصر فيه استعمال الآلات الحاسبة اليوم في بعض معاهد العلوم الاقتصادية، ولا يعتمد عليه في مجال البحث العلمي الصرف، ولا في مجال حفظ القرآن، ولا في مجال الاجتهاد واستنباط الأحكام.

﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾.

صدق الله العظيم.

وبعد، فقد يكون القول في هذا المجال مضى بنا بعيدا مضيا لا يبهج الأستاذ الحبيب، ونحن أحرص الناس على أن لا نريه، بل وأن لا يريه الله إلا كل ما يبهجه، وما يسعده، بيد أن التحرز للقرآن والسنة وعلوم الدين، والتحرج من كل ما قد ينال منهما، أو يؤول إلى النيل منهما، فوق كل عاطفة، وفوق كل اعتبار، وماذا يبقى لنا إذا تراخت مراصدنا في رصد وصيانة ما تريده بها هذه المستحدثات التي يراد منها أن تتسرب وتندس لتكون عاملا على خلخلة العلاقة الفكرية والوجدانية بين المسلمين وبين المصادر الأولى لوجودهم بصفتهم مسلمين ؟

وهل لهم بغير القرآن وجود ؟

الإسلام وشرف الأنساب

للدكتور عبد الله العمراني

في صبيحة يوم الخميس 86/8/21 وبعد زوال يوم الجمعة التالي، سمعت من إحدى المحطات الإذاعية، جوابا عن سؤال : (من هم الشرفاء ؟).

كان السائل مستمعا مغربيا، وكان الجواب مسجّلا بصوت عالم جليل هو الدكتور محمد الطيّب النجّار، شيخ الجامع الأزهر سابقا، وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة حاليا.

ونظرا لأهمية السؤال، ولمكانة الشيخ، ومنزلته العلمية التي تضفي على رأيه مسحة خاصة من الثقة والاطمئنان والرجوح، قد تدفع بعض الباحثين - من المستغربين خاصة - إلى الأخذ به، والركون إليه، تعزيزا لبعض أفكارهم التي قد تجافي الحقيقة، وتجنح عن الصواب... نظرا لذلك رأيت أن المسألة تحتاج إلى مزيد إيضاح، آمل ألا يضيق به صدر صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور النجّار.

أشار فضيلة الشيخ إلى مفهوم الشرف عند العرب في الجاهلية، وإلى مفهومه بعد البعثة النبويّة وانتشار الإسلام، فذكر أن شرف الفرد في الجاهلية كان يتبع شرف القبيلة وينبع منه، وأن شرف القبيلة كان يرتكز على كثرة الولد، ووفرة العدد، وعلى توافر الثراء والنشب والجاه، فقبيلة قريش - في رأيه - سادت وشرفت، بتعاطيها التجارة، وبفضل موقعها الجغرافي في طريق القوافل التجاريّة التي تزاول رحْلة الشتاء (إلى اليمن)، ورحلة الصيف (إلى بلاد الشام).

ولما جاء الإسلام، عمل على تعديل مفهوم الشرف، فجعله لا يستند إلى المال أو الولد أو النشب أو الجاه، بل جعله يتمثل في الفضيلة والكرامة والتقوى، وهنا استشهد فضيلته بالآية 13 من سورة الحجرات :

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

ومثّل فضيلته للأكرم الأتقى بالصحابي الجليل، مؤذن رسول الله ﷺ بلال بن رباح الحبشي.

كلام جميل، لكنه جواب لا يشفي الغليل ! لأنه تناول شرف الجاه والنشب في الجاهلية، وعالج الكرامة، والتقوى، والشرف الخلقي في الإسلام، وتغاضى تماما عن كرم المحتد، وشرف الحسب والنسب، مع أن الشرف النسبي، والشرف الخلقي كلاهما ضروري، ويكمّل أحدهما الآخر... ثم إن الاستشهاد بالآية الكريمة الآنفة الذكر، يقودنا حتما إلى ذكر الحديث النبوي الشريف الذي يعرفنا بخيار الناس ويوقفنا على أشرافهم.

روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال :

«تجدون الناس معادن (أي أصولا ومقامات) : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا».

أي إذا صاروا فقهاء علماء بالشريعة. وهذا يعني أن الشرف الإسلامي لا يتمّ إلا بالتفقه في الدين، وبتقوى الله في السر والعلن.

علق الإمام النوويّ على هذا الحديث النبويّ الشريف فقال : «المعادن : الأصول، وإذا كانت الأصول شريفة

كانت الفروع كذلك غالبا. والفضيلة في الإسلام بالتقوى، لكن إذا انضم إليها شرف النسب ازدادت فضلا»[1].

وعند التأمل في الحديث النبوي الشريف، يمكن استخلاص ثماني صور تتفاوت فيما بينها من حيث الأصالة والشرف والفضيلة، وذلك على الترتيب التالي :

1 - شريف في الجاهلية أسلم وتفقه.

2 - مشروف في الجاهلية أسلم وتفقه.

3 - شريف في الجاهلية أسلم ولم يتفقه.

4 - مشروف في الجاهلية أسلم ولم يتفقه.

5 - شريف في الجاهلية لم يسلم وتفقه.

6 - مشروف في الجاهلية لم يسلم وتفقه.

7 - شريف في الجاهلية لم يسلم ولم يتفقه.

8 - مشروف في الجاهلية أسلم ولم يتفقه.

فالصور الأربع الأولى هي التي تمتاز بالخيرة والشرف، وتتفاضل فيما بينها :

فالأولى هي الفضلى على الإطلاق.

وتليها الصورة الثانية.

وتلي هذه، الصورة الثالثة.

وتلي الثالثة الصورة الرابعة.

أما الصور الأربع الباقية فلا قيمة ولا اعتبار لها إطلاقا، سواء كان أصحابها شرفاء أو مشروفين، متفقهين أو غير متفقهين... وواضح من حديث فضيلة الشيخ أنه اختار من صور الشرف والخيرة، الصورة الثانية، ومثل لها بالصحابي الجليل بلال بن رباح الحبشي؛ أما الصورة الأولى التي هي قمة المجد والخيرة والشرف النبي، والتي يمكن التمثيل لها بسيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فتغاضى عنها الشيخ تماما، وأهمل ذكرها، فصارت «لا في العير ولا في النفير» كما يقول المثل العربي.

ولا يسعنا أثناء الحديث عن النسب العربي في الجاهلية - الأولى أو الثانية - إلا أن نشير إلى ما حاوله بعض المستشرقين من التشكيك في الأنساب العربية بتبنيهم بعض الأفكار والنظريات التي لا ترتكز إلا على أساس من رمال.

في منتصف القرن الماضي برزت إلى الوجود نظرية «النشوء والارتقاء» التي قال بها العالم الطبيعي الإنكليزي «دروين»، وفي أعقابها بدأ علماء الاجتماع ومؤرخو الحضارات يبحثون في أصول الجماعات البشرية، والقبائل البدائية بأمريكا وأستراليا وافريقية، وأوجدوا ما سموه بالنظام الطوطمى Totamism الذي يعني أن قبيلة متوحشة مّا، اتخذت طوطما Tatem معينا، ونسبت نفسها إليه (وهو إما حيوان وإما نبات وإما غيرهما) واتخذته أبا لها، يمنحها بركته وحمايته، وفي مقابل ذلك تحترمه هي وتقدسه وتعبده، إذا كان الطوطم حيوانا، احترمته القبيلة وامتنعت عن قتله أو أكله؛ وإن كان نباتا تفادى أفرادها أن يستأصلوه أو يأكلوه أو يحتطبوه إن كان شجرا... الرجال المنتسبون للطوطم الواحد لا يتزوجون نساء من قبيلتهم، ولا النساء يتزوجن رجال قبيلتهن، بل كان لزاما على الرجل أو المرأة من طوطم مّا، أن يختار شريك حياته من قبيلة أخرى ذات طوطم آخر. وهذا هو ما أطلق عليه الاجتماعيون اصطلاح «الزواج الخارجي» أو «الزواج بالأباعد» : «Exogamy» وهي كلمة إغريقية الأصل؛ ويقابله «الزواج بالأقارب Endogamy».

واضطر هؤلاء الباحثون - أثناء بحثهم «النظام الطوطمى» - إلى تقرير ما سموه «نظام الأمومة» : «Matriarchy» الذي كانت فيه المرأة تتزوج أكثر من رجل واحد في وقت واحد، فكان الأولاد ينسبون إلى أمهاتهم - كالحيوانات - وإلى طوطمهم، لأنهم لم يكونوا يعرفون آباءهم، ولأن الرجل لم تكن له آنذاك قيمة تذكر، فكانت المرأة هي كل شيء.

حاول المستشرق الإنكليزي روبرتسون سميث تطبيق النظامين «الطوطمى والأمي» على العرب الجاهليين في كتابه : «النسب والزواج في بلاد العرب القديمة» وتابعه في

---

1) محمد فؤاد عبد الباقي : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ص. 685 - 686.

ذلك مستشرقون آخرون مثل مرغوليوث في مقدمة كتابه «محمد وظهور الإسلام».

وغير خاف أن سميث ومن لفّ لفّه تابعوا ما وجده الباحثون في البيئات المتوحشة، فاستنتجوا - بفكرهم الثاقب ! - أن بلاد العرب القديمة، لا بد أن تكون قد مرت بهذا الطور المتوحش، فألصقوا بالعرب ما ليس في طبيعتهم، وحاولوا أن يشككوا في أنسابهم التي يعتزون بها ويباهون؛ وليس للمشككين من دليل علمي ثابت، أو حجة منطقية دامغة، إنما دفعهم إلى ذلك افتراضات وأوهام وترهات.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده :

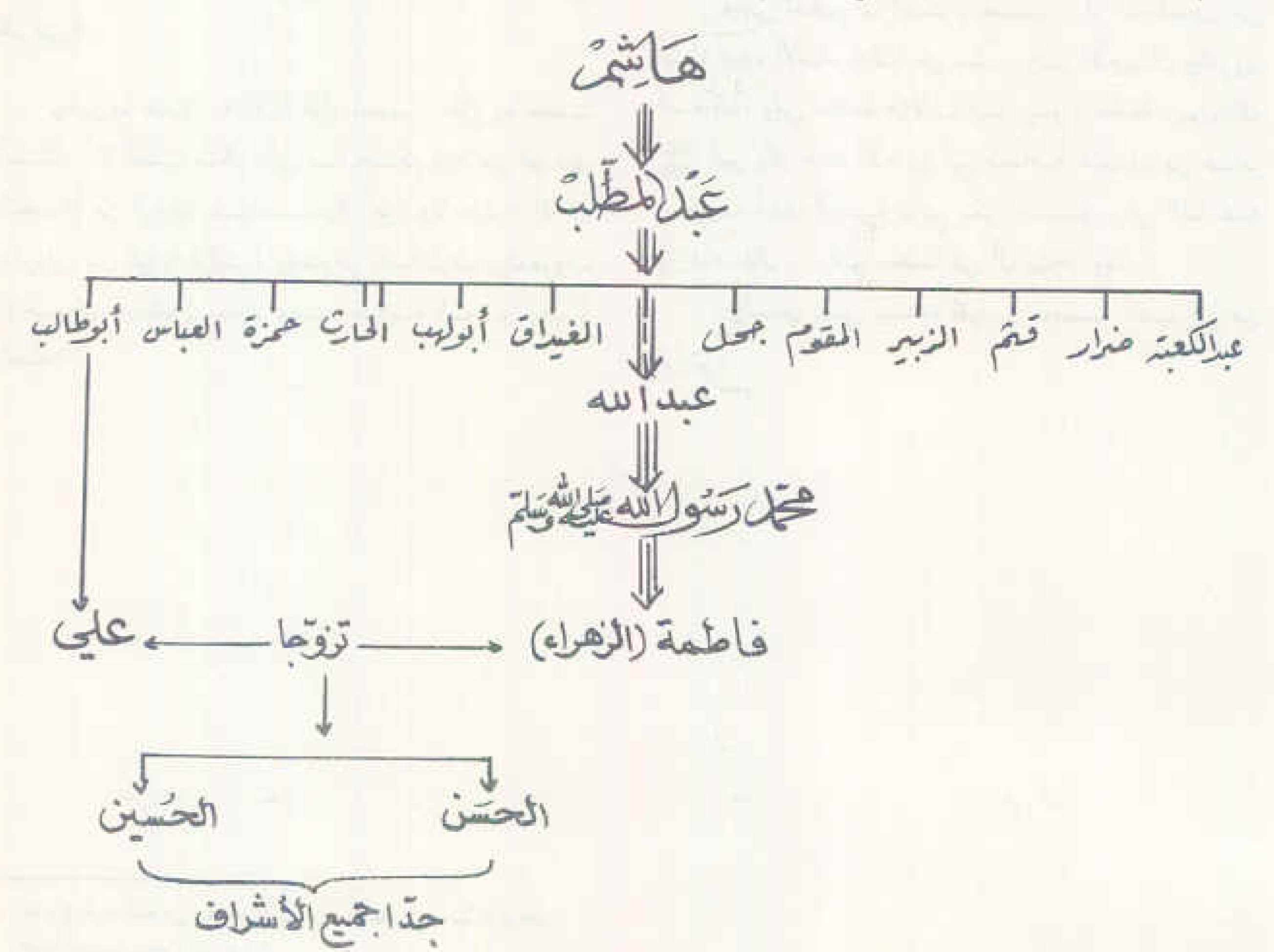
حقاً، إن الناس معادن. وإذا كانت المعادن تتفاوت فيما بينها نفاسة وخساسة، فإن الناس كذلك يختلفون في أصولهم نباهة وتفاهة، ويتفاوتون في سلوكهم صلاحا وطلاحا، وتعتبر العناية الربانية هي العامل الأول والأخير في الاصطفاء والاختيار والتفضيل.

أخرج الإمامان مسلم والترمذي أن النبي ﷺ قال :

«إن الله اصطفى كنانة من بنى إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

فالنبيّ - كما في علم الجميع - هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب، بن لؤيّ، بن غالب، بن فهر (وهو قريش على رأي) ابن مالك بن النضر (قريش على رأي آخر)، ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، ابن معدّ بن عدنان. وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما وعلى نبيّنا الصلاة والسلام.

وفيما يلي جدول يبين نسل هاشم بن عبد مناف، ومن خلاله نتعرف على آل بيت النبوة :



ونسترسل في الحديث عن آل البيت، فنتلو قوله تعالى : ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾ (الأحزاب : 33).

ويدل سياق الآية على أن نساء النبي ﷺ هنّ من آل البيت.

وروى الترمذي عن عمر بن أبي سلمة - ربيب النبي ﷺ أنه قال :

«لما نزلت هذه الآية، دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسنا وحسينا، وخللهم بكساء، وعلي خلف ظهره، ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا».

ويقول الله - تبارك وتعالى - في الآية 23 من سورة الشورى : ﴿**قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى**﴾.

وخير ما فسرت به الآية قول بعضهم : «قل يا محمد لأمتك : لا أطلب منكم على ما جئتكم به من الهدى والنجاة من الردى، عوضا ولا أجرة ولا جزاء إلا أن تجازوني بأن تودوا قرابتي، وتحبوهم وتعاملوهم بالمعروف والإحسان، ويكون بينكم وبينهم غاية الود والمحبة والصلة»[2].

روى ابن عباس رضي الله عنه قال :

لما نزلت هذه الآية، قالوا : يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : «علي، وفاطمة، وابناهما».

ويعزز هذا التفسير ما ورد عن علي - كرم الله وجهه - من أنه قال : «شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي، فقال : أما ترضى أن تكون رابع أربعة أوّل من يدخل الجنة : أنا، وأنت، والحسن، والحسين، وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا، وذريتنا خلف أزواجنا ؟».

وأخرج الإمام الترمذي وحسّنه، والحاكم عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ :

«إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به بعدي لن تضلوا : كتاب الله، وعترتي أهل بيتي. ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونني فيهما».

وعلى تعظيم آل البيت ومحبتهم، سار المخلصون من أبناء هذه الأمة، خلفا عن سلف، وعبر الأجيال والقرون المتعاقبة، وفي مقدمة هؤلاء - فيما يبدو - خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر المعروف لدى الجميع بأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، قال : «راقبوا محمدا في آل بيته». وقال :

«والذي نفسي بيده، لقرابة محمد أحب إليّ من قرابتي».

---

2) الشيخ عبد الله بن محمد الشبراوي : الإتحاف بحبّ الأشراف. طبعة الحلبي بمصر، ص. 4 - 5.

على هامش كتاب

مِنْ عَقِيدَةٍ لِأُخْرَى

للأستاذ حسن أوريد

في الستينات صدح أحد المفكرين الثالثيين وهو فرانز فانون بهذه الجملة : «إن اللعبة الأوربية قد انتهت تماما، وعلينا أن نبحث عن شيء آخر».

ولم يكن لجملته ذلك الصدى الذي كان ينبغي أن تحدثه، ولذلك فقد مرت في حياء وخفر مختبئة في ثنايا كتابه «معذبو الأرض» (Les damnés de la terre). ومن كان سيصدق زعم فانون وأوربا إذاك النموذج الذي ينبغي أن يحتذى ؟ والمنوال الذي على هديه أن يسار، إن في الفكر أو الاجتماع أو السياسة أو ضروب الحياة ككل ؟ ولم يكن يدرى آنذاك، أن أوربا الستينات كانت تحمل في أحشائها جرثومة هي سبب دائها هذا الذي تعانيه اليوم؛ فهي موزعة بين نزعتين هما عرضا دائها :

فأما الأولى؛ فهي نزعة التشكيك في كل شيء. ليس هناك شيء مؤكد ولا حقيقة مطلقة، كل شيء مدعاة للتساؤل، عرضة للتفنيد. فلا الأسرة ولا العمل ولا الوطن يمكن إقامة أعمدة المجتمع عليها، إنها أزمة قيم لا تبقي ولا تذر.

وبالمقابل هناك نزعة تتعصب للقيم، وتذهب في تعصبها إلى حد التقديس.. فهي نزعة الكلمة الوحيدة، والاتجاه الوحيد، والحزب الوحيد، والحقيقة المطلقة.

وبين هاتين النزعتين اللتين هما في واقع الأمر وجهان لعملة واحدة، يضيع الفرد بين الاتجاه الأول الذي يضن عليه بالظل الوارف والموطن الأنيس، وبين الاتجاه الثاني الذي يجعله مجرد عضو ضمن جهاز مطلق، هو موطن الحقيقة ومناط القيم، يضيع الفرد ويصاب في أسمى ما فيه، إنسانيته.. وإذن فأين يا ترى يجد خلاصه ؟.

تتساءل الباحثتان «ليزابت روشي وفاطمة الشرقاوي» في كتابهما **«من عقيدة لأخرى : اعتناق الإسلام في الغرب»**، مثلما تساءل، مبتدئتين بهذا التقديم : فلو جشم فاربي مونتسكيو ـ البطل الذي جعله مونتسكيو مدار كتابه «رسائل فارسية» والذي من خلاله كان ينتقد المجتمع الفرنسي ـ لو جشم نفسه العودة إلى الغرب لرأى «هو الذي عاين تراجع الدين، اندحار الإيديولوجيات وانبعاث الروح الديني...» ـ فإلى أي شيء آلت الليبرالية والاشتراكية والفاشية والشيوعية ؟... هذه الآثار التي أهاجت العواطف الجياشة ؟ لم يتبق منها سوى ذكريات ناشزة» (ص 5).

إذن فالدين هو الترياق، ولكن أي دين ؟.

فالمسيحية عجزت حتى عن أن ترضي أتباعها، واعتناق نحل الطوائف الهندوسية لم يكن إلا موضة عفى عليها الزمان.. وماذا يبقى إذن ؟ **يبقى الإسلام الذي**

يستطيع الاستجابة للتحولات التي ما تفتأ تطرأ. هذه التحولات التي يريد الكثيرون أن تطرأ في نفوسهم. وإذن ـ تقول الباحثان ـ.

«فالتحول من دين إلى دين هو ثورة من الداخل. ففي عالم تمزقه ماندعوه بالأزمة الاقتصادية والروحية (التي قد تكون بكل بساطة، غموض مجتمع في مخاض، من دون أن يجد لنفسه حلة جديدة) فإن معتنق (الدين الجديد) يجتاز الخطى في تناسق نظام يبعث فيه الطمأنينة ويقيه طوارئ هذا العالم الذي هو بغير روح». (ص 210).

لقد كان بحث الكاتبتين سوسيولوجيا. ولذلك لم يكن بد من الاستمارات، وتأتي شهادة الإنجليزي «كي ايتون» (Gai Eaton) الذي اعتنق الإسلام، وتسمى بسيدي حسن عبد الله عبد الحميد[1]، كخير ما يستشهد به «لو لم أعتنق الإسلام لكنت اليوم عدميا ممتازا ـ Un parfait nihiliste ـ، لن تتصوروا إلى أي حد كانت نفسي منقبضة. نعم، إن الشك مموضع في الغرب كقيمة، في حين لا يجوز للمسلم أن يشك..» (ص 12).

وما يقول الألماني «مراد ويلفريد هوفمان» وهو موظف سام في الحلف الأطلسي، لا يختلف عما يقوله سابقه : «منذ أربع سنوات، أي قبل أن أعتنق الإسلام، كنت ملحدا. لقد كنت خلال الفترة أبيا شجاعا، ولكني لا أستطيع أن أقول إني كنت سعيدا حقا. كنت أعتبر نفسي غنوصيا كارتيزيا، ولكن لأي سبب ؟» (ص 13).

وتتمرد الألمانية ايفا الشباصي على الاتجاهات اليسارية التي تحبس الإنسان في البعد الاقتصادي : «لست سوى كائن اقتصادي ! غير أني بفضل صديقي المسلم اكتشفت أن للإسلام نظرة أكثر شمولية حول الإنسان والمجتمع» (ص 130).

ولكن لم هذا الزخم الذي يجعل معتنقي الإسلام يدخلون إلى دين الله أفواجا، يأتون من اتجاهات فكرية متعددة واهتمامات مختلفة وتصورات متباينة ؟... أهي نزعة فرار من لهيب الغرب المادي، أهي ارتماء في أحضان الإسلام لقوة هي فيه تبعث الأمل والطمأنينة ؟ أليست هناك دواعي ذاتية نتيجة معاناة تخص كل واحد، فتختلف الدواعي والأسباب من فرد إلى فرد».

نعم، كل ذلك أسباب جائزة ـ تقول الباحثتان ـ محاولتين أن تسلطا الأضواء على الظاهرة وتجلياتها في فصول متعددة. وقد كان يكفيهما أن تعاينا الظاهرة استجابة لدواعي المقترب السوسيولوجي ـ Approche sociologique ـ الذي اعتمدتاه دون الغور بحثا عن الأسباب. ففي الإسلام ـ تقول الباحثتان ـ استجابة لرغبات الأذهان التي تروم البحث عن المطلق، يصاحبه نظام حياة يكون متحررا من تحولات الموضة. والإسلام هو وحده لذي يجانس بين المطلق (العقيدة) ونظام حياة (الشريعة).

لقد حدث أن نزعت الثورة الصناعية التي طرأت بأوربا الفرد من الإطار الجماعي الذي كان يعيشه في ظل الأسرة أو القبيلة أو الطائفة لتتركه وحيدا بلا أنيس. ولم تستطع الإيديولوجيات الجماعية ولا الدعوات الوطنية أن تخفف الشعور بالوحدة. وهنا تكمن عبقرية الإسلام «الذي ظل محافظا على فكرة جماعة مستعدة أن تستقبل الفرد المنعزل وتساعده» (ص 139).

لقد اقتصرت الباحثتان على الغرب، والحال أن اعتناق الإسلام لا يقتصر على الغرب أو على بلدان منه. لقد أشارتا في اقتضاب إلى الاعتناقات الجماعية التي تحدث في الهند أو بإفريقيا الجنوبية. ولكن اعتناق الإسلام هو أعم وأشمل، ففي افريقيا اعتناقات تعد بالآلاف، وفي الاتحاد السوفيتي هناك انبعاث روح ديني له قوة وأوار وإن هو يجري في الخفاء وفي غيبة من الإعلام الذي يحاول التعتيم.

وقد أفاق مسؤولو الاتحاد السوفيتي على خطر ينخر في جسم المجتمع السوفيتي، بل في كيان الدولة هو

1) من مؤلفات كي ايتون :
«الاختيار والمسؤولية في العالم المتطور» «عادات الشرق وأفكار الغرب» «الإسلام ومصير الإنسان»... وكلها بالإنجليزية.

«القودكا» التي غدا شربها دينا في غياب دين يمنح الفرد توازنه الروحي، وكان أن أصبح القرآن الكريم أكبر كتاب يباع من حيث العدد بموسكو، في السوق السوداء طبعا !(2) وإن يكن هذا تقصيرا من الباحثين، فما هما بالملومتين، إذ ليست دراسة الموضوع دراسة سوسيولوجية في داخل الاتحاد السوفيتي بالأمر الهين.

وخلاصة ما يثيره الكتاب هو أن الدين ملازم لوجود الإنسان، لم تستطع الدعوى التي نادت بقرب «أجل الدين» أن تصمد لسيل التاريخ الذي هو القسطاس الذي لا يحيد. واتضح بالمعاينة أن كثيرا من الدعاوى والإيديولوجيات التي راهنت على نهاية الدين باسم العلم كانت أشد ضررا من الأفيون. وجاء الانطربولوجيون ليؤكدوا هذه الحقيقة. فقد يوجد قبيل بلا حضارة ولا معرفة، ولكن لا يمكن أن يوجد قوم بدون دين. ولن يكون القرن الواحد والعشرون الميلادي الذي نحن على مشارفه الاستثناء. لقد قال أندريه مالرو «إن القرن الواحد والعشرين سيكون متدينا، أو لن يكون»... ولعل الغيب يصحح مقولة مالرو فيكون أن «القرن الواحد والعشرين سيكون مسلما أو لن يكون..» أليس ذلك ما يكاد يفصح عنه كتاب الباحثين ؟ وإذ ذاك فلن يملك المؤمن إلا أن يردد قوله تعالى : ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا**﴾ صدق الله العظيم.

---

2) لمزيد من التفصيل أنظر :
V. Monteil; les musulmans en Union Soviétique.

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني

ولم يمض ـ شعبي العزيز ـ على مسيرتك إلا أيام قليلة، أحسست طيلتها بأروع ما يمكن أن يخامر النفس البشرية من إحساس حتى تبلج الصبح ووضح الحق المبين. وترعرع بعد الشك اليقين، وبان للناظرين أن مسيرتك صحيحة غير زائفة، وأنك جاد غير هازل وصادق غير كاذب. فرد الله إليك الصحراء ويسر بينك وبين أقربائك وأهلك التوصل واللقاء، وأسبغ عليك وعليهم المنة والنعماء.

من خطاب عيد العرش لسنة 1976

القاضي عياض

بين العلم والأدب

تأليف: الأستاذ العلامة عبد الله كنون

عرض وتقديم: نجـالة المريـنـي

صدر عن منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض كتاب القاضي عياض بين العلم والأدب لمؤلفه الأستاذ عبد الله كَنون، في سلسلة المكتبة الصغيرة، العدد 42، الطبعة الأولى 1984م، وهو يشتمل على 64 صفحة من الحجم الصغير... يزيّن ظهر غلاف الكتاب ترجمة لحياة المؤلف بقلمه وبخطّه..

ممّا لاشك فيه أن القاضي عياضا اشتهر عند المغاربة وغيرهم كعلم من أعلام الحديث والفقه. إذ تُعتبر مؤلفاته في هذا المجال عمدة الدارسين والباحثين المختصين، بل إنّ القولة المأثورة «**لولا عياض لما عرف المغرب**»، تؤكد مكانة هذا العلم الفذّ عند المسلمين قاطبة...

وشهرة هذا العالم الجليل كفقيه ومحدّث كادت أن تحجب عن الكثيرين حقيقته كأديب مبرز، له مكانته في ميداني الشعر والنثر في الأدب المغربي، غير أنّ صدور مؤلفين هامّين عن حياة عياض وأدبه ساعدا على التعريف به شاعراً وناثراً...

أما المؤلَّفَ الأول فهو كتاب التعريف لولده أبي عبد الله الصادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة سنة 1974. بتحقيق وتقديم أستاذنا الجليل الدكتور محمد بن شريفة.

وأما المؤلَّفَ الثاني فهو الموسوعة الأدبية الشهيرة أزهار الرياض في أخبار عياض لمؤلفها الأديب المؤرخ أبي العباس أحمد المقري، وهي في خمسة أجزاء قام بتحقيقها وضبط فهارسها جماعة من الأساتذة الأجلاء، وأشرفت على طبعها ونشرها اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة...

وكتاب التعريف يكاد يكون سيرة ذاتية للقاضي عياض بقلم أقرب الناس إليه؛ وهو ابنه، جمع فيه ما استطاع الوقوف عليه من شعر، إذ «كان شعره ـ رحمة الله عليه ـ

في شبيبته كثيراً»،[1] بل لقد كان أمل الإبن كبيراً في جمع هذه الأشعار في ديوان، فهو يقول : «وإني لأروم جمع ما اجتمع لي من نظم ينسب إليه في ديوان يشتمل عليه»[2] كما أنه أورد مجموعة من خطبه ورسائله، ونبذا من أخباره وإجازاته...

ولعلّ امتياز القاضي عياض كفقيه ومحدث وأديب استرعى انتباه المقري في القرن الحادي عشر ليكتب عنه، وليحفظ لنا مجموعة كبيرة من آثاره الشعرية والنثرية في كتابه «أزهار الرياض»، مع ما كانت تقتضيه المناسبة من وقفات عند شيوخه وأصدقائه من العلماء والأدباء والفقهاء...

وفي نطاق التعريف بالفقيه المحدث القاضي عياض كأديب ومبدع وناقد ومحدث وفقيه، خصته مجلة الإيمان[3] بعدد مزدوج ممتاز وذلك سنة 1978 م، ويتضمن العدد مجموعة من الأبحاث والمقالات التي توصلت بها المجلة كمشاركة من أصحابها في «إقامة مهرجان ثقافي للتعريف بعلم المغرب الأوحد الإمام الحافظ أبي الفضل عياض وذلك خلال سنة 1393 هـ، لكن ظروفا قاهرة صرفتنا عن تحقيق رغبتنا، وحالت بيننا وبين ما كنا نطمح إليه من إقامة مهرجان القاضي عياض»[4]، وبطبيعة الحال، فلتعذر إقامة المهرجان قامت المجلة بنشر هذه المقالات والأبحاث في هذا العدد الخاص.

وقد تطرق الباحثون في مواضيعهم ـ كل حسب اهتماماته ـ إلى الحديث عن القاضي عياض من زاوية معينة، فالشيخ الرحالي الفاروقي ـ رحمه الله ـ يتطرق إلى مكانته العلمية والاجتماعية، والأستاذ أبو بكر القادري يتطرق إلى نضالية عياض ودفاعه عن عقيدته ومذهبه، والأستاذ عبد الله الجراري ـ رحمه الله ـ يتحدث عن القاضي عياض من خلال مشيخته الأدبية، والأستاذ عبد الله كَنون يتحدث عنه بصفة عامة، فقد كان عنوان بحثه القاضي عياض، إلى غير ذلك من المواضيع التي بلغت عشرا، بالإضافة إلى قصيدتين شعريتين في مدحه والتنويه بمؤلفاته...

وفي مجال الدراسات الإسلامية، فقد نوقشت بدار الحديث الحسنية بالرباط رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا حول القاضي عياض[5]، تناولت سيرته ومؤلفاته ومشيخته، بالإضافة إلى تخصيص فصل للحديث عن أدبه شعرا ونثرا كما لا يجب أن نغفل إسهام مجلة المناهل المغربية[6] بإصدار عدد خاص عن القاضي عياض للتعريف به وبمجالات تخصصه المختلفة، وذلك في دجنبر 1980، أما المواضيع التي تطرق إليها الباحثون المشاركون في هذا العدد فيمكن القول بأنها تتوزع بين مواضيع أدبية وعلمية ونقدية ولغوية، فضلا عن مواضيع تتعلق بالتعريف به وببعض مؤلفاته الدينية ككتاب الشفا ومشارق الأنوار، أو تتعلق بمنهج البحث الأدبي في بعض مؤلفاته الأدبية.

ومن المواضيع الأدبية موضوع الأستاذ عبد الله كَنون وعنوانه : القاضي عياض أديبا، حيث أبرز مشاركته في علوم وفنون شتى، وإن طغت شهرته في مجال الفقه والرواية والحديث، فهو شاعر وناثر، ومن بين مواضيع العدد القاضي عياض الناقد للدكتور عبد الله الطيب، فهو ـ أي عياض ـ من أكبر النقاد ـ كما جاء في بحثه ـ من خلال رسالته النقدية «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد»، وكذلك موضوع القاضي عياض الناقد البلاغي للأستاذ محمد بن تاويت، أما الأستاذ محمد بنشريفة فقد كان موضوعه كتاب التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله، إلى غيرها من الأبحاث الهامة التي انصبت على دراسة منهجه وفكره اللغوي، وباختصار، فإن هذا العدد الممتاز من مجلة المناهل عن القاضي عياض كما جاء في الافتتاحية قد «أسهمت في تحريره نخبة من كبار الباحثين المتخصصين المغاربة والمشارقة»[7].

1، 2) كتاب التعريف ص : 101.

3) العددات 72، 73.

4) من الكلمة الافتتاحية لمجلة الإيمان، ص : 3.

5) صاحب الرسالة هو السيد أحمد بغداد، أما المناقشة فكانت سنة 1978 م.

6) العدد 19، السنة السابعة.

7) افتتاحية العدد ص 9.

كما أن دورة القاضي عياض[8] المنعقدة برعاية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في إطار ندوة الإمام مالك بمراكش سنة 1981 م، أسهمت بحظ وافر في التعرف إلى كثير من معالم شخصية هذا العالم الفقيه كشاعر وناثر، فقد كان من بين بحوثها بحث للأستاذ شبيهنا حمداتي ماء العينين بعنوان القاضي عياض الشاعر، وبحث للأستاذ المرحوم عبد الله الجراري بعنوان «أبو الفضل عياض من خلال ثقافته وأدبه»، وبحث للأستاذ عبد الله كنون بعنوان القاضي عياض، وغيرها من البحوث التي ركزت على جوانب من أدبه في هذه الدورة... وفي إطار العناية بالقاضي عياض كأديب نوقشت رسالة جامعية عن القاضي عياض الأديب[9] بكلية الآداب بالرباط سنة 1982 م، وقد تم طبع هذه الرسالة بطنجة في سلسلة رسائل جامعية (1) سنة 1983 م.

☆ ☆ ☆

ويعتبر صدور كتاب العلامة الجليل عبد الله كنون عن القاضي عياض تلخيصا للدور الريادي الذي قام به هذا العالم في ميداني العلم والأدب، ففي هذا الكتاب جمع المؤلف مقالاته عن القاضي عياض والتي كان قد شارك بها في مجلة المناهل، وفي ندوة الإمام مالك في دورة القاضي عياض، بالإضافة إلى محاضرة ألقاها في مدينة الدار البيضاء كما أخبرني بذلك فضيلته، وهي ـ عن مساهمة المغرب في بناء الحضارة العربية...

ولعل المؤلف الأستاذ كنون أشار في مقدمة كتابه إلى موضوعه، وإلى أسباب نشره الكتاب، لكن غياب هذا التقديم (أو المقدمة) يحجب عنا حقيقة ذلك، فالكتاب صدر بدون مقدمة لنسيان الناشر لها كما حدثني بذلك فضيلته ـ واعدا بإثباتها في طبعة ثانية...

أما الكتاب فإنه يضم الفصول الآتية :

الفصل الأول :

ويتعرض فيه المؤلف «مساهمة المغرب في بناء الحضارة العربية والعلوم الإسلامية»[10]، محللا ظروف قيام الدولة الإدريسية بالمغرب سنة 172 هـ، وما قامت به من أجل توحيد البلاد، وإرساء دعائم الحكم، ومن ثم من أجل بناء كيان حضاري للدولة حيث «برزت شخصية المغرب كدولة لها كيانها ومقوماتها الروحية والمادية التي تحفظ وحدتها، وتضمن بقاءها على الدوام والاستمرار»[11]، وإذا كانت «النهضة العلمية والأدبية تأخرت في المغرب إلى ما بعد القرن الرابع، فأنها كذلك تأخرت في بقية الأقطار العربية التي لم تكن مركزا للخلافة»[12]، وهذا يدعو إلى القول بأن علماء وأدباء وأئمة الأمة العربية هم «تراث مشترك بين أبناء العروبة كلهم، مشرقيهم ومغربيهم»[13] فلا مجال «لغمز أو لمز الأقطار التي تأخرت نهضتها إلى ما بعد القرن الرابع، ولا سيما في المغرب»[14].

لقد كان في توحيد المغرب على يد الملوك المرابطين والموحدين بعدهم شأنه في تقدم الحياة الفكرية وتطورها، خاصة بعد ضعف السلطة في الأندلس، ومسارعة يوسف بن تاشفين إلى نجدة ملوكها، والعمل على الحفاظ عليها... وهكذا نجد أعلاما كابن زهر وابن طفيل وابن باجه وغيرهم «قد نبغوا أيام المرابطين، وآتوا أكلهم الشهي في أيام الموحدين»[15]، كما أن النهضة الأدبية عرفت تقدما ملموسا أيام المرابطين والموحدين، يدل على ذلك المصنفات التي كتبت بأسماء الملوك والأمراء كقلائد الفتح بن خاقان وذخيرة ابن بسام، وصفوة الأدب للجراوي. ويتحدث المؤلف ـ في هذا الفصل أيضا ـ عن الدور الهام

8) دورة القاضي عياض في ثلاثة أجزاء، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. طبعة 1983 م.
9) صاحب الرسالة هو السيد عبد السلام شقور.
10) كتاب القاضي عياض بين العلم والأدب ص 5. الأصل في هذا الفصل محاضرة ألقاها المؤلف في مدينة الدار البيضاء كما أخبرني بذلك فضيلته.
11) نفس الكتاب ص 6.
12) نفس الكتاب ص 8.
13) نفس الكتاب ص 9.
14) نفس الكتاب ص 9 بتصرف.
15) نفس الكتاب ص 11.

الذي قام به المغاربة - ويمثلهم الأمير أبو بكر اللمتوني - لنشر الإسلام واللغة العربية في بلاد أفريقيا، وكذلك دور جامعة القرويين في بناء صرح كيان الثقافة العربية الإسلامية، فهي «منذ تأسيسها سنة 245 هـ منارة إشعاع فكري في العالم الإسلامي إلى جانب شقيقيها جامعة الزيتونة وجامعة الأزهر»[16]، ومن علماء المغرب ونبغائه في العلوم والفنون القاضي عياض وابن أجروم وأبو موسى الجزولي وابن حبوس وابن عطية والجراوي وابن المرحل والجزنائي والفشتالي وابن زاكور وغيرهم كثير، إضافة إلى طائفة أخرى من العلماء نبغت في ميدان التاريخ والجغرافيا والرحلات، فخلدوا في أعمالهم ومؤلفاتهم ذكرهم وذكر بلادهم المغرب، وبطبيعة الحال فقد أسهموا في «خدمة التاريخ السياسي والأدبي لهذا الجناح من العالم العربي»[17]... وأخيرا يمكن القول بأن هذا الفصل خاص بالحياة العلمية والفكرية والأدبية والعمرانية في المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، فهو «خير تقويم لمساهمة المغرب في بناء الحضارة العربية، بل أقربه إلى الإنصاف وأقله تبجحا»[18].

الفصل الثاني :

ويتناول فيه المؤلف فصولا من حياة القاضي عياض في المغرب والأندلس، فهو طالب علم، يناظر العلماء ويجالسهم ويتفوق عليهم، فهو كما قال عنه ابن الأبار في معجم أصحاب أبي علي الصدفي : «كان لا يدرك شأوه، ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل في فهم معانيه، إلى اضطلاعه بالآداب وتحققه بالنظم والنثر، ومهارته في الفقه ومشاركته في اللغة العربية، وبالجملة فكان جمال العصر ومفخر الأفق»[19].

وقد عني عياض بعلوم الفقه والحديث، وألف في ذلك كتبا مفيدة ككتاب الشفا، ومشارق الأنوار على صحاح الآثار، وكتاب إكمال المعلم، والإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، وكتاب ترتيب المدارك، والغنية والبغية، وكلها كتب حظيت بتقريظ الشعراء والعلماء، من ذلك ما قيل في كتاب الشفا :[20]

شفى بالشفا ما في النفوس فلم يدع
مقالا لـذي قول بجهر ولاسر
فقسم أقساما وبوبها معا
وفصلها مقبولة العلم والذكر

ومما قيل في كتاب مشارق الأنوار :[21]

مشارق أنوار تبدت بسبتة
ومن عجب كون المشارق بالغرب

وبالإضافة إلى تفوق القاضي عياض في العلوم الدينية، فقد تفوق في الميدان الأدبي، فهو «يمتاز ببراعته في الأدب وصناعتي النظم والنثر والخطابة، ومعرفته الواسعة بالأخبار والتواريخ إلى غير ذلك، مما جعل منه معلمة محيطة مفتوحة لكل طالب وراغب»[22].

أما عن صفاته وأخلاقه فقد شهد له الكثير من الأدباء والمؤرخين بالفضل والإحسان والسيرة الحميدة، وصفه الفتح بن خاقان في كتابه القلائد فقال : «...وأزرت محاسنه بالنبذ اللياح، وسرت فضائله سري الرياح، فتشوقت لعلاه الأقطار، ووقفت تحكي نداه الأمطار...»[23].

الفصل الثالث :

ويخصصه المؤلف لأدب القاضي عياض مشيرا إلى آراء الأدباء والمؤرخين في أدبه، وإجماعهم على أنه «كان

---

16) نفس الكتاب ص 15.
17) نفس الكتاب ص 18.
18) نفس الكتاب ص 26.
19) نفس الكتاب ص 34، وانظر معجم أصحاب الصدفي لابن الأبار ص 296، والأصل في هذا الفصل الثاني موضوع شارك به الأستاذ كنون في دورة القاضي عياض سنة 1980.
20) نفس الكتاب ص 42.
21) نفس الكتاب ص 43.
22) نفس الكتاب ص 29.
23) نفس الكتاب ص 16، وانظر قلائد العقيان ص 222.

كاتبا شاعرا مجيدا ريان من علوم الأدب، خطيبا بليغا»[24]، ويرى الأستاذ عبد الله كَنون أن كل مؤلفات القاضي عياض قد استوعبت حصيلته الأدبية في تمثله للتراث واستشهاده «بالفوائد اللغوية والأدبية والشواهد الشعرية للألفاظ الغريبة»[25]. ولم يكتف عياض بتوظيف حصيلته اللغوية والأدبية في مؤلفاته السابقة، بل لقد كان «أديبا بالممارسة الفعلية والتجربة العملية»[26]، فهو «قد تعاطى الأدب وبرز فيه، وساجل أعلامه وسابق فرسانه»[27].

ويرى المؤلف أن عياضا «ناثرا أبلغ منه شاعرا»[28]، فكتاباته العلمية أو الأدبية غزيرة جيدة، سواء ما تعلق بخطب كتبه أو مقدمات مؤلفاته، أو ما تعلق برسائله الإخوانية أو النبوية وغيرها من كتاباته، تزينها حلة بيانية متميزة، وتطبعها قدرة فائقة على تمثل التراث شعرا ونثرا، خطبا وأمثالا.

ويستشهد المؤلف ببعض النماذج النثرية من كتابات عياض في الترسيل والخطب، فهي «تنبئ عن مقدرة بيانية كفيلة ببلوغ الأغراض، وتحقيق الأهداف بلغة واضحة سهلة، وإن سلكت يسبيل العصر في السجع والتقفية»[29].

أما شعره فقد «استجاده دهاقنة الكلام وصيارفة النقد، وأثبتوه في مجموعاتهم ومختاراتهم»[30]، ففي كتاب التعريف وأزهار الرياض نماذج ومختارات لأشعاره، وفيها «نتحسس نفسا عاليا، ونتلمس ديباجة رقيقة»[31]، ويكتفي المؤلف الأستاذ عبد الله كَنون بإيراد أربعة نماذج من شعره : في الشوق إلى بلده، وفي وصف تباريحه وأوصابه، من ذلك قوله :[32]

يا من يحمل عني غير مكترث
لكنه للضنى والسقم أوصى بي

تركتني مستهام القلب ذا حرق
أخا هوى وتباريح وأوصاب

أراقب النجم في جنح الدجى سهرا
كأنني راصد للنجم أوصابي

وما وجدت لذيذ النوم بعدكم
إلا جنى حنظل في الطعم أوصاب

ويختم المؤلف حديثه عن عياض الشاعر «مبينا أن عياضا الأديب لا يقل شأنا عن عياض العالم، وما أحسن العلم والأدب إذا اجتمعا»[33].

وأخيرا يمكن القول بأن مؤلف الأستاذ الجليل عبد الله كَنون عن القاضي عياض بين العلم والأدب يهدف إلى التعريف بشخصية هذا العالم الفقيه كمعلمة في ميداني العلم والأدب في عصر المرابطين، هذا العصر الذي «تبوأ فيه المغرب مكان الصدارة في الحياة الفكرية العربية، وأسهم مساهمته الفعالة في تقدم هذه الحياة، وذلك حيث توحد على يد أمراء المسلمين من ملوك المرابطين»[34].

24) نفس الكتاب ص 51، يظهر أن هذا الفصل كان في أول الأمر فصلة من الموضوع الذي شارك به في العدد الخاص بالقاضي عياض في مجلة المناهل، العدد 19، ص 47.

25) نفس الكتاب ص 52.

26، 27، 28) نفس الكتاب ص 53.

29) نفس الكتاب ص 58.

30، 31) نفس الكتاب ص 60.

32) نفس الكتاب ص 62.

33) نفس الكتاب ص 63.

34) نفس الكتاب ص 11.

أعدها : أبو عمر الفاروق

محاضرات المولد الشريف

احتفالاً بعيد المولد النبوي الشريف، نظمت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية برنامجا حافلا تضمن عدداً من المحاضرات في الموضوع، ألقاها صفوة من العلماء والأساتذة الجامعيين شملت مجموع أقاليم المملكة، وفيما يلي قائمة بأسماء الأساتذة المحاضرين، وأماكن المحاضرات وعناوينها.

- الأستاذ الشيخ محمد المكي الناصري . . . . : البيضاء أنفا
  * السيرة النبوية أساس التربية الإسلامية
- الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) . : العيون
  * الوالدة والولد
- الدكتور سعيد بلبشير . . . . : فاس
  * أهمية الاجتهاد في الشريعة
- الدكتور مولاي إدريس العبدلاوي . . . . : تطوان
  * نضال ملوك الدولة العلوية من أجل التمسك بالكتاب والسنة النبوية
- الدكتور محمد الكتاني . . . . : سلا
  * أضواء على الرسالة المحمدية
- الدكتور أحمد الخمليشي . . . . : مكناس
  * من ذكرى مولد الرسول ﷺ
- الدكتور محمد يسف . . . . : الخميسات
  * المولد النبوي احتفالا وتصنيفا
- الدكتور إبراهيم بن الصديق . . . . : خريبكة
  * البعثة المحمدية رحمة بالإنسانية
- الدكتور عمر الجيدي . . . . : أزرو
  * مولد الرسول ﷺ
- الدكتور حمداتي شبيهنا ماء العينين . . . . . : السمارة
  * أثر السيرة النبوية في تكوين مجتمع العدل والمحبة
- الدكتور يوسف الكتاني . . . . : مراكش
  * في رحاب مولد الرسول ﷺ
- الدكتور عبد الوهاب التازي سعود . . . . . . : العيون ـ الداخلة
  * اليسر في الإسلام

قضايا و أخبار

ـ الدكتور عبد السلام الهراس . . . . : طنجة ـ العرائش

* المدرسة المحمدية مدرسة البناء والتنمية

ـ الدكتور المزغراني بن معجوز . . . . : تاونات

* مزايا التشريع في الرسالة المحمدية

ـ الدكتور محمد السرغيني . . . . : بولمان

* أدبيات شعر المديح النبوي

ـ الدكتور عبد السلام الإدغيري . . . . : سيدي قاسم

* في رحاب السيرة النبوية

ـ الأستاذ عبد اللطيف الشاذلي . . . . : الجديدة

* حول المولد النبوي الشريف

ـ الأستاذ مولاي المصطفى العلوي . . . . : البيضاء (عين السبع)

* في رحاب السنة النبوية

ـ الأستاذ أحمد أفزاز . . . . : فكيك (بوعرفة)

* موقع الإنسان في القرآن

ـ الأستاذ لاراباس ماء العينين . . . . : بوجدور

* قبسات من شمائل الرسول ﷺ

ـ الأستاذ الحسين وجاج . . . . : كلميم

* الرسول ﷺ ومسيرة القرآن والإيمان

ـ الأستاذ عبد الله شاكر الكرسيفي . . . . : طاطا

* في السيرة النبوية

ـ الأستاذ عبد السلام جبران . . . . : أكادير

* في رحاب السيرة النبوية

ـ الأستاذ محمد حدو أمزيان . . . . : الناظور

* بعثة الرسول ﷺ من مَنِّ الله على المؤمنين انطلاقا من قوله تعالى :

﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾.

ـ الأستاذ المقدم بوزيان . . . . : وجدة ـ الحسيمة

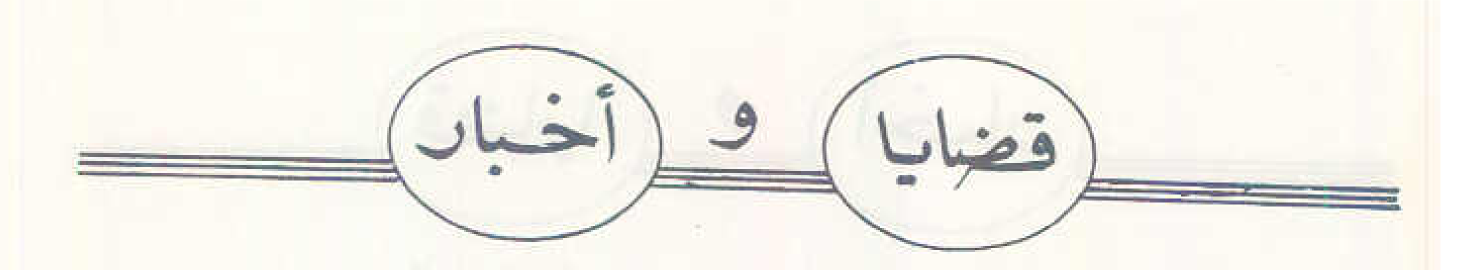
* ميلاد الأمة الإسلامية

ـ الأستاذ مولاي المهدي القاسمي . . . . : البيضاء (عين الشق ـ الحي الحسني)

* ذكرى مولد النور والهداية

قضايا و أخبار

- الأستاذ خليفة المحفوظي . . . . : بني ملال
  * نماذج من الدبلوماسية في السيرة النبوية
- الأستاذ المصطفى صغيري . . . . : تمارة ـ الصخيرات
  * بيعة الرسول ﷺ أساس قيام الدولة الإسلامية
- الأستاذ الحسن بن الصديق . . . . : شفشاون
  * من أخلاق الرسول ﷺ
- الأستاذ عبد اللطيف خالص . . . . : ابن سليمان
  * الحرب النفسية ضد الرسول أثناء نشر الدعوة الإسلامية
- الأستاذ عبد القادر العافية . . . . : تزنيت
  * تفسير ما جاء في الحديث الشريف : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»
- الأستاذ محمد أبو الفضل . . . . : ورزازات
  * قبسة من أنوار الوحي
- الأستاذ عبد الحي العمراني . . . . : خنيفرة
  * سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام
- الأستاذ سعيد بوركبة . . . . : البيضاء (الفداء)
  * مراحل الدعوة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ
- الأستاذ على أيت علي . . . . : آسفي
  * الرسول القدوة
- الأستاذ مصطفى بنحمزة . . . . : تازة
  * أساسات إسلامية
- الأستاذ عبد الغفور الناصر . . . . : المحمدية زناتة
  * الدعوة الإسلامية خصائصها ومميزاتها
- الأستاذ لحسن العبادي . . . . : تارودانت
  * مظاهر تعظيم المغاربة للجانب النبوي الشريف
- الأستاذ عبد الحميد محيي الدين . . . . : قلعة السراغنة
  * المولد سيرة وذكرى
- الأستاذ عبد الواحد عدنان . . . . : الرشيدية
  * السيرة النبوية العطرة والرسالة الخالدة
- الأستاذ محمد الصوفي . . . . : القنيطرة
  * العمل عبادة
- الأستاذ مصطفى بوذروة . . . . : الصويرة
  * من عطاء السيرة



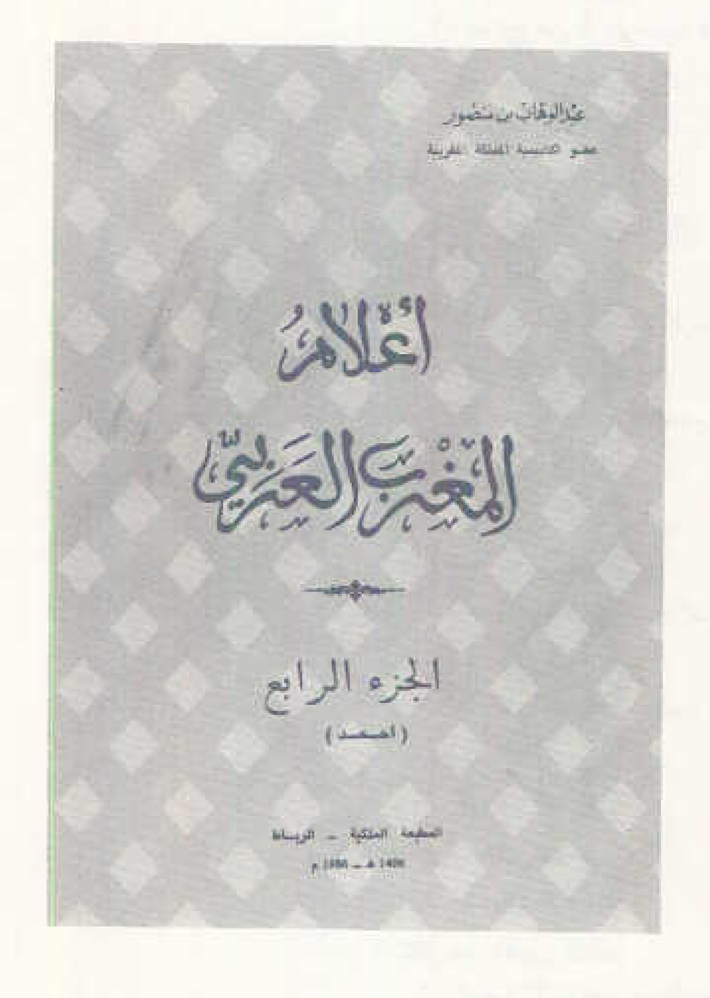
أعلام المغرب العربي
المجلد الرابع

أصدر مؤرخ المملكة وعضو أكاديمية المملكة العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور : **«المجلد الرابع» من موسوعته التاريخية : «أعلام المغرب العربي»**، الذي صدر مجلده الأول قبل سبع سنوات.

ويشمل المجلد الرابع هذا : تراجم الأحمدين في القرنين السابع والثامن، ابتداء من ابن أبي اليسر القرشي المتوفى في شهر رمضان عام 600 للهجرة، وانتهاء بالسلطان الحفصي أحمد بن محمد بن أبي بكر المتوفى في شعبان عام 796.

وهذا الترتيب المزدوج (الألفبائي التاريخي) قد يكون من مميزاته أن يزود الباحث برؤية شاملة تسلط الأضواء على النابهين في مجالات العلم والأدب والسياسة في الغرب الإسلامي.

وقد بلغ مجموع التراجم التي أنجزت إلى صدور هذا المجلد 1370 ترجمة، وكلها واقعة في أول حروف الهجاء، ومن هنا يتضح رحابة المجال وسعته، بما يوحي بأن إنجاز مثل هذا المشروع العظيم، يحتاج لعشرات السنين والمعاونين والمساعدين، ولكن من يتصل بالأستاذ عبد الوهاب من قرب، ويعرف نشاطه ودأبه وولعه وسعة إطلاعه، ورسوخ قدمه في هذا الفن، يعز عليه أن ينهض بهذا العبء غير الأستاذ عبد الوهاب الذي احتشد لفن التاريخ عموماً، والتراجم بوجه خاص، منذ زمن ليس بالقصير.



ومنذ أن طلع على الناس بباكورة أعماله التراجمية عن ابن الطيب العلمي صاحب الأنيس المطرب، وهو يوالي جهوده وجهاده في هذا الميدان الفسيح، في مؤلفاته وتحقيقاته ومقالاته، يعينه على ذلك ما تزخر به مكتبته من نوادر المطبوعات ونفائس مصورات المخطوطات.

أملنا أن نرى قريبا توالي صدور مجلدات هذا المشروع الفريد الذي سيثري رصيدنا العلمي والتاريخي، وسيكون زاداً للأجيال الصاعدة من الباحثين ستقدره حق قدره، ودعاؤنا لمؤلفه باطراد التوفيق، وتحية لجهوده.

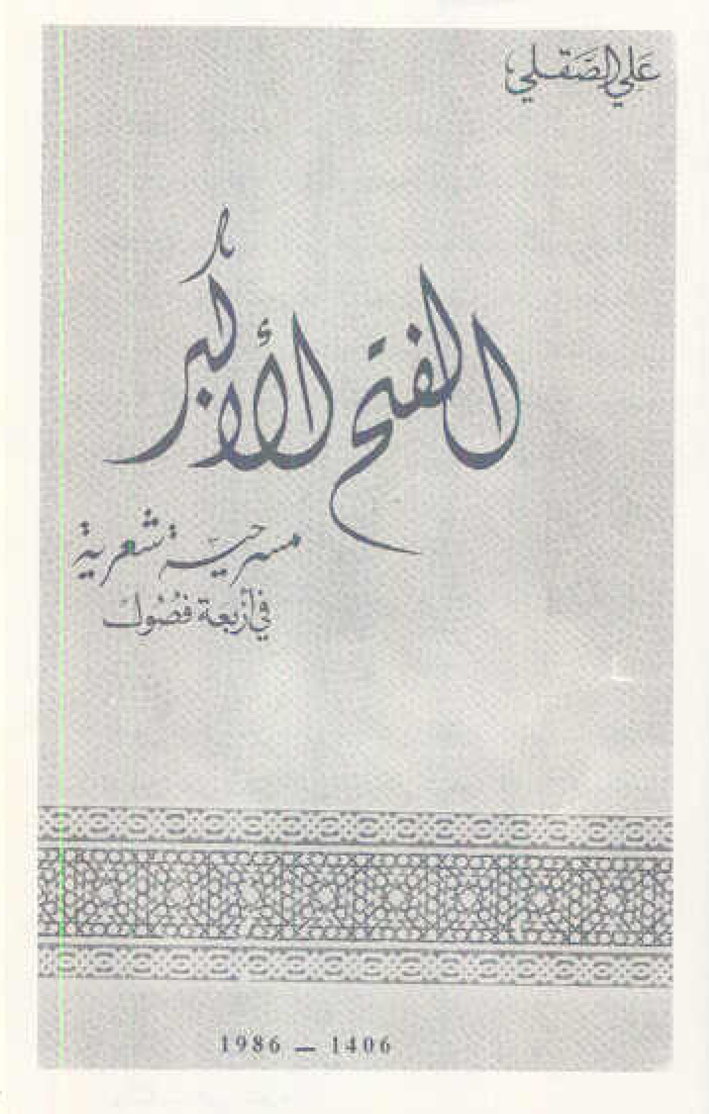


الفتح الأكبر
للأستاذ علي الصقلي

صدرت مؤخرا للشاعر الأستاذ «علي الصقلي» رواية بعنوان «الفتح الأكبر». وهي رواية شعرية تقع في أربعة فصول، وتشتمل على ما يناهز مائتين وثلاثين صفحة، وقد تولى تقديمها الأستاذ البحاثة الدكتور محمد بنشريفة، عضو الأكاديمية المغربية.

وإذا كانت الرواية تدور حول موضوع الفتح الإسلامي للبلاد الإسبانية على يد طارق ابن زياد، فليس معنى ذلك أن الشاعر، حسبما تلمسناه في الرواية فصلا فصلا، ومشهدا مشهدا، قد وقف جامدا عند أحداث التاريخ، يرويها كما هي، بحرفية وجمود، وإنما الذي فعل، هو أنه فلسف تلك الأحداث، وحوّرها، وطوّرها، بما بعث فيها الحياة بعثا يتلاءم وديناميكية الخشبة، وتفاعل المتحركين فوقها، والأدوار التي نيطت بهم جميعا، كل بما يناسبه، وهذه مهمته كمسرحي، يبعث التاريخ من مرقده في بطون الكتب، ليجعل منه مادة حية، تتنفس فوق الخشبة، وتنتعش على أفواه الممثلين، وفي حركاتهم وأقوالهم.

والملاحظ أن الشاعر لم يترك من تاريخ هذا الفتح شاذة ولا فاذة إلا أتى عليها، ووظفها توظيفا ذكيا للتصميم الذي أقام عليه روايته، تارة بمجاراة للتاريخ، وأخرى بعيدا كل البعد عنه، ومن هنا نستطيع القول بأنه حلق أحيانا في آفاق الخيال تحليقا يغني مشاهد الرواية، ويجعل منها سلسلة متصلة الحلقات، تفرض على القارئ أن يتتبعها في شغف وتطلع، حتى يأتي على نهايتها، وهو أسعد ما يكون.

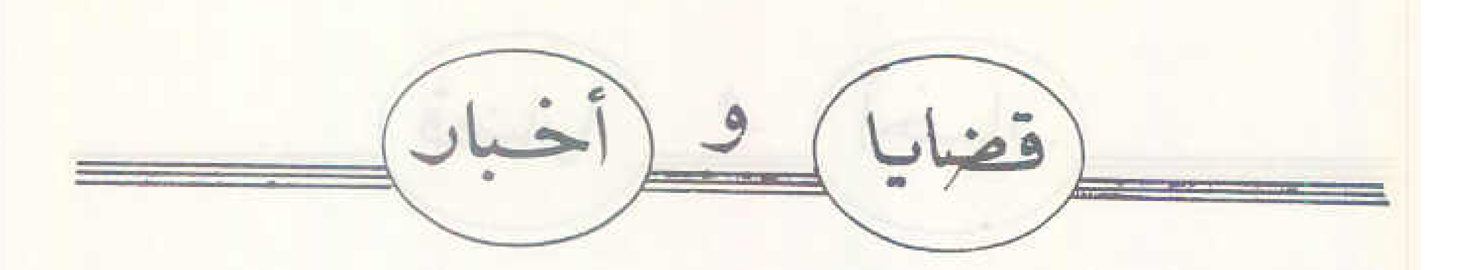


ولقد صدق الدكتور بنشريفة في قوله عن الرواية :

...إن تشعب الحوار، وتناميه، وتلونه، خلال فصول المسرحية ومشاهدها، يدل على طول باع الشاعر، وعلو كعبه في البناء المسرحي، ويشهد بسعة نفسه، فيما تضيق فيه الأنفاس،...

ويضيف الدكتور بنشريفة قائلا :

«وعسى أن نجد في الشاعر علي الصقلي، في هذا الجانب الغربي من عالمنا العربي، خلفا للذين سبقوه في



ميدان الشعر المسرحي من المشارقة من أمثال : أحمد شوقي، وعزيز أباظة، ومن لف لفهما من الكبار...».

قد يؤكد هذا الأمل أن صاحب هذه المسرحية هو مؤلف مسرحية «**المعركة الكبرى**» التي فازت بجائزة المغرب للآداب والفنون منذ سنوات، والتي تُدرَّس في المؤسسات التعليمية ببلادنا، كإبداع مسرحي شعري، وحيد في بابه.

ابن صارة الشنتريني : حياته وشعره

صدر مؤخراً عن مطابع النور بتطوان كتاب جديد للدكتور حسن الوراكلي أستاذ كرسي الأدب الأندلسي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بتطوان.

ويتألف الكتاب من مدخل في عصر الشاعر وثلاثة فصول :

الأول في حياته.

والثاني في ثقافته.

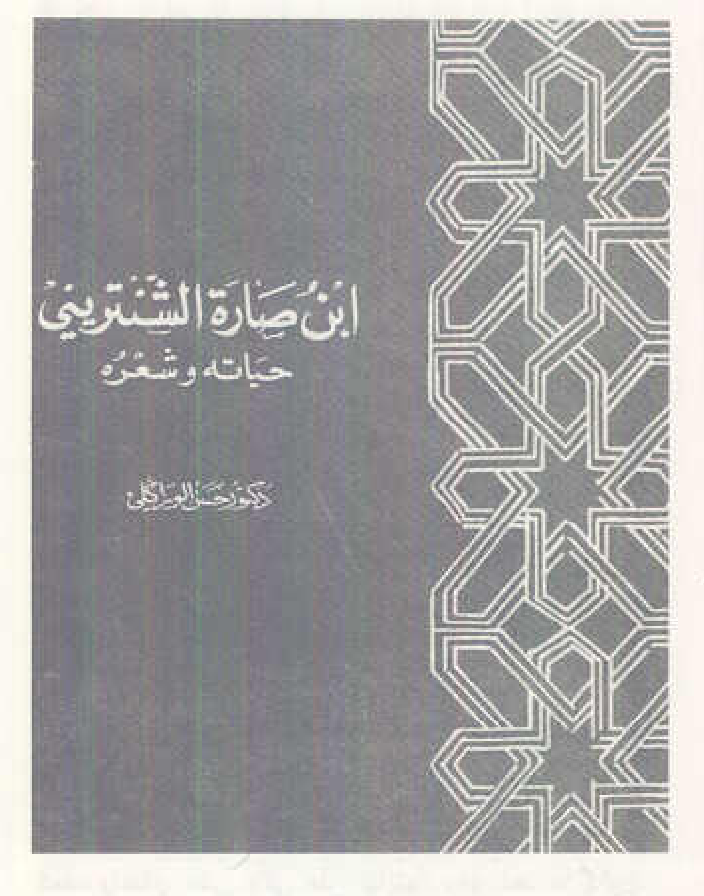
والثالث في شعره.

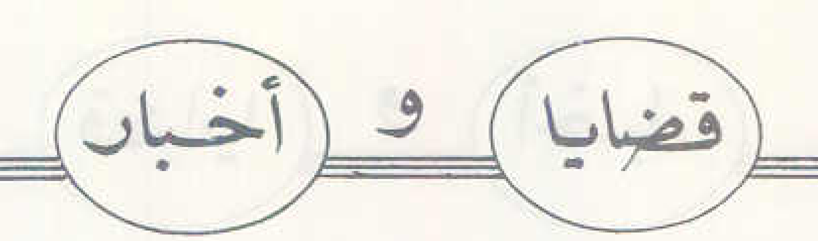
والكتاب في الأصل قسم من رسالة جامعية كان أعدها المؤلف باللغة الإسبانية تحت إشراف الدكتور فرناندو دي لاكرانخا بآداب مدريد.

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب :

(... رأينا فيما تضمنه هذا القسم من درس لنتاج ابن صارة الشعري الذي استطعنا جمعه وتحقيقه، وما وصلنا من أخبار عن سيرته وعلاقته بأعلام عصره وخاصة فقهاء الأندلس وحكامها ما عساه يسعف على استجلاء ملامح من الوجه الأدبي لدولة الملثمين في عدوة الأندلس، ويؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على رعاية هذه الدولة للأدب والشعر، وتقديرها للمبرزين من رجالها، أمثال ابن صارة.

ومثل هذا المقصد وحده كاف، فيما نحسب، لتحقيق الفائدة من نشر هذه الدراسة، وإن تقادم العهد بتحريرها، هذا فضلاً عن مقاصد أخرى لها، في طليعتها استكمال حلقات الدرس والبحث في تراث الأندلس على عصري الطوائف والمرابطين...).





محمد المختار السوسي
دراسة لشخصيته وشعره

• صدر مؤخرا للأستاذ محمد خليل كتاب : «محمد المختار السوسي» : دراسته لشخصيته وشعره.

والكتاب في الأصل جزء من رسالة جامعية أنجزها المؤلف تحت إشراف الأستاذ الدكتور عباس الجراري لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب من كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط.

يقع الكتاب في 553 صفحة من القطع الكبير ويتألف من مدخل تاريخي وثلاثة أبواب.



- يقدم المدخل إطارا تاريخيا لعصر «محمد المختار السوسي» : (1900 ـ 1963) من النواحي السياسية والثقافية والأدبية.

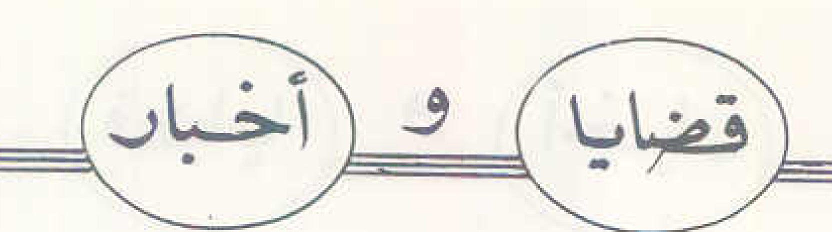
- أما الباب الأول فيتناول : حياة وشخصية محمد المختار السوسي وذلك من خلال ستة فصول :
  - الفصل الأول : بيئته وأسرته
  - الفصل الثاني : حياته
  - الفصل الثالث : ثقافته
  - الفصل الرابع : شخصيته
  - الفصل الخامس : آثاره.
  - الفصل السادس : أدبه.

- الباب الثاني : موضوعات شعره.

  ويتألف من تمهيد وستة فصول
  - التمهيد : مصادر شعره
  - الفصل الأول : شعره الإخوانيات
  - الفصل الثاني : الوطنيات
  - الفصل الثالث : التلميذيات
  - الفصل الرابع : الوصف
  - الفصل الخامس : تأملات وخواطر
  - الفصل السادس : موضوعات مختلفة.

- الباب الثالث : خصائص شعره.

  ويتألف من تمهيد وأربعة فصول
  - التمهيد : مفهوم الشعر عنده
  - الفصل الأول : خصائص شكلية : الأوزان، القوافي اللغة...

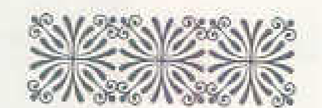


- الفصل الثاني : بين التقليد والتجديد
- الفصل الثالث : بين العفوية والتكلف
- الفصل الرابع : قيمة شعره الأدبية والتاريخية

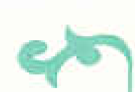
وختم الكتاب بمجموعة من الفهارس وهي :

1 - فهرس المصادر والمراجع
2 - فهرس الأعلام
3 - فهرس الأماكن
4 - فهرس الجماعات والطوائف والدول
5 - فهرس المحتويات.

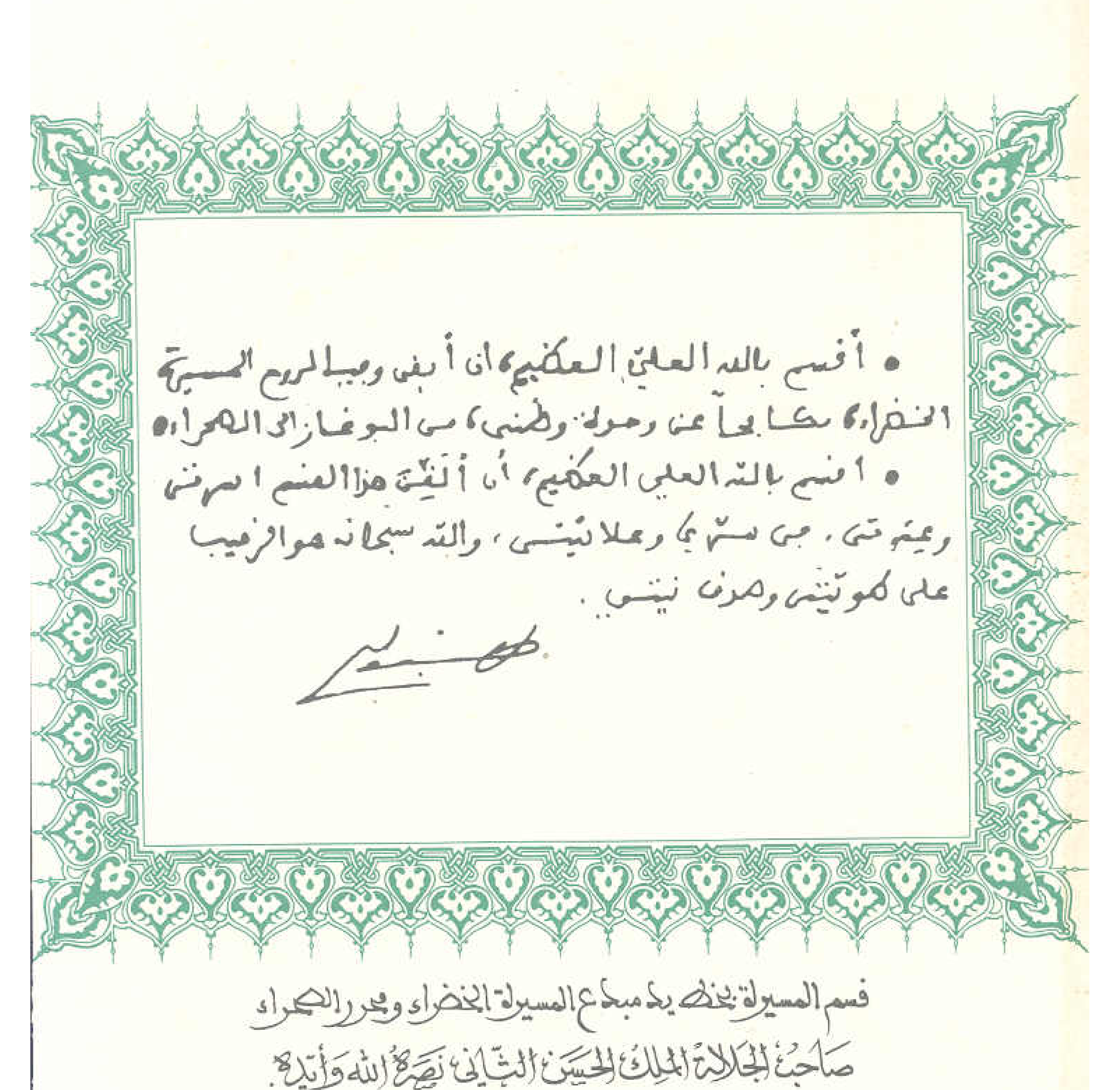
وخلاصة القول أن الكتاب يسلط الأضواء على كثير من جوانب شخصية محمد المختار السوسي، وعلى موضوعات وخصائص شعره الغزير في مادته، المتنوع في موضوعاته وقضاياه.



مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3



فهرس العدد 260



• أقسم بالله العلي العظيم، أن أبقى وفيا لروح المسيرة الخضراء، مكافحا عن وحدة وطني، من البوغاز إلى الصحراء.

• أقسم بالله العلي العظيم، أن ألقن هذا القسم أسرتي وعشيرتي، في سرها وعلانيتها، والله سبحانه هو الرقيب على طويتي وصدق نيتي.

قسم المسيرة بخط يد مبدع المسيرة الخضراء ومحرر الصحراء
صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده.